محتويات العدد

أبحاث لغوية ومعجمية

أبحاث ودراسات بلغات أجنبية

مفهوم البنية العميقة بين جومسكي والدرس النحوي العربي

د. مرتضى جواد باقر
جامعة البصرة

1 ـ توطئة: تناقش هذه الدراسة مفهوم البنية العميقة ــ أحد الافتراضات النظرية الأساسية في مدرسة القواعد التوليدية التحويلية ووجود ما يكافؤه في الدرس النحوي العربي. إن هذا أمر تستنتجه بعض الدراسات التي قارنت بين المناهج اللغوية الحديثة ومنهج الدرس اللغوي العربي. لقد شاع استخدام هذا المصطلح ــ مصطلح البنية العميقة ــ في السنين الأخيرة، فنجده في الكثير من المقالات والأبحاث التي تهتم بدراسة لغة النص الأدبي في محاولتها تقويمه جماليا يستخدم بمعنى عام هو المقاصد الخفية لكاتب النص، أو المعنى الخفي للجملة أو البيت الشعري. ومن ناحية أخرى ـ وهو ما سنعنى به في هذه الدراسة ــ نجد العديد من المقالات والدراسات التي تنشر هنا وهناك تكتب عن هذا المفهوم وعن كونه واحدا من المنطلقات النظرية في الدرس النحوي العربي. وفي هذه الدراسات والمقالات نشعر أن هناك الكثير من التوسع في تعريف هذا المصطلح واستخدامه بمعنى غير معناه الأول. وهذا ــ فيما أظن ـ مُتَأَتٍّ من غياب تحديد واضح لماهية المفهوم الذي نصطلح عليه بالبنية العميقة ـ أو قد يكون ناتجا ـ حين نحسن الظن ـ عن تعريف لهذا المفهوم لاعلاقة له بما اصطلح عليه بالبنية العميقة ضمن مدرسة القواعد التوليدية التحويلية. وفي كلا الحالتين فإن هذا يوجب ـ كما أرى ـ إيضاحا لهذا المفهوم وإجلاء الأمور لكي توضع الأشياء في مكانها والمناهج في مجالها المحدد.

ونقول بدءا إننا لسنا بصدد المقارنة بين منهجين للدرس اللغوي لنستخلص

حكما بأفضلية واحد على آخر. بل أن هذه الدراسة - في جوهرها - دعوة إلى التأني في عقد المقابلات والمقارنات بين المناهج الفكرية قبل أن تتضح المفاهيم والمصطلحات التي تعقد حولها هذه المقابلات وقبل أن تتضح بشكل محدد المعالم أدواتُ المقابلة. فالأمر هنا يختلف عن الدراسات التي تفاضل بين رأيين ضمن منهج علمي واحد حول قضية معينة. إذ أن المنهجين اللذين نحن بصددهما وليدا ظرفين مختلفين وحضارتين مختلفتين وزمانين مختلفين. وهذا الاختلاف يعني أول ما يعني اختلاف لغة خطابهما. وإذن فنحن أمام تفحص المشترك من المفاهيم في خطابين مختلفين لغة.

إن كلا من هذين المنهجين صدر عن إطار فكري يختلف كلية عن الثاني، وهذا يوجب علينا الحذر في إطلاق التعميمات وافتراضِ المشتركات لمجرد أن يلوح لنا وجه تشابه. وكذلك فينبغي لنا أن نحذر من الوقوع في مزالق تصور وجود تكافؤ بين المفاهيم بسبب تشابهٍ فيما نطلقه من مصطلحات. فنحن إذن مصدر هذه التسميات والمصطلحات. وهكذا فلا أقل من الحذر أن لا نقع أسرى أفعالنا. إن ما نحذر منه ليس بالأمر الهين ولا بالجديد في المقارنات التي تعقد بين الآراء والمناهج الفكرية والعلمية التي تبتعد عن بعضها البعض جوا ومكانا وزمانا.

إذا لطالما أطلقت المسميات المألوفة والمأخوذة من المناهج العلمية المعروفة على مفاهيم المناهج العلمية الغربية حين ننقلها وذلك من أجل تقريبها. والمشكلة تبدأ حين يأتي بعد ذلك من يقابل بين المنهجين ويبني أحكامه على تشابه مصطلحاتهما ويكون بهذا قد حكم على أحدهما وفقا لمفاهيم الثاني.

وفي هذه الدراسة سنحاول تناول مفهوم البنية العميقة بطريقة أخرى نتجنب فيها تلك المزالق. وسنبدأ بتقديم تعريف محدد للبنية العميقة - ضمن منهج الدرس اللغوي الذي يعود إليه - وهو منهج القواعد التوليدية التحويلية - وضمن كتابات رائده نعوم جومسكي على وجه الخصوص. ثم نتناول بعدئذ على ضوء هذا التحديد وجود مفهوم يقاربه أو يماثله في الدرس النحوي العربي. وسنعرض ضمن هذا القسم إلى بعض الدراسات التي ناقشت - من بين أوجه التشابه بين منهج الدرس اللغوي العربي والدرس اللغوي المعاصر — مسألة البنية العميقة. فنحاول استجلاء أبعاد هذه المقارنة وهذا التقابل وذلك بالنظر في

صحة ودقة الملاحظات التي طرحت في تلك الدراسات.

2 ـ البنية العميقة في منهج مدرسة القواعد التوليدية :

طرح مصطلح البنية العميقة بشكل واضح في كتاب جومسكي «جوانب من نظرية النحو» Aspects of the Theory of Syntax المنشور عام 1965. غير أن هذا لايعني أنه جزء من التغييرات التي طرأت على المنهج ـ سواء في أسس التحليل القواعدي أو التصور الشكلي لهيئة النظام الواجب اتباعه لوصف الجزء النحوي من الظاهرة اللغوية ـ منذ أن قدم هذا المنهج في صورته الأولى عام 1957 في كتاب جومسكي «البنى النحوية» Syntactic Structures.[2] إن مفهوم البنية العميقة ـ كما سيتبين لنا بعد حين ـ هو أحد الأجزاء النظرية الأساسية في المنهج الذي قدمه جومسكي وعرف باسم مدرسة القواعد التوليدية التحويلية. فهو من نتائج نظرة هذه المدرسة إلى نظام القواعد. وإذن فلمعرفة مفهوم البنية العميقة وبناء تصور محدد لها يحسن بنا تقديم البناء النظري الذي تكون جزءا منه.

إن كتابة قواعد للغة ما ـ وفقا «لهذه المدرسة ـ ترقى إلى تكون نظرية لغوية، أو على الأصح افتراضا عن نظام ذهني يملكه المتكلمون الأصليون لتلك اللغة. وهذا يعني أن القواعد التي نكتبها تتحدد صحتها ودقتها بمدى مطابقتها لواقع الحال ـ أي لذلك النظام الذهني.[3] ولما كانت المادة اللغوية التي نستند إليها في كتابة القواعد هي مادة محددة ـ مهما كبرت ـ فإن إحدى سمات هذه القواعد التي نكتبها ستكون بالضرورة قدرتها على التنبؤ بكل المادة الممكنة نظريا ـ وهذه مادة غير محدودة ولا متناهية. إن تنبؤ القواعد هو تنبؤ بالحكم على أية جملة في لغة ما بالصحة أو عدمها. أي أن على القواعد التي نكتبها عن نظام لغوي معين أن تكون قادرة على إعطاء كل جملة من جمل تلك اللغة وصفا بنيويا وأن تصل تلك البنية بالأصوات التي تتألف منها الجملة، وكذلك فعليها أن تسبغ تأويلا دلاليا على ذلك الوصف البنيوي للجملة وهذا ـ بتعبير آخر ـ يكون بمثابة توليد لجمل اللغة التي نكتب قواعدها.

إن هذه السمة ـ سمة الحكم على الأبنية اللغوية بالصحة وعدمها ـ قد يجلب إلى الأذهان قضية طالما نوقشت وهذه قضية شرعية (أو عدم شرعية) الحكم بصحة مادة لغوية معينة استنادا إلى نموذج لغوي قياسي في تلك اللغة، من كون المادة فصيحة وسالمة من الأخطاء

وغير ذلك. وهي أحكام نصلها بعرض المادة اللغوية على مقياس نختاره يمثل الصحة في النظام اللغوي. وهذا ما يؤدي بنا إلى أن نكون قيمين على النظام اللغوي ـ أي على النظم الذهنية التي يمتلكها المتكلمون الأصليون لهذه اللغة أو تلك. ولسنا هنا في معرض تبيين بعد هذا الموقف الأخير عن العلم وأسسه. إننا نريد هنا أن نذكر أن القواعد التي نكتبها والتي نريد منها أن تحكم على النتاج اللغوي بالصحة أو عدمها لا يعني اتسامها بالمعيارية ـ كما يتصور البعض ـ بل إن هذه سمة يفترض وجودها في كل وصف لنظام من الأنظمة وهي أن يفرق ما بين ما ينتمي لهذا النظام وما لاينتمي له.

غير أنه تثار هنا مشكلة التوفيق بين ما قلنا وبين المادة اللغوية الفعلية وهي كلام المتكلمين. ففي هذه المادة الكثير من الظواهر التي تقع خارج نطاق النظام اللغوي، وتخضع إلى عوامل ومؤثرات لا علاقة لها بذلك النظام، بل قد تؤدي إلى التمويه على صفاته الأساسية. فقد تقع في كلام المتكلمين أخطاء بسبب العديد من الحالات التي تعرض للمتكلم، أو بسبب النسيان، أو غير ذلك. إن تأثير هذه العوامل يجعل من الكلام الحرفي ممثلا غير دقيق للمعرفة اللغوية وللنظام اللغوي الذي تتأسس عليه هذه المعرفة. فعلى المتصدي لدراسة هذا النظام ووصفه أن ينقي المادة اللغوية بحيث يبعد عنها كل هذه العوامل التي لاتمت للنظام بصلة. إن اللغوي بهذا العمل يستخلص وضعا مثالياً للمادة اللغوية. وقد يقول قائل إن في هذا بعدا عن الواقع اللغوي غير أن الرد على ذلك يسير. ففي سبيل الوصول إلى فهم أدق لطبيعة النظام اللغوي يتوجب إزالة ما يعلق بالمادة اللغوية من شوائب. فإذا ما اعتمدنا على هذه الصورة المثالية للمادة اللغوية: أي المتكلم/ السامع المثالي للغة ـ فإن النظام الذي نضعه سيكون تمثيلا لذلك النظام الذهني الذي يكمن وراء القابلية (الكفاية) اللغوية. والأمر الثاني الذي يجب الالتفات إليه هو فقر المادة اللغوية الذي أشرنا إليه. وعلى هذا فإنه لا يمكن الاعتماد على مجرد استقرائها في وضع هذا النظام بل يتحتم لجوء اللغوي إلى الاستبطان، أي استنتاج النظام واستنباطه. وهكذا فإن القواعد التي نكتبها هي بمثابة نظرية للغة ما من حيث أنها تؤلف نظاما على أساسه يجري وصف كل المعطيات اللغوية، وينبني على هذه القدرة التمثيلية أن يقرر صحة أو

خطأ أي تعبير في اللغة الموصوفة.

في القواعد التي نكتبها لتمثل هذا النظام اللغوي الذهني هناك ثلاثة جوانب: الجانب الصوتي، والجانب الدلالي، والجانب النحوي. وقد حددت كتابات جومسكي العلاقة بين هذه الجوانب بشكل واضح. فالجانب النحوي هو الجانب الخلاق، أما الجانبان الآخران فهما تأويليان. يولد هذا النظام بنية نحوية (أو أكثر) لكل جملة من جمل اللغة تندرج فيها المفردات المعجمية ـ كل في مكانها في البنية الجملية. وتكون مهمة الجانب الصوتي إخراج هذه الكلمات المتوالية في الجملة في صيغتها الصوتية النهائية. أما وظيفة الجانب الدلالي فهي إسباغ المعاني المختلفة على البنى الجملية اعتمادا على الدلالات المعجمية للمفردات التي تتألف منها الجملة ،العلاقات البنيوية بين هذه المفردات في الجملة مما ينتج عنه التأويل الدلالي الكامل للجملة.

تستوقفنا هنا مسألة أساسية هي العلاقة بين هذه الجوانب الثلاثة للقواعد. إن العلاقة بين الجانب الصوتي (الفونولوجي) والجوانب الأخرى لا تكون مشكلة كبيرة. فعلى الرغم من الصلة والتأثير اللذين نجدهما بين الجانب الصوتي والنحوي، لا نجد من يشكك في استقلال هذين الجانبين عن أحدهما الآخر. إنما تبدأ المشكلة في مسألة الصلة بين الجانب النحوي والدلالي.

يقرر جومسكي في كتاباته العديدة قديما وحديثا استقلال هذين الجانبين عن أحدهما الآخر. فالبنى الجملية لا تأتي بشكلها الذي تظهر عليه بسبب المعاني التي تنتجها. وكذلك فليس للعمليات النحوية تلازم بتلك المعاني التي نفهمها من الجملة. إن البنى النحوية في اللغات البشرية تعكس بنى ذهنية تؤلف الملكة اللغوية لدى الإنسان وهي واحدة من البنى المعرفية التي يمتلكها الإنسان. إن هذه البنى تستخدم لأغراض التواصل ولكنها لا تعكس تلك الأغراض ولم تنتج عنها. ومن هذا نصل إلى أن شكل البنى النحوية لا تحدده الوظائف اللغوية بل إن شكلها جزء من التكوين المحدد للعقل البشري.(4)

إن هذا الموقف المبدئي لجومسكي هو أساس لأطروحته العامة ضمن هذه المدرسة فيما يخص استقلال النحو عن الدلالة. وهو كذلك وراء مركزية البنية اللغوية على أساس أنها الأمر الوحيد الذي يميز اللغة البشرية عن غيرها من الأنظمة. فالبنية اللغوية هي الخاصية المحددة للظاهرة اللغوية وليست الوظيفة

اللغوية.[5] إذ يرى جومسكي أن ربط البنية اللغوية بالوظائف التي تؤديها اللغة أمر لا يصمد أمام الملاحظة الدقيقة. فاللغات البشرية تعتمد في العمليات النحوية على المراتب التركيبية، ولا تتم على أساس نسق العناصر في التركيب الجملي. أي أنها لا تأخذ بالطريق الأيسر بل تتبع طريقا أكثر تعقيدا. ويضرب مثلا على ذلك في عملية تكوين الجملة الاستفهامية في العديد من اللغات البشرية التي تتم عن طريق تقديم الفعل الرئيس للجملة إلى بدايتها، بغض النظر عن ترتيب هذا الفعل في الجملة. يتم هذا بدلا من تقديم أول فعل في نسق الجملة إلى بدايتها مثلا. إن هذا يمثل مظهرا من مظاهر الاعتماد على البنية بدلا من الاعتماد على النسق السطحي.[6] وليس هناك سبب وظيفي لتغليب هذا على ذاك. فالاعتماد على النسق (أي اختيار أول فعل في الجملة التقديمية إلى بدايتها) أقل تعقيدا من الناحية الهندسية البحتة من الاعتماد على البنية الجملية. والوظائف اللغوية يمكن أن تؤديها لغة تعتمد على النسق في تغييرات تراكيبها بنفس الكفاءة التي تؤديها بها لغة تعتمد على البنية في تغيرات تراكيبها. ومن هنا يمكن أن نخلص إلى عدم وجود التلازم بين شكل اللغة البشرية ووظيفتها. فشكل اللغة البشرية ـ كما ذكرنا ـ تحدده مجموعة الخصائص التي تتسم بها الملكة اللغوية في الذهن البشري من حيث طبيعته.

إن كل هذا يكمن وراء إصرار جومسكي ـ ومنذ بداية منهجه اللغوي ـ على استقلال البنية اللغوية عن الدلالة اللغوية ـ ومن هنا يجيء استقلال النحو عن الدلالة في النظرية اللغوية التي يطرحها ـ أي تصوره لقواعد اللغات البشرية وصفاتها العامة والخاصة ـ وبالتالي في منهج الدرس اللغوي الذي يقترحه. ولكن علينا أن نستدرك فنقول إننا سنعرض قريبا إلى آراء انطلقت ضمن هذه المدرسة لا تقر بهذا الانفصال بين النحو والدلالة غير أنها لم تكن لتعبر عن فكر جومسكي في يوم من الأيام.

إن النقطتين اللتين تحدثنا عنهما ـ الصورة المثالية للمادة اللغوية واستقلال النحو عن الدلالة ـ مهمتان ـ فيما اعتقد ـ لإيضاح مفهوم البنية العميقة وتحديد معناه ضمن هذه المدرسة. فالقواعد ـ على رأي جومسكي ـ معينه بالصورة المثالية للجمل ولا تأخذ بنظر الاعتبار ما يعرض لها ـ من الاضطراب حين نطقها مثلا. وكذلك فالقواعد التي يصورها جومسكي كمجموعة من القوانين تولد جمل اللغة

كلها ـ تتألف من ثلاثة جوانب مستقلة هي الجانب النحوي والدلالي والصوتي كما أسلفنا.

ففي الجانب النحوي يمكن تصوير القواعد كقوانين تولد بنى نحوية لكل جملة صحيحة الشكل في اللغة ويتم التوليد عن طريق وصف كل عنصر في الجملة بالعناصر التي يتكون منها وهكذا ـ كأن تقول إن جملة «محمد في البيت» تتكون من عبارتين، عبارة إسمية وعبارة شبه جملة، وإن هذه تتكون من عنصرين هما حرف الجر وعبارة إسمية وهذه بدورها تتكون من عنصرين أصغر هما أداة التعريف والإسم وهكذا.(7) ومعنى الجملة، أو تأويلها الدلالي يعتمد على هذه البنية النحوية التي ولدتها تلك القوانين. ومن جانب آخر فإن كل واحد من العناصر المعجمية التي أدرجت في تلك البنية النحوية يحمل معه سماته الصوتية. وإذن فستكون لدينا صورة صوتية (أو تمثيل صوتي) للجملة غير أن هذه الصورة التي نرسمها للقواعد غير كفؤة إذ أنها لا تحسب حساب التغيرات التي تتعرض إليها بنية الجملة النحوية. والأدلة على هذا كثيرة. إذ نجد في كل لغة جملا عديدة تحتمل تأويلين أو أكثر. وإذا كان تأويل الجملة الدلالي يعتمد على بنيتها النحوية فلابد أن يكون لتلك الجملة بنيتان مختلفتان يتأسس على كل واحدة منهما تأويل من التأويلين. لنأخذ مثلا جملة «محمد مساعدته مستحبة» والتي لها ـ كما يدرك القارىء ـ تأويلان في أحدهما «محمد» يعمل فاعلا لفعل المساعدة، أما الثاني ففيه «محمد» مفعول لفعل المساعدة. إن إعطاء تأويلين لهذه الجملة يستدعي أن يكون لها بنيتان نحويتان. وإلا من أين جاء هذان التأويلان؟ وعلام اعتمدا؟ وإذ أن الجملة على ما هي عليه، لها بنية ظاهرية واحدة توجب علينا القول أن لها بنية خفية وأخرى تمثل ما هي عليه في شكلها الذي تظهر عليه. وإذن، ففي حالة الجملة التي نحن بصددها، نقول أن لها بنيتين خفيّتين تعطي كل واحدة منهما تأويلا مختلفا.

ومن الناحية الأخرى فجمل اللغة البشرية فيها العديد من الأمثلة التي تستدعي الإقرار بأن لها بنية خفية سابقة ومختلفة عن بنيتها الظاهرة السطحية. وهذا الافتراض توجبه الانتظامات النحوية الموجودة في الجمل فيما لو أخذنا تلك الانتظامات بنظر الاعتبار. فالجمل التي تبدأ بأسماء الاستفهام نجد في بعضها أفعالا متعدية،

ولكن ليس لها مفاعيل ظاهرة بعدها، كحال الأفعال المتعدية. في حين لايصح أن تأتي هذه الأفعال بدون مفاعيلها في سياقات نحوية أخرى. لنأخذ مثلا.

أ. من قابل محمد ؟

ب.* قابل محمد

جـ. قابل محمد زيدا

في هذا المثال نفسر خلل الجملة (ب) بعدم وجود مفعول يلي الفاعل قياسا على الجملة (ج) الصحيحة. ولكن إذا كان هذا هو الأمر فكيف نفسر صحة الجملة (أ) مع كونها بلا مفعول يلي الفاعل. هناك سبيلان لتفسير هذا التناقض الظاهري. فإما أن نفترض أننا أمام فعلين لهما لفظ واحد أحدهما لازم والآخر متعدٍ، أو أن نقول إن عنصر الاستفهام فيها بمثابة المفعول وإن مكانه الأصلي هو فيما يلي الفاعل وأنه قدم بعدئذ. أن الحل الأول يتناقض مع حكم متكلم العربية الأصيل وسليقته. وإذن فالحل الثاني هو الذي يمثل فك التناقض الظاهري الذي لحظناه.

إن هذه دلائل تقدمها قواعد اللغات البشرية على وجود مستويين مختلفين لبنية الجملة. وهكذا فإن كفاءة منهج الوصف الذي نضعه لقواعد اللغات البشرية تلزمنا إفتراض مستويين لبنية الجملة في اللغة البشرية، وافتراض أن المستوى الأول هو الذي يمثل البنية العميقة الباطنة للجملة بينما يمثل المستوى الثاني بنيتها السطحية.

ضمن هذه الصورة للوصف القواعدي (الجانب النحوي منه) يمكن تحديد البنية العميقة - بأنها بنية الجملة بعد أن تولد قوانين إعادة الكتابة تفريعاً شجريا (دليلاً تركيبياً) يمثل بنية نحوية للجملة، وتدرج في العقد الأخيرة من هذا التفريع المفردات المعجمية.(8) إن هذا التفريع المدرجة فيه المفردات المعجمية يمثل البنية العميقة للجملة. وتعمل على هذه البنية قوانين تحويل محددة لتنقلها إلى بنية أخرى بعد كل تحويل حتى تصل بها إلى بنية تشبه ما عليه الجملة المقصود توليدها ظاهريا. هذه البنية النحوية الأخيرة يطلق عليها اسم البنية السطحية.(9)

ومن المهم تذكر أن بنية الجملة العميقة هي تركيب نحوي مجرد. وإنها ليست صورة دلالية للجملة أو بنية دلالية للجملة. فهذه بنية مستقلة عن بنيتها العميقة. والبنية العميقة ضمن هذا التصور للقواعد، تركيب نحويّ يتألف من عناصر نحوية في حين أن البنية الدلالية للجملة يتكون من عناصر دلالية (معنوية) أولية وما يربط بينها من

علاقات دلالية. أما كيف يتم الربط بين البنية العميقة (النحوية) للجملة وبين بنيتها الدلالية فإن هذا كان موضع نقاش وبحث دائمين منذ بداية ظهور هذه المدرسة اللغوية وحتى الآن.وقد اتخذت مواقف عديدة من هذا الأمر سنعرض لبعضها الآن.

إن العلاقة بين النحو والدلالة أصبحت موضعا لاختلاف وجهات النظر ضمن هذه المدرسة. فقد أثير في منتصف الستينات السؤال عما إذا كانت هناك بنية نحوية مستقلة عن معنى الجملة، أو بمعنى آخر إذا كان هناك مبرر للفصل بين نحو الجملة ودلالتها. وقد وقف القائلون بعدم وجود الفرق بين نحو الجملة ودلالتها موقف المخالف لوجهة نظر جومسكي التي عبر عنها منذ نشر أول كتبه وحتى الآن، ألا وهي القول باستقلال النحو عن الدلالة كما أسلفنا. وكما هو معروف للقارىء الكريم ولمتتبعي تاريخ تطور الدرس اللغوي الحديث فقد أطلقت على هؤلاء المخالفين لآراء جومسكي تسمية «الدلاليين التوليديين»، في حين أطلقت تسمية «الدلاليين التأويليين» على جومسكي ومن يتفق معه في الفصل بين الدلالة والنحو.

لقد دار النقاش والخلاف بين وجهتي النظر هاتين حول تقديم أدلة وبراهين من المادة اللغوية المتوفرة من اللغات البشرية على تأثير العلاقات الدلالية على بنية الجملة. وهذا يلزم أن نبين تلك العلاقات الدلالية في وصفنا للجملة لكي نضمن أن يحسب وصفنا حساب كل ما يعرض لبنية الجملة. وانطلاقا من كون البنى النحوية أو التغيرات النحوية خاضعة لاعتبارات دلالية أو أن لها سمات دلالية، افترض أفراد مجموعة «الدلالة التوليدية» أن من الأكفأ تصوير نظام القواعد بحيث تتولد الجملة من عناصر دلالية تجتمع في بنية دلالية تصور لنا دلالة الجملة ثم تجري على هذه البنية الدلالية تحويلات وتغييرات بحيث تعطي تلك البنية هيأتها النحوية الظاهرية ــ أو قل ـ بنية الجملة السطحية.

ضمن هذا التصور لنظام الوصف القواعدي لا يوجد هناك مستوى محدد يطلق فيه على البنية الجملية النحوية اسم «البنية العميقة». فتوليد الجملة يبتدأ من بنيتها الدلالية التي تخضع كما قلت إلى تحويلات تصل بها إلى البنية السطحية.

مقابل ذلك قدم جومسكي ومن اتفق معه من الدارسين حججا تدحض فرضية البدء ببنية دلالية للجملة تنقل

بالتحويلات إلى البنية السطحية وكذلك حججا تبرهن أنه ليس من الممكن تصور تحويلات بهذه الكثرة. وكذلك قدموا الحجة المنهجية الرئيسة التي تقول إننا لن نستطيع حصر مداخيل البنى الدلالية للجمل لأن المتغيرات أكثر مما يحصى في حين أن افتراض بنى نحوية عميقة أمر يمكن تحديده عن طريق تحديد هذه العناصر الداخلة في تكوين هذه البنى. ومن المهم معرفة أن استخدام براهين دلالية على بنى نحوية من نوع محدد قد جلب معه مسألة العناصر الدلالية (عناصر المعنى) التي تدخل في بنية الجملة الدلالية وماهيتها وخصائصها. وهذا سؤال مفتوح إذ أنها تسع كل عناصر معرفتنا بالعالم الخارجي وهذا أمر نحن في غاية البعد عن تحديده.[10]

وبين هذه الحجج والحجج التي تقابلها اتضح لجومسكي أن هناك عناصر في التأويل الدلالي في الجملة لا يمكن أن يعتمد فيها على بنية الجملة العميقة بل يجب أن تؤخذ بنيتها السطحية بنظر الاعتبار.[11] وقد يتصور أن هذه الرؤية المتطورة للتأويل الدلالي قد ألغت الفرق بين البنية العميقة والبنية السطحية من حيث أنها ألغت وظيفة كانت البنية العميقة تختص بها. إلا أن هذا يجب أن لا يؤخذ على أساس إلغاء افتراض وجودها ضمن هذا المنهج، أو أن يؤخذ على أن التأويل الدلالي كان سبب وجودها. أما وأن التأويل الدلالي أصبح يعتمد على البنية السطحية والعميقة معا فلا حاجة إلى افتراض وجود بنيتين نحويتين عميقة وسطحية للجملة. فقد فقدت البنية العميقة النحوية مبرر وجودها. إن مثل هذا التصور الخاطىء يستبعد الحقيقة الأساسية في أن افتراض وجود للبنية العميقة للجملة يتأسس على حجج وبراهين نحوية وليس على حجج دلالية. وإن دحض وجود مثل هذا المستوى من التركيب النحوي للجملة يجب أن يقوم على الإتيان بحجج نحوية تنفي وجود بنية جملية غير تلك الظاهرة للعيان. إذ أن الحجج التي قدمت لافتراض وجود مثل هذا المستوى النحوي كانت كلها حججا نحوية. أي أنها حجج تعتمد على بعض الظواهر والعمليات النحوية. أما الحجج الدلالية فقد قدمت لتقيم دليلا ثانويا.[12]

ولابد لنا هنا من إعادة التذكير بأن هذه الرؤية المتطورة للتأويل الدلالي تمثل رأي جومسكي ومن معه، وهو ما نعنى به في هذه الدراسة. أما وجهة النظر الأخرى ـ ضمن هذه المدرسة ـ القائلة

بوجوب الابتداء بالبنية الدلالية للجملة ـ وهي ما يطلقون عليه البنية التحتية والعميقة ـ فهي ليست موضوع النقاش هنا. إذ نحن بصدد مناقشة مفهوم البنية العميقة في كتابات جومسكي. وكذلك فليس من المهم لنا في هذه الدراسة ذكر حقيقة أن وجهة النظر المخالفة لجومسكي قد اضمحلت وتفرق مريدوها والمدافعون عنها في بداية السبعينات بعد أن تبين لهم استحالة تحديد مثل تلك الآراء والأفكار وإعطائها وضوحا تفصيليا يمكن من خلاله تفحص كفاءتها وملاءمتها لوصف الظاهرة اللغوية وتوليد الجمل على وجه الخصوص.

إن آخر التطورات النظرية في آراء جومسكي ومن معه ممن يقولون باستقلال البنية النحوية عن البنية الدلالية تشير إلى اختلاف الرؤية إلى طبيعة الصلات بين مكونات القواعد. إذ ينظر الآن إلى دور البنية العميقة ـ يشير إليها جومسكي في كتاباته الحالية باسم D-Structure بأنه يتمثل في تبيين العلاقات القواعدية ـ أو الأدوار الوظيفية ـ كالفاعل والمفعول وغيرها من الأسماء في الجملة. أما التأويل الدلالي للجملة فإنه يقع على مستوى جديد يتوسط البنية العميقة والبنية السطحية التي تمثل الشكل الظاهري للجملة، هذا المستوى هو مستوى البنية ــ س S-Structure ـ وهو بنية الجملة بعد أن تجري عليها عمليات النقل ـ نقل بعض العناصر من مكان إلى آخر وقبل أن تجري عمليات الحذف وغيرها فهذه تأتي متأخرة على عمليات النقل الأساسية ـ نقل أدوات الاستفهام والعبارات الإسمية. وعلى هذا فقد قسمت التحويلات هنا إلى قسمين وهما يعملان في مرحلتين مختلفتين من اشتقاق الجملة.(13)

غير أن هذا لا يعني ــ كما يقول جومسكي ـ التخلي عن افتراض وجود مستوى نحوي للجملة هو مستوى البنية العميقة يختلف عن المستويين النحويين الآخرين ـ البنية ـ س والبنية السطحية. والأمثلة التي يسوقها على وجوب افتراض هذا المستوى مستوحاة كلها من العبارات الاصطلاحية. وهذه أدلة ـ كما يقول ـ لا توجب افتراض مستوى البنية العميقة النحوية كمستوى متميز عن مستوى البنية السطحية فحسب، بل إنها تقدم حجة ضد من يفترض عدم وجود مبرر لافتراض وجود بنية نحوية مستقلة عن البنية الدلالية.

قصدت من هذا العرض لمدرسة القواعد التوليدية التحويلية ـ وعلى وجه

الخصوص آراء جومسكي والتغيرات التي جرت على تصوره النظري، تحديد مفهوم البنية العميقة. إذ لم يكن ممكنا تحديد هذا المفهوم بدون إلقاء ضوء على تصورات جومسكي ورؤيته للنظرية اللغوية والقواعد. فالبنية العميقة كمفهوم هو وليد لهذه المدرسة ولأفكار جومسكي. وننتقل الآن إلى التساؤل عن وجود ما يقابل هذا المفهوم في التراث النحوي العربي، ومدى التشابه بين البنية العميقة وما يقابلها في هذا التراث إن وجد لها مقابل.

3. البنية العميقة في الدرس النحوي العربي:

إن أول ما يمكن أن نبحث عنه لتثبيت وجود مثل هذا التصور في التراث النحوي العربي هو وجود دلائل تحيل إلى وجود مستويين للتركيب النحوي الجملي وإذا ما كانت هناك فعلا إشارة إلى عمليات نحوية تؤثر على البنى النحوية للجمل. إن هذا - لو وجد - يقدم دليلا لا لبس فيه على افتراض وجود مستويين للتركيب النحوي الجملي. وهذه أول خطوة في إثبات افتراض وجود بنية عميقة ضمن تصور النحاة العرب لنظام القواعد اللغوية. أما الأمر الثاني الذي يجدر بنا تفحص وجوده في التراث النحوي العربي فهو النظر فيما إذا كانت الحجج التي تقام على افتراض هذين المستويين في البنية النحوية هي حجج نابعة من الانتظامات النحوية التي افترضوها، أم أنها حجج دلالية بحتة بحيث يصبح الفرق بين التركيبين فرقا بين الصورة الدلالية للجملة وبين بنيتها النحوية.

ولابد لنا من القول هنا أن اقتصارنا في هذا الصدد على هذين الأمرين ينبع من كونها يتعلقان بالسِّمَتَيْن الجوهريتين في مفهوم البنية العميقة: نحويتها واختلافها عن بنية أخرى هي البنية السطحية. ولا فائدة - كما أرى - من التوسع في تناول السمات الأخرى التي تدخل في تحديد مفهوم البنية العميقة عند جومسكي إذ لا يمكن تصور تشابه بين منهجين بينهما هذا البعد فيها.

إن الإجابة على السؤال الأول: أي افتراض وجود مستويين للبنية الجملية في منهج البحث النحوي العربي يسيرة. فهذا الافتراض موجود في ذلك المنهج ولسنا هنا بحاجة إلى التدليل على ذلك بالتفصيل فهو مما تمتلىء به كتب النحو العربية، ومما يمكن تلمسه من الكلام المستفيض عن تقديم بعض العناصر

النحوية أو حذف بعضها أو تقدير وجود البعض الآخر.

فعلى سبيل المثال نجد في أوائل صفحات كتاب سيبويه كلاما عن الجملة وعن نسق عناصرها وعن إمكانية أن يتقدم بعضها على بعض كتقدم المفعول به على الفاعل ولكن ذلك لا يعني ـ لديه ـ أن تتغير الصلات النحوية بين تلك العناصر. «فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون (أي الفاعل) فيه مقدما...».[15] وسيبويه يعطي بعد ذلك أسبابا تجعل متكلمي العربية يقدمون بعض العناصر. «فإنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أغنى».[16] ولنا أن نمثل على هذا الافتراض بوجود مستويين بنيويين للجملة بمقولة ابن هشام حين يتحدث عن الأصل وأن الصدر فيه هو المعتبر. «فالجملة من نحو (كيف كان زيد) ومن نحو (فأي آيات الله تنكرون) ومن نحو (فريقا كذبتم وفريقا تقتلون) و (خشعا أبصارهم يخرجون) فعلية لأن هذه الأسماء في نية التأخير».[17] فابن هشام يعتمد في تصنيفه الجمل إلى إسمية وفعلية على نسق غير النسق الذي تظهر عليه عناصر الجمل التي يوردها فيما اقتبسناه. إذ لا يظهر الفعل في أي منها في الصدر ومع هذا فإنها فعلية باعتبار أن الفعل هو الصدر في أصلها. أي بتعبير آخر: هناك نسق أصلي، ونسق ظاهري، والإثنان مختلفان في الجمل التي أوردها.

إن مجرد الحديث عن تقديم المفعول به على الفعل أو الفاعل مثلا يقتضي افتراض مستويين للبنية الجملية يكون المفعول به في أولاهما في مكان متأخر عن الفعل أو الفاعل ويكون في ثانيتهما مقدما على الفعل أو الفاعل. وإلا فما معنى استخدام مصطلح «التقديم». وكذلك الأمر في استخدام مصطلح الحذف. إذ لا يحذف إلا ما كان له وجود. وإذن فمجرد الكلام عن «محذوف» يلزم افتراض وجوده قبل الحذف. ويعني هذا افتراض حالتين للجملة يكون العنصر (المحذوف) موجودا في أولاهما ـــ أي أن هذه الحالة تسبق عملية الحذف ـــ ولا وجود له في الحالة الثانية لأنه يكون قد حذف.

وقل الشيء نفسه عن «التقدير» فالذي يقدر هو عنصر لا وجود ظاهريا له. فإذا قدرناه لزم افتراض وجوده. فكيف ياترى يمكن ملاءمة وجود الشيء مع عدم وجوده إلا بافتراض وجود بنيتين للجملة يكون ذلك العنصر موجودا في إحداهما وغائبا في الأخرى.

في هذا كله دلالة واضحة على هذا الافتراض النظري في منهج الدرس النحوي العربي. فهذا الدرس يقوم على افتراض مستويين تركيبيين للجملة أحدهما ظاهري والآخر أعمق منه ويكون بالنسبة للأول بمثابة الأصل الذي ينبثق منه، والأساس الذي ينبني وصف المستوى التركيبي الظاهري عليه. ومن هذا يأتي جواز كلامنا عن تقديم المفعول به أو حذف الفعل وفاعله أو تقدير الفعل الذي يفسره فعل آخر مذكور، وهكذا.

أما بالنسبة للأمر الثاني وهو السؤال فيما إذا كانت الحجج التي تقام على افتراض هذين المستويين في البنية النحوية هي حجج نحوية أم دلالية، فإنه يستدعي التوقف والنظر في هذا التراث الضخم للإجابة على السؤال. إذ أن على إجابته يتوقف الحكم بمدى التشابه أو الاختلاف فيما بين المنهجين (منهج جومسكي ومنهج الدرس النحوي العربي) حول مفهوم البنية العميقة.

إن التحقيق في الأمر يكشف أن النحاة العرب في جل ما قدروه من بنى نحوية باطنة أو أصلية (أو عميقة بما نصطلح عليه هنا) كانوا مدفوعين ببواعث نحوية محضة. فما يتبين لنا هو أن الحذوفات أو الزيادات أو التقديرات التي افترضت في كل حالة من هذه الحالات كانت تلزم النحوي لكي تطرد أحكام قواعده: إما قواعده عن الصورة المثالية للتركيب الجملي أو قواعده التي ينشىء إعرابه للنص اللغوي عليها. فالصورة المثالية التي أوجدوها للجملة هي أن يكون لها ركنان، فإذا وجدوا جملة ليس فيها أحد هذين الركنين قدروه. أما الإعراب، فمن المعلوم أنه ينطلق من تفسير لظاهرة تغير الحركات في أواخر الكلمات في الجمل ،قد أعطي هذا التفسير ضمن نظرية العمل التي تفسر اتخاذ أجزاء الجملة (كلمات أو أجزاء أكبر من الكلمات) هيئات (مادية أو مجردة) مختلفة بأنها نتيجة عمل بعضها على بعض. ولابد من الإشارة هنا إلى أن العمل النحوي ليس له أساس دلالي بل أن عمل عنصر في عنصر آخر يتأسس على العلاقة البنيوية بينهما وليس على وجود علاقة دلالية بينهما. فالمبتدأ والخبر يترافعان (مثلا) عند بعض النحاة. وليس من الضروري أن تكون هناك صلة دلالية بينهما. فالصلة بينهما صلة تركيبية بحته كما هو واضح. ويقال الشيء نفسه عن عمل الفعل بفاعله ومفعوله، أو عمل الحرف المشبه بالفعل باسمه وخبره، أو الصفة بفاعلها، أو حرف الجر بمجروره، وهكذا.

ولو أخذنا من جانب آخر حالات التقديم التي افترضت في المادة اللغوية، فإن حجج النحاة كانت جميعها نحوية ولنأخذ جملة مثل «عمرا ضرب زيد». إن تحليل هذه الجملة على أساس أن «عمرا» مفعول به مقدم يستند أساسا إلى الحركة الإعرابية في آخره والتي تحدد علاقته النحوية بالفعل. إذ لابد له من ناصب ـ هو الفعل ـ ولذلك فلابد للفعل ضرب من مفعول، وهو «عمرا» هنا، إذ ليس هناك ضمير ظاهر في الجملة. وهكذا فإننا نرى أن التبرير نحوي بحت. وهو الذي يفسر السبب في عدم إجازة النحاة تقديم المفعول على الفاعل إن كانا مقصورين حين تنعدم القرينة.[18] إذ لن يكون هناك ـ في هذه الحالة ـ دليل على بنية الجملة يستند إليه في تأويلها.

واستقراء حالات الحذف والتقدير التي يفترضها النحاة العرب في تحليلهم النحوي للمادة اللغوية (أي إعراب تلك المادة) يرينا أن ما هو محذوف (ويقدره النحوي) عنصر تقتضي تقديره منطلقات نظرية عن الصورة المثالية للجملة (كما أسلفنا) أو من نظرية العمل وما تتأسس عليه من حدود تركيبية على البنية النحوية للجملة. فالحذف لا يجوز إلا إذا قام عليه دليل. والدليل نوعان غير صناعي وصناعي «وهذا يختص بمعرفته النحويون».[19] غير أن هذا الحذف محكوم بعدة شروط (يفصلها ابن هشام في الجزء الثاني من المغني) وهي شروط تقتضيها كلها منطلقات وحدود نحوية بحته، فالمحذوف يجب أن يكون طبقا للمذكور، وأن لا يكون المحذوف كالجزء الذي لا ينفصل ـ فلا يحذف الفاعل أو نائبه بدون الفعل، أما حذفهما معا فجائز مثل (زيدا ضربته)،[20] أي (ضربت زيدا ضربته). وأن لا يكون المحذوف عاملا ضعيفا: أي أنه لا يجوز تقدير مثل هذا العامل إلا في مواضع قويت فيها الدلالة كتقدير «أن» محذوفة بعد «حتى» لكي يفسر نصب الفعل بعدها. وآخر القيود التي تحكم الحذف هو اشتراط أن لا يخل الحذف باطراد نظرية العمل وما يتفرع عنها، يقول ابن هشام وامتنع عند البصريين أيضا حذف المفعول في نحو (زيد ضربته) لأن في حذفه تسليط « ضرب» على العمل في «زيد» مع قطعه عنه وأعمال الابتداء مع التمكن من أعمال الفعل.[21]

وقد ضبطت مواقع التقدير بضوابط وحدود وهذه الضوابط والحدود نحوية محضة، فالعنصر الذي يفترض وجوده في مستوى تحتي من البنية الجملية ويحذف

فلا يبين على سطحها قد حدد بشكل واضح لا يقبل اللبس. والتحديد هنا يشمل ماديته وشكله ومكانه أما معايير تحديده فهي نحوية كما أسلفنا. فالفاعل أو نائبه (مثلا) لا يتقدم على فعله (على رأي البصريين) وإذن فإن (الشمس) في الآية الكريمة: «إذا الشمس كورت» لا يمكن أن تكون نائب فاعل مقدما للفعل (كورت). وهي لا يمكن كذلك أن تكون مبتدأ لأن هناك حدا بنيويا على وجود «إذا» هو أنه لا يليها إلا الفعل. وهكذا فلابد لكلمة «الشمس» من رافع ــ أي عامل للرفع ــ ومن هنا يأتي تقدير وجود «فعل محذوف يفسره المذكور» وافتراض أصل - أي بنية تحتية - للآية هو «إذا كوّرت الشمس كورت». وكذلك الأمر في الآية الكريمة: «وإن أحدٌ من المشركين استجارك». ومن ذلك أيضا تقدير الأفعال في باب الاشتغال الشهير. يقول صاحب الكتاب «وإن شئت قلت (زيدا ضربته) وإنما نصبه على إضمار فعل هذا يفسره».[22]

ولنلاحظ مثلا آخر لتقدير محذوف توجبه الحدود التركيبية على البنية الجملية. فالموصول لا يليه إلا الفعل ولهذا فلا يقدر متعلق للجار والمجرور حين يكون هذا صلة إلا الفعل. ولا يجوز تقدير الوصف هنا.[23] ويقدم ابن هشام مثلا آخر على التبريرات والحدود النحوية البحتة على تقدير العناصر. فيقول «وكنا قدمنا القول في نحو (في الدار زيد) إن متعلق الظرف يقدر مؤخرا عن (زيد) لأنه في الحقيقة خبر، وأصل الخبر أن يتأخر عن المبتدأ، ثم ظهر لنا أنه يحتمل تقديره مقدما لمعارضته أصلا آخر، وهو أنه عامل في الظرف، وأصل العامل أن يتقدم على المعمول، اللهم إلا أن يقدر المتعلق فعلا فيجب التأخير لأن الخبر الفعلي لا يتقدم على المبتدأ في مثل هذا.[24] أو لنأخذ مثلا شاع في كتب النحو يدلنا على نحوية الحجج التي يقدمها النحاة على تعيين ما يقدر. فقد تقدم أن حرف الجر لا يقدر إلا إذا قويت عليه الدلالة. ومن هنا لم يقدر حرف الجر مع الفعل المقدر العامل على «أرجلكم» المنصوبة في الآية الكريمة: «.... وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم....» قياسا على الفعل المذكور «امسحوا» الذي يتعدى إلى مفعوله بحرف جر.

ويعود ابن هشام فيوضح لنا وجوب كون حجج الحذف والتقدير نحوية محضة في كلمات لا تدع مجالا للشك في هذا الأمر. فهو يقول: «إن الحذف الذي يلزم النحوي النظر فيه هو ما اقتضته الصناعة وذلك بأن يجد خبرا بدون مبتدأ

أو بالعكس، أو شرطا بدون جزاء أو بالعكس أو معطوفا بدون معطوف عليه، أو معمولا بدون عامل... وأما قولهم في نحو «سرابيل تقيكم الحرّ» إن التقدير «والبرد»... ففضول في فن النحو وإنما ذلك للمفسر».[25] وإذن فتقدير شيء لا توجبه الانتظامات النحوية التي يفترضها النحوي ليس بشيء بل إنه أمر متروك لمن يفسر معنى الآية الكريمة. ولا ينفرد ابن هشام في هذا بل نرى هذا الرأي يطرد عند جمهرة النحاة. فيذكر ابن جني في باب الحمل على المعنى «ومنه قولهم: أهلك والليل، فإذا فسروه قالوا أراد «الحق أهلك قبل الليل» وهذا ـ لعمري تفسير المعنى لا تقدير الإعراب فإنه على: الحق أهلك وسابق الليل».[26] أي أن ما يلزم النحوي هو تقدير فعل يعمل على «الليل» فينصبه وليس مضافا يضاف إلى الليل كما في تفسير المعنى. نخلص من هذا إلى أن النحاة العرب كانوا يصوغون الأصل (أي البنية العميقة) في الجملة استنادا إلى حجج نحوية محضة نابعة كما قلنا من الحدود التي رسموها للبنية الجملية والافتراضات النظرية التي وضعوها لتفسير الظواهر النحوية.

غير أننا لابد أن نشير هنا ـ وبعد هذا كله ـ إلى أن القارىء قد يجد هنا وهناك حالات من التقدير «لا تقتضيه الصناعة ولا يلزم المعرب» فهو لا يتأسس على أساس نحوي. ونجد أمثلة لهذه الحالات جنبا إلى جنب مع حالات من التقدير «الذي تقتضيه الصناعة» الذي أسلفنا ذكره. فمواضع التقدير هذه مواضع يقتضي التقدير فيها أسباب دلالية أو تبريرات بلاغية. فتجد من النحاة من يقدر مثلا كلمة «حب» بين الجار والضمير في الآية الكريمة (ذلك الذي لـمُتنَّني فيه) لأن «الذوات لا يتعلق بها». وكذلك يقدر «أهل» قبل «القرية» وقبل «العير» في الآية الكريمة (واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها) ومن النحاة من يقدر ثلاث متضايفات محذوفة في الآية الكريمة (فكان قاب قوسين...) فالأصل في الآية يقدر (فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين...).[27] وقد يصل الأمر إلى تقدير أكثر من جملة. فابن هشام يفرد بابا لحذف الكلام بجملته فيقدر في قوله تعالى: ﴿فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم﴾ شيئا مثل (فأتياهم فأبلغاهم الرسالة فكذبوهما) قبل «فدمرناهم».[28] وغير ذلك كثير.

ولابد لنا من النظر في هذا النوع من التقدير الذي يختلف عن سابقه. فهو ـ

كما قلت ــ مما لا تقتضيه أسباب الصناعة النحوية وهذا فرق أساس بينه وبين الأول. إذ بأن «القرية» في المثل السابق منصوبة بالفعل «إسأل». ولو كان الأمر وفق التقدير المفترض لكان حكمها الجر بإضافة «أهل» المقدرة لها. وتجد الأمر عينه في كل حالة من حالات التقدير هذه .إن تقدير هذه العناصر «المحذوفة» يقتضي ـ لو اطرد المبدأ العام الذي ذكرناه سابقا ـ إن تتغير مواقعها الإعرابية، وإن تظهر عليها علامات إعرابية أخرى تبين موضع الحذف وماهية المقدر كما في الأمثلة التي سبق وإن تناولناها.

إن تقديرات مثل هذه تفضي بنا إلى الإقرار بأن التبريرات التي أعطيت للحذوفات والتقديرات لم تكن نحوية خالصة بل أن هناك حالات من الحذف والتقدير لا تبرير نحويً لها بل أنها قدمت ليكتمل المعنى ــ فتبريرها دلالي حسب. وإذن قد يصح قول القائل أن افتراض مستويين لبنية الجملة في منهج النحو العربي لا يعتمد على تبريرات نحوية محضة. وعلى هذا فالبنية العميقة التي يفترضها قد لا تكون نحوية خالصة. بل يمكن أن نتصورها بنية جملية تمثل المعنى وتتكون من وحدات دلالية وإذن فسيكون هذا موضع اختلاف أساس بين منظور جومسكي للبنية العميقة وبين نظرة النحاة العرب.

ولكن لا بأس من التحقق من شيوع هذه التبريرات الدلالية في مسألة افتراض مستويين تركيبيين للجملة. والذي يبدو هو أن إدخال هذه التبريرات ـ أو بعبارة أدق ــ التوسع في افتراض بنية عميقة (أصل) للجملة تشمل كل ناحية من نواحي دلالتها كان نتيجة التطور التاريخي للدرس النحوي العربي. إذ يبدو أن القدامى من النحاة لم يكونوا ليقدموا مثل هذه الأمثلة على التقدير والحذف والتي تأخذ بعين الاعتبار اكتمال معنى الجملة كما يفترضها من يفسرها بل إنهم اقتصروا في افتراضهم لما حذف وما يقدّر على ما تقتضيه الحدود البنيوية للجملة والافتراضات النظرية التي فسروا بها الظواهر النحوية فقط. والظاهر أن المتأخرين منهم هم الذين توسعوا هذا التوسع الذي مثلنا له قبل قليل في تبريراتهم.

ومن الطريف أن نذكر هنا أن ابن هشام، وبعد أن يستعرض مواضع الحذف والتقدير بالتفصيل الذي ألمحنا إليه، ويمثل لها بالأمثلة الكثيرة، يأتي بملاحظته السابقة الذكر عن كون التقدير

الذي يلزم النحوي هو الذي تقتضيه الصناعة. فلعلنا هنا أمام شيء من التأرجح بين موقفين منهجيين. أو قد لا يكون القائل بهما معاً معنياً أو مدركا لهذا التناقض الواضح. أو قد يكون ذلك واضحا له غير أنه أتى بمقولة مناقضة لما يراه على اعتبار صحتها السابقة، أو قد يكون قد رأى وجهة كل من الرأيين والنظرتين - نظرة النحاة ونظرة المفسرين. وعلى أية حال فهذا أمر يترك للمشتغلين بتأريخ الدرس النحوي العربي وتطوره.

إن هذا التوسع في افتراض المستوى التحتي للجملة بالاعتماد على تبريرات دلالية قد يكون مرده إلى محاولة الجمع بين دلالة الجملة ونحوها في مقاربة واحدة. ولعل مما يفيد هنا النظر في علم المعاني في الدرس اللغوي العربي والمسائل التي تناولها المشتغلون به. فهؤلاء جعلوا جزءا من اهتمامهم منصباً على أوجه العلاقة بين بنية الجملة ودلالتها. وهذا يذكرنا بالتطور الذي شهدته مدرسة القواعد التوليدية في أواخر الستينيات والذي تحدثنا عنه آنفا. تمثل هذا التطور في اتخاذ بعض دارسي تلك المدرسة موقفا مخالفاً لجومسكي ونظرته للعلاقة بين الدلالة والنحو، وأثر هذا على رؤيتهم للبنية العميقة للجملة كما ذكرنا في الفقرة السابقة من هذه الدراسة.

وليس من الغريب الجمع بين البحث في تركيب الجملة والبحث في معناها ودلالتها فالترابط بينهما كبير ويتجلى بصورة واضحة في تغير دلالة الجمل حين يتغير تركيبها النحوي، أو في تغيير معاني الجمل حين تتغير مواقع كلماتها. وقد شغلت هذه العلاقة النحاة العرب - كما شغلت غيرهم من النحاة - فأنت تجد إشارات كثيرة إلى معاني الجمل وما يلحقه تغير تراكيبها على معانيها وعلى وظيفتها اللغوية من استفهام وإخبار وتعجب، في كتب النحو متقدمها ومتأخرها. غير أن النظر في المعاني اقتصر على المعاني النحوية التي تفرزها العلاقات النحوية المختلفة بين عناصر الجملة بعضها ببعض. ولم يتعد ذلك إلى العلاقات الدلالية ضمن عناصر الجملة نفسها. أي أن هذه العلاقات الدلالية لم تتخذ عاملا يحدد العلاقات النحوية بين تلك العناصر. فكون العلاقة الدلالية بين «القارورة» و«انكسرت» في جملة «انكسرت القارورة» تختلف عن العلاقة الدلالية بين «الطفل» و «كسر» في جملة «كسر الطفل القارورة» لم يستلزم لدى النحاة افتراض

اختلاف في العلاقة النحوية بين الفعل والإسم في الجملتين. إذ أن «القارورة» و «الطفل» كلاهما فاعل لفعله مع اختلاف علاقته الدلالية به. وكذلك فاختلاف مقاصد المتكلم من قوله جملة واحدة في كل مرة يقولها لم يلزم النحاة إعطاء الجملة تحليلا نحويا مختلفا في كل مرة تبعا لكل مقصد.

فقد يكون مقصد المتكلم من الجملة أن يستفهم بها مرة، ويخبر بها مرة أخرى. لكن ذلك لم يعتد به سببا لإعراب الجملة بشكل مختلف كل مرة. فذلك خارج كما يبدو عن نطاق الدرس النحوي. وهذا ما نعنيه باستقلال النحو عن الدلالة. ولعل من المفيد مقارنة وجهة النظر هذه بوجهة نظر القائلين بعدم استقلال النحو عن الدلالة في مدرسة القواعد التوليدية فهؤلاء — في رفضهم استقلال المستوى النحوي عن الدلالي ـ افترضوا بنى عميقة للجمل تعكس العلاقات الدلالية المختلفة. وهكذا فالجملتان اللتان مثلنا بهما على اختلاف العلاقة الدلالية بين الفعل والفاعل تعطيان بنيتين عميقتين مختلفتين تبينان هذا الاختلاف في العلاقة. وهذا كما أشرنا ما لم يقل به نحوي في الدرس النحوي العربي.

4: المقابلة بين منهج جومسكي والتراث النحوي العربي

إن الاستعراض السابق لمفهوم البنية العميقة وكذلك مناقشة افتراض ثنائية المستوى البنيوي للجملة في الدرس النحوي العربي يجعلاننا في موضع أفضل لمناقشته وتقويم التقابل الذي تناولته بعض الدراسات التي ظهرت حديثا بين المنهجين لتأشير النقاط التي يلتقيان حولها. إذ قد توضح لنا من ذلك الاستعراض أن المنهجين يلتقيان في افتراضهما مستويين للبنية النحوية الجملية وكذلك فإنهما يلتقيان في إرساء تصورهما للمستوى الباطن (أو التحتي أو العميق) للبنية النحوية على حجج أو أدلة نابعة من الانتظامات النحوية وحدها. أي أنهما يلتقيان في استقلال النحو عن الدلالة. ولكن قبل الدخول في مناقشة وتقويم تلك الدراسات لابد من تناول حدود المقارنة الممكنة والمقبولة بين المناهج العلمية المختلفة.

إن نقاط التشابه والاختلاف في النتاج الفكري العالمي كانت وما زالت (وستظل كما أظن) موضوعا خصبا للنقاش والتأمل. وتعقد في الكثير من الأحوال مقارنات بين هذه النتاجات الفكرية قد

يكون الدافع إليها اكتشاف المشتركات الفكرية البشرية وما يمكن أن تلقيه من ضوء على الحدود الإدراكية والمعرفية الإنسانية. أو قد يكون عقد المقارنات من أجل الإجابة على سؤال التأثير والتأثر بين الأنشطة الفكرية للمجموعات البشرية المختلفة، وقد يكون بسبب حاجة نفسية للاطمئنان على عصرية التراث الفكري وصلته الوثيقة بالتيار الفكري العالمي.

غير أن من المهم في مثل هذه المقارنات أن لا تنسى الفوارق الزمنية وكذلك الاختلافات الحضارية والثقافية التي نشأ فيها كل من النتاجين المقارنين. إن تجريد النتاج الفكري عن زمنه وعن الحضارة التي أنتجته تجريد له عن جزء أساس من معناه ومغزاه. ويقود هنا بالتأكيد إلى فهم جزئي له إن لم يكن يقود إلى إساءة فهم كلية.

إن الكثير من الدراسات الأخيرة التي عنيت بنقاط الالتقاء بين منهج الدرس النحوي العربي ومناهج الدرس اللغوي الحديثة يفرد فصلا للحديث عن أوجه التشابه بين الدرس النحوي العربي ومنهج القواعد التحويلية. ومن المواد التي تناقش ضمن هذا الإطار مفهوم البنية العميقة واشتراك المنهجين في افتراضه.

غير أن من الملاحظ على جل هذه الدراسات أنها خرجت بتعميمات ونتائج غير دقيقة في هذا الأمر. وقد يعود هذا في بعض الأحيان إلى التحمس ــ تحمس الكاتب إلى تبيان عصرية الدرس النحوي العربي وتقدمه ـ فهو قد عالج قبل ألف سنة ما تعالجه المناهج الحديثة اليوم. إلا أن فائدة مثل هذا التحمس في البحث العلمي ليست كبيرة. بل إنه قد يوقع في مزالق من التعميمات غير الدقيقة مما يبعده عن موضوعية البحث العلمي ورصانته.(29)

إن أحد أهم أسباب وقوع تلك الدراسات في التعميمات الخاطئة هو الجهل بأصول هذا المنهج أو ذاك من مناهج الدرس اللغوي، واستقاء المعلومات عنه من مصادر ثانوية قد تكون هي نفسها معرضة لسوء الفهم. وقد أوقع هذا الجهل أو سوء الفهم في تخليط عجيب. أو قد يكون السبب سوء فهم النصوص الواردة في التراث النحوي العربي أو إعادة تفسيرها لتنسجم مع ما يريده الكاتب. ومهما كانت الأسباب فإنها ستجعل من محاولات المقارنة والتقابل تلك بلا جدوى أو مغزى كبيرين.

لقد ساوت معظم هذه الدراسات والكتابات بين البنية العميقة للجملة

ومعناها.(30) وهذه المساواة ـ كما بينا ـ لم تمثل وجهة نظر جومسكي يوما، بل إن كل كتاباته تضع خطا فاصلا بين الإثنين، فهو كان ومازال يقول باستقلال النحو عن الدلالة. وقد يكون سبب هذا الخطأ هو تفسير قوله في كتابه: «جوانب من نظرية النحو» إن التأويل الدلالي لجملة من الجمل تحدده بنيتها العميقة، والقارئ الكريم يعرف أن هذا رأي قد تجاوزته التطورات التي شهدتها أفكار جومسكي في السبعينات والثمانينات. أو قد يكون سبب هذا الخطأ ما ذكرناه من التوسع في دلالة مفهوم البنية العميقة الذي قام به الدلاليون التوليديون الذين قالوا بأن السبيل الوحيد إلى تفسير تأثير العلاقات الدلالية بين عناصر الجملة على بنيتها سيؤدي إلى رفض وجود مستوى نحوي باطن مستقل عن البنية الدلالية للجملة. ولهذا فهم يفترضون شكلا لنظام القواعد يتكون من مستويين الأول منهما التمثيل الدلالي للجملة (وهو ما أطلقوا عليه البنية العميقة أو التحتية) والثاني هو مستوى البنية السطحية التي تظهر عليها الجملة.

بل إن بعض هذه الدراسات قد توسعت أكثر في افتراضها ماهيّة البنية العميقة فجعلتها هدف المتكلم ومقصده، فنجد د.عمايره يقول إن «هدف الجملة الجوهري هي بنيتها العميقة» بالإضافة إلى كونها «المعنى الدلالي لها». وفي هذه الحالة فإن القوانين التحويلية لن تكون أكثر من أدوات توصل الجملة إلى شكلها الظاهر. ولكنه في الوقت نفسه يقول إن هذه القوانين تغير من معنى الجملة «فيتغير معنى الجملة في كل مرة إلى معنى جديد وفقاً لقواعد نحوية معينة transfor-mations. ثم يعود ليقول إن «معنى الجملة العميق يبدو في تراكيب سطحية وفقاً لقواعد النحو التحويلي التي وإن كانت لا تغير من المعنى الأساس في الجملة إلا أنها تؤثر على التراكيب السطحية التي تبدو عليها».(31)

وربطت بعض هذه الدراسات بين القابلية اللغوية Competence والبنية العميقة وبين الأداء Performance والبنية السطحية، ونسبت هذا الربط إلى جومسكي. فيذهب عمايره في دراسته إلى أن القابلية (القدرة) اللغوية... «هي الجانب الأدبي المضبوط بقواعد صوتية وصرفية ومعجمية تهدف تحقيق المعنى الدلالي العميق يعبر عنه (البنية التحتية)».(32) وكذلك يذهب د.الراجحي إلى أن البنية العميقة هي «الكفاءة» والأداء هو بنية السطح. ويحيل إلى الصفحات الأولى من كتاب جومسكي

«جوانب من نظرية النحو» التي ليس فيها ما يدل على هذا الذي يقوله، بل إن د.الراجحي يربط بين نحوية الجملة ـ أي صحتها التركيبية ـ بتلاؤم بنيتها السطحية مع قوانين البنية العميقة عند المتكلم.(33)

وعند هؤلاء وغيرهم يكتسب مصطلح «البنية العميقة» معاني لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالمعنى الاصطلاحي الأصلي لهذا المصطلح. «فالبنية العميقة، بوصفها إفرازاً للمعنى تعكس أشكال الفكر الإنساني». بل إنها تشمل كل ما بنفس الإنسان. «فباختصار أن ما يظهر على السطح أو يرتسم على الوجه أو ينطلق على اللسان أو يلتمع في العيون أو... أو... من علامات وإشارات ورموز وتعابير بمختلف الأشكال والألوان والصور عبر سلسلة من التوليدات والتحويلات (الجومسكية) وعبر استخدام الأدوات والمعطيات المحدودة للتعبير عن أشياء ودلالات لا محدودة بقابلية خلاقة رزقها الإنسان إذ هي إلا انعكاس للتركيب العميق الذي يدور في خلد الإنسان ومخيلته ومشاعره».(34)

غير أن أكثر شخصية اتخذت رمزاً لمقارنة التراث النحوي العربي بمدرسة القواعد التوليدية ـ أو جومسكي على وجه الخصوص ـ كان رجلا بلاغياً وليس بنحوي هو الشيخ عبد القاهر الجرجاني. لقد التقت هذه الدراسات على تقديم قراءة جديدة للجرجاني في كتابيه (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة). فقد وجدت الشيخ يفترق عن غيره ممن عالجوا البلاغة بتأكيده على أنها نتاج نظم الكلمات وليست خاصية لكلمة بعينها. ووجدت هذه الدراسات بين نظرية النظم التي قدمها الجرجاني وبين بعض سمات من كتابات جومسكي أوجه شبه عديدة فشبهوا القوانين التحويلية التي تنقل بنية الجملة العميقة إلى بنيتها السطحية عند جومسكي بالخيارات النظمية التي تتفرع من أصل واحد وتكون متاحة للمبدع في اختيار ما يلائم مقصده. إذ أن كلا منها يختلف عن غيره بظل من المعنى (ومثل الجرجاني المشهور على ذلك: زيد المنطلق، المنطلق زيد، زيد انطلق، انطلق زيد).(35) وزاد من تلك الشبهة أن الجرجاني وجومسكي يلتقيان في اتخاذهما الجملة موضوع درسهما الأساسي. فوحدة البحث البلاغي عند الجرجاني هو الجملة وأن الكلمات هي عناصر تنتظم في الجملة والبلاغة تكمن في ذلك الانتظام وليس في هذه الكلمة أو تلك. وجومسكي كما هو معلوم يتخذ من الجملة الوحدة الأساسية

للتحليل اللغوي. وجل كتاباته كانت عن الجملة فالرجل معني بالأبنية النحوية أكثر من غيرها من البنى اللغوية. وكذلك فكلام الجرجاني عن المعاني المختلفة التي تنتجها الخيارات النظمية — أي الوظائف المختلفة للأبنية المختلفة — قد أوحى للكثيرين بوجود تشابه بينه وبين جومسكي الذي أعاد للدرس اللغوي في أميركا عنايته بالدلالة - وعنايته - بالمحل الأول - بتقديم تفسير للظاهرة اللغوية ضمن قوانين عامة وعدم الاقتصار على الوصف والتصنيف. وكذلك فقد أوحى كلام الجرجاني عن مقاصد المتكلم وترتب الكلام في نفسه بوجود تشابه بينه وبين جومسكي الذي تحدث كثيرا عن منهجه العقلي في الدرس اللغوي.(36)

ولا بد لنا هنا أن نراجع بالتفصيل كل هذه الأوجه من التلاقي ونتفحصها على وجه الدقة. وأول ما نجد أنفسنا تجاهه هو حقيقة أساسية تفرق بين فكري الرجلين وآرائهما: تلك هي اختلاف موضوع بحثهما. إن جومسكي معني أساساً بالبنية النحوية وكيفية وصفها من حيث طبيعتها وشكلها. والبنية النحوية لديه هي البنية النحوية للغة ما عند المتكلم/ السامع المثالي. فهو إذن يتحدث عن البنية النحوية بصورتها المثالية - كما أسلفنا - بتجريدها عن كل أثر فردي كالمهارات الكلامية عند البعض، وكل أثر غير لغوي (أو غير قواعدي على وجه أدق) كالذي يعرض للنتاج اللغوي من مؤثرات ليست من اللغة والنظام اللغوي بشيء. وتأكيد جومسكي كان دوماً على البنية اللغوية دون غيرها من أوجه البحث في اللغة البشرية - كالوظيفة اللغوية والدلالة وعلاقة اللغة بالمجتمع. وكما قلنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة فإنه يرى - وهذا أمر يتكرر في كل كتاباته — أن الشيء المهم في اللغة البشرية بالنسبة له هو بنيتها - فهذه هي الأمر الوحيد الذي يميزها عن غيرها.

أما الجرجاني فإنه معني مباشرة بالإبداع الفردي في الاستخدام اللغوي. وهو يريد أن يستكشف قوانين هذا الإبداع الفردي فيقدم ما عرف «بنظرية النظم» التي يريد منها القول إن الإبداع يكمن ليس في اختيار كلمة أو لفظة بعينها بل هو نتاج اختيار الفرد لنسق من أنساق النظم التي تتيحها بنية اللغة النحوية. فهذه الأنساق هي التي ينبني على اختيارها التفاضل بين مستويات الكلام (أو النتاج اللغوي مكتوباً أو ملفوظا) بين بليغ وغير بليغ. وهي أنساق يتوخاها المتكلم (أو الكاتب) واعياً لقصده

إقامة علاقات بين الألفاظ يتوخى منها معاني النحو وهذا هو النظم. «فليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم».(37)

ومعاني النحو هذه ليست القوانين العامة لصوغ الجمل. فالقوانين العامة التي تحدد البنية النحوية للجملة هي مما تشترك به الجماعة اللغوية — أو ما يتصف به المتكلم/ المستمع المثالي ـ بدون تفاضل بين الواحد والآخر. وهذه القوانين العامة هي موضوع اهتمام ودرس جومسكي وهي التي ينصب عليها كلامه. ويبدو أن الجرجاني يفرق بين النظم (توخي الفرد المبدع لمعاني النحو في الاستخدام اللغوي) وبين أصول النحو وأحكامه وقوانينه العامة. فهو يتحدث عن هذه الأخيرة في مدخل كتابه «دلائل الإعجاز» بكلامه عن تعليق أجزاء الجملة الواحد منها بالآخر.(38) ولا أظنه في هذا الخصوص يختلف عن المخطط النحوي الذي يرسمه النحاة العرب لبنية الجملة النحوية وحدودها والسمات النحوية التي درسوها والمبادىء أو الافتراضات النظرية التي أثبتوها.

غير أن هذا الأمر ـ أي القوانين العامة التي تحكم البنية النحوية ـ ليس موضع اهتمام الجرجاني، فالرجل معني بالأسلوب من حيث كونه مدار البلاغة. إذ يكمن وراء النظم معاني النحو وهذه تفرق نظما عن نظم. فلكل واحد منها وظيفة يختص بها ـ وهو ما يطلق عليه الجرجاني «معاني النحو». إن كلام الجرجاني عن النظم وعن أنه سبب مزية كلام عن كلام وفضل شعر على شعر يوضح أنه يتحدث عن مقدرة فردية هي غير القابلية (الكفاية) اللغوية التي يتحدث عنها جومسكي. فهذه تساوي ـ بالنسبة لجومسكي — معرفة المتكلم / السامع المثالي للقوانين والمواضعات اللغوية ومنها القوانين النحوية. والمقدرة التي يتحدث عنها الجرجاني هي مقدرة يختلف فيها أفراد الجماعة بحيث يتفاضلون فيما بينهم بمقدار ما يمتلكون منها. ومن هذا جاء إعجاز القرآن الكريم في أنه بلغ درجة من هذه المقدرة يعجز المتكلمون عن بلوغها.

ويتعلق بهذا مسألة العقلانية التي أوردت كوجه للتشابه بين مقولات جومسكي ومقولات الجرجاني. فجومسكي يعد اللغة ظاهرة ذهنية والقابلية اللغوية هي المعرفة بهذا النظام الذهني ومن هنا جاء استخدامها وتلقيها نشاطاً أو فعالية ذهنية في جوهرها. ويبدو أن هذا هو الذي وضع جومسكي

والجرجاني موضع المقارنة والشبه. ولكننا بتقصي مقولات الاثنين نجد أن النشاط العقلي الذي يتحدث عنه جومسكي ليس أكثر من هذه المعرفة بقواعد اللغة والتي يمتلكها المتكلم الاصيل كسليقة طبع عليها. أما الجرجاني فكلامه عن النشاط عقلي واع للفرد المبدع يختار عبره هذا الأسلوب أو ذاك متوخياً فيه ـ كما أسلفنا ـ معاني معينة للنحو.

ولعل كلمة «توليد» قد زادت في تعقيد الأمر فقد فهم البعض أن التوليد ـ وهو مصطلح من مصطلحات مدرسة القواعد التوليدية ـ يعني إنشاء أنساق متنوعة من مجموعة ألفاظ محددة أو من بنية عميقة تعمل كأصل لتلك الجمل التي تكون فروعاً لها. وهذا الفهم الخاطىء للتوليد قد يوحي (أو أنه أوحى) بشبه بين جومسكي والجرجاني.(39) فالجرجاني يتحدث أيضاً عن الأساليب والأنساق المختلفة التي يمكن ردها إلى أصل واحد، والتي تؤدي معاني مختلفة تختلف بين النسق والنسق. ومن نافلة القول تكرار الحديث أن التوليد لم يقدمه جومسكي بهذا المعنى أبدا ولم يقصد به هذا الاشتقاق لجملة من جملة أخرى. ففي الصفحات الأولى من كتابه «جوانب من نظرية النحو» يعرف جومسكي الفعل «يولد» بأنه يعني إعطاء وصف بنيوي واضح وجلي للجملة لا يدع مجالا للحدس والظن.(40) فإذا حسب نظام من القواعد حساب كل جمل اللغة سيقال عنه أنه ولدها. وعلى هذا فالتوليد هنا غير «الإنتاج» إلا إذا أخذنا «ينتج» بمعنى أوسع كثيرا من المعتاد بحيث يعني «تصف» أو «تعطي» والقواعد تكون توليدية حين تكون واضحة وجلية ومفصلة.(41) ولعل الذين فهموا التوليد بهذا المعنى الخاطىء خلطوا بينه وبين الخلق والاشتقاق. فجومسكي يتحدث عن الجانب النحوي من القواعد على أساس أنه الجانب الخلاق. فقوانين القواعد النحوية هي التي تولد جملاً مع أوصافها البنيوية. وليلاحظ القارىء الفرق بين «القوانين التي تولد» والجمل الأصلية التي «تولد جملا أخرى» على حد قول أولئك الباحثين.

ومن ناحية أخرى فإن الأنساق المتنوعة التي تقدم أمثلة على طرق النظم المتعددة التي تنتمي إلى أصل واحد (كما يمثلها عبد المطلب محمود وجعفر دك الباب) والتي هي مدار بحث الجرجاني لا يمكن النظر إليها ـ وفقاً للمنهج التوليدي ـ على أساس أنها تمثل بالضرورة البنى السطحية الناتجة عن بنية عميقة واحدة

عبر قوانين التحويل.[42] فصلة جملة بأخرى (أو بعبارة أصح صلة بنية جملية بأخرى عن طريق التحويلات) تقتضيها وتحكمها وجود تبريرات نحوية بحتة لقيام مثل هذه الصلة. وعلى هذا فإننا ـ وعلى افتراض أن نسق العناصر في جملة «انطلق زيد» يمثل نسقها في بنية هذه الجملة العميقة، لا يحق لنا الزعم بأن جملة «زيد منطلق» مشتقة من نفس البنية العميقة التي اشتقت «انطلق زيد» منها ما لم يدعم ذلك تبريرات نحوية تطرد مع الرؤية العامة للبنية النحوية للجملة العربية ومع الفرضيات المنهجية التي تفترض لتفسير الظواهر النحوية ـ مما فصلناه آنفا. والذي يبدو هو أن تشابه هذه الجمل في معناها هو الذي دعا إلى تصور اشتقاقها من بنية عميقة واحدة على اعتبار أن البنية العميقة تمثل المعنى. وهنا تجدر الإشارة إلى مسألة مهمة تتلخص فيما يلي. أن اشتراك جملتين في بنية نحوية عميقة واحدة يقتضي (وفقا للنظرة السائدة في الستينات) أن يكون لهما معنى واحد، غير أن هذا لا يقتضي أن يكون لكل جملتين لهما معنى واحد بنية نحوية عميقة واحدة. إن هذا يعطينا صورة واضحة عن مدى التوسع في فهم آراء جومسكي والجرجاني ويدل ذلك على مدى الاختلاف الحقيقي بين مقولاتهما.

وقضية التوليد تقودنا إلى وجه آخر من أوجه الشبه المزعوم بين جومسكي والجرجاني: تلك هي حقيقة القواعد النفسية. فجومسكي لم يقدم نظامه القواعدي على أساس أن له حقيقة نفسية. فطريقة عمل القواعد مثلا لم ينسب إليها أية مطابقة مسبقة مع العمليات الذهنية التي يتضمنها الاستخدام اللغوي قولاً وإدراكاً. ويكرر جومسكي في أكثر من موضع أن صحة هذه القوانين لاتنبع من حقيقتها النفسية (ولو أن ذلك من المرغوب به بالتأكيد) ومماثلتها لما يجري في الذهن فعلاً، بل من كونها تحسب حساباً دقيقاً وصحيحاً للظاهرة اللغوية. والسعي وراء إثبات الحقيقة النفسية للقوانين التي يقترحها اللغوي لا يزال يشكل جزءا كبيرا من البحث اللغوي وهو افتراض تجريبي (أي أنه يخضع في صحته أو زيفه للتجربة). فالحقيقة النفسية للتحليلات والافتراضات ستظل مدارا للبحث سعياً وراء فهم أكبر للأساس الحيوي (البايولوجي) لطبيعة اللغة البشرية وجوهرها.

أما الجرجاني المعنيّ أساساً بالنتاج اللغوي الذي يمتاز به فرد دون آخر ـ

أي الإبداع ـ وليس المعرفة اللغوية عند الإنسان عموماً ـ وهذا كل الاختلاف الجوهري فله موقف آخر من الحقيقة النفسية للنتاج اللغوي. فهو يرى أن الجمل تترتب عناصرها حسب ترتب المعاني في نفس القائل. يقول في دلائل الإعجاز «إن الأمر على ما قلناه من أن اللفظ تبع المعنى في النظم وإن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس».[43] وهكذا «فإذا وجب المعنى أن يكون أولاً في النفس وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق».[44] إن هذا القول، حين يؤخذ بكل ما يعنيه، يعني أولاً نفيا قاطعاً لبنية نحوية ذات حدود واضحة تفرضها الانتظامات النحوية لكل لغة، أو نفيا لوجود مستقل لمثل هذه الانتظامات ـ أو لطرق تعليق الكلمات بعضها ببعض ونظمها في الجملة العربية. وهي بالتالي نفي لوجود النظام اللغوي المستقل. وهذا القول يعني أيضاً أنه لن يكون هناك فرق بين البنية النحوية للجمل في لغة ما عنها في لغة أخرى. فما دام نسق الكلمات ينتج عن ترتب معانيها في النفس إذن ستصبح بنى الجمل النحوية واحدة في كل لغات العالم. وليس لنا أن نناقش هذا الادعاء هنا فهو مسألة تجريبية واحسب أنه يوجب التأني وسبر غور ما يعنيه بالتحديد قبل تبنيه دليلاً على تلاقي فكري الجرجاني وجومسكي.[45] فهما يتكلمان عن أمرين مختلفين لأنهما أصلاً يعالجان موضوعين مختلفين.

خاتمة :

إن الذي نخلص إليه مما تقدم هو أنه وبالقدر الذي يمكن به استخلاص مشترك بين منهجين للبحث اللغوي يفصل بينهما ما ذكرناه من بعد زماني ومكاني وحضاري. فإن المنهجين اللذين كانا موضع دراساتنا (وهما المنهج التوليدي التحويلي (متمثلا بكتابات جومسكي) ومنهج (الدرس النحوي العربي) يشتركان في سمتين أساسيتين للبناء النحوي. فكلاهما يفترض مستويين للبنية النحوية للجمل وكلاهما يؤسس هذا الافتراض على حجج نحوية مستمدة من الحدود البنيوية على التركيب الجملي وعلى الافتراضات النظرية التي وضعت لتفسير الظاهرة النحوية. غير أن هذا لايجوز أن يعني بحال أنهما يشتركان بأكثر من هذا من أدوات البحث وتفاصيله. فقد أسس جومسكي رؤيته للنحو على أسس رياضية، وتقدم افتراضاته وصفا قواعديا بأدوات

رياضيـة. بل أن النمـوذج الريـاضي كان بـالنسبة لـه مثالا يحتـذى به في تحديـد افتراضاته. وهذا لم يكن من سمات منهج الدرس النحوي العربي. ولابد من الإشارة هنا إلى أن هــذا لا يعني أن المنهـج الأول أكثر منطقية من المنهج الثاني ـ وليس في هذا مما يؤخذ على النحاة العرب.

ونستخلـص أيضـا أوجـه الاختـلاف الحقيقية بين مقولات جومسكي ومقولات الجرجـاني فيما اشتبه بـأنهما يتماثـلان فيـه. إذ أنهما ــ كما قلنـا ــ لم يكـونـا معنيين بقضية واحدة بـل كان كل منهما معنياً بـأمر لا يعنى الآخر بـه. ففي حين لم يعـن الجرجـاني بالقوانــين النحويـة العامة التي تكون المعرفة اللغوية عموماً ـ وهو مجال بحث واستقصاء جومسكي ـ نجد أن هذا قد تجنـب الحديث عن النتاج اللغـوي ومـا يـدخـل فيـه مـن عـوامـل ومؤثرات وهو ما كـان بعضه مدار بحث الجرجـاني الذي كـان همه الأكبر وضـع حدود واضحة للإبداع.

الهوامش

(1) انظر : Chomsky, N. *Aspects of the Theory of Syntax*, (Cambridge, Mass. MIT Press, 1965).
وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية. ونشرته جامعة البصرة 1985.

(2) Chomsky, N. *Syntactic Structures*, (The Hague : Mouton, 1957).
وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشرته مديرية الشؤون الثقافية في العراق 1987.

(3) في هذا العرض نستند إلى الفصل الأول من كتاب جومسكي جوانب من نظرية النحو Chomsky, *Aspects*, ch.1 وهو يمثل المنطلقات الأساسية للنظـرية التي تقوم عليهـا هذه المدرسة والتي لم تتعرض للتغيير مـع تطورها. وهكذا فـإننا نراها تتكـرر في كتابات جومسكي التالية.

(4) لتفصيل هــذا ينظر في Chomsky, *Aspects*, ch. 3; Chomsky, *Essays on Form* and Interpretation (New York : North Holland, 1977); Chomsky, *Rules and Representations*, (New York : Columbia Univ. Press, 1980).

(5) ينظر في كتاب Chomsky, *Reflections on language*, (New York : Pantheon, 1975).

(6) Chomsky, *Language and Problems of Knowledge*, (Cambridge, Mass. : MIT Press, 1988) p. 25

(7) Chomsky, *Syntactic Structures*, Ch. 4

(8) Chomsky, *Aspects*, Ch. 2

(9) Chomsky, "Deep Structure, Surface Structure, and Semantic interpretation", In *Semantics : An Interdiciplinary Reader*, D. Steinberg and L. Jacobovits (eds.), (Cambridge : CUP, 1971).

حول معاني حروف المعاني وأصول استعمالها

بقلم : حسن عباس
باحث من سوريا

لـمّـا كانـت الحلقات الإحـدى عشرة تشكـل وحـدة (لغـويـة ــ تـاريخيـة ـ اجتماعية)، فإنه لابـدّ من تذكير القارىء، ولـو في لمح، بما انتهينا إليـه في الحلقـات السابقة(*):

لقد مـر الإنسان العـربي في جزيـرته الأم بمراحل حيـاتية ثلاث، هـي (الغـابية، فالـزراعية، فـالرعويـة) قد أبـدع خلالها أصول أصـوات حروفـه تباعـا، مرحلـة حياةٍ بعد مرحلة.

1. قد ورثنـا عن المرحلـة الغابيـة أصول أصـوات الأحرف الهيجـانية الأربعـة، هي : «الهمزة الزمارية، والألف اللينة، والـواو واليـاء الجوفيـة».وقـد اعتمـد الإنسان العربي خصائصهـا الصوتية الهيجانيـة وطريقـة النطق بـأصواتها مترافقة بالحركات الجسدية المناسبـة، وذلـك للتعبير عن حـاجـاتـه الغابيـة المحدودة.

2. ورثنـا عـن المرحلة الـزراعية بـزعامـة المرأة أصـول أصـوات الأحـرف الإيمائية: «الفاء ـ اللام ــ الميم ـ التاء ـ الذال».

قـد اعتمـد العـربي طـريقـة النطـق بأصواتها مترافقة بالحركات الجسدية المناسبـة وذلك للتعبير إيماء وتمثيـلا عن حـاجاته الحضاريـة المستجدة في المرحلة الـزراعية. وقد استعـرضنا في الحلقة (السابعـة) خصـائص ومعاني ثلاثة أحرف هي:

أ ــ (الفـاء)، لمعـاني الشـق والحفـر والتـوسع، بما يضـاهـي طـريقة النطـق

(*) صدر للكـاتب في مجلة اللسان العـربي، عدد 33 (1989م) سبع حلقـات في موضـوع البحث. وتنشر له المجلـة في عددهـا هذا الحلقات الأربعة الباقية.

بصـــوتها: «ضرب الأسنان العليـــا على الشفـــة السفلى، وانفـــراج الفكين عـــن بعضهما البعض».

ب ـــ (الــلام) لمعـــاني الالتصـــاق، بما يضـاهـي : «التصـــاق اللســان بسقــف الحنك».

ج ــ (الميـم) لمعاني المص والـرضـاع والضم والجمع والانغـلاق، بما يضاهي : «انطباق الشفتين على بعضهما البعض في ضمـّة متأنيـة حبسـا للنفـس، ومن ثـم انفراجهما على مهل».

وقـد أرجأنـا الحديـث عـن حرفي (الثـاء والذال) إلى الحلقات القادمة.

3. أما المرحلـة الرعويـة فقد ورثنـا عنها باحتمال شـديد باقـي الحروف التي عبر العربـي بمـوجبات أصـواتها بلا حركات جسـديـة عـن احتياجـاتـه الحضـاريـة والثقافية: طريقـة راقية في التعبير لا مثيل لها اليوم في أي من لغات العالم.

الحلقة الثامنة :

المرأة والمرحلة الزراعية

أولاً ـ عود على بدء :

لقد وعـدنا القـراء في الحلقة الأولى، أن لا نعتمـــد في تصنيـف مـــراحـل إبـــداع الحروف العـربيـّة إلى غـابي، فـزراعـي، فـرعـوي، غير الأدلة اللغـويـة، «إلا عنـد الضرورة».

وما أحسب أن ثمـة ضرورة ألحّ منها الآن لاعتماد الأدلـة التاريخيـة والأثريـة والدينيـة والاجتماعية والاقتصـادية ومـا إليها، للبرهان على تعاقب مرحلتي الزراعة فالرعـي، بزعامتي المرأة فالـرجل، تثبيتا للأدلة اللغوية.

فـالعـلاقـــة بين المرحلتين الـزراعيـة والـرعويـة لم تقتصر على إفـراز العلاقـة الجدليـــة بين الإيمائي التمثيلي والإيحائي في معـــاني الحروف العـــربيـــة، وإنما تجاوزت ذلـك إلى إفراز العـلاقة الجدليـة بين الأنوثة والـذكورة في مختلف مجالات الحيـــاة على مـدى تـــاريـخ الحضـــارة الإنســانية إلى يـومنـا هـذا. ولقد أوجـز (اشپنكلر) أحـد فلاسفة القـرن العشرين هذه العلاقة الجدلية بينهما بقوله: «المرأة تمثل الطبيعة، والرجل يمثل التاريخ».

استطراد ـــ ما أحســب أن أحدا قــد كشــف عن دور المرأة الحضـــاري بـأدق مما قـــاله «لــويس ممفــورد»: «لقد تـرك وجود المرأة أثـره في كل جـزء من أجـزاء القـــريـــة، لاسيما منشـآتها الماديـــة، بما تحـويه من الأسيجة الواقية، وهـي تنطوي على معـــان رمـزيـة لم يستطـع التحليـل النفسي الكشـف عنهـا إلا مؤخـرا. وكلهـا تتخذ أشكالا ماديـة تعرب عنها في البيت والفـــرن وحظيرة الماشيـــة وصـــومعـــة

الحبوب وصهريج الماء وحفرة التخزين ومخزن الغلال. كما يمتد أثرها إلى المدينة في السور والخندق، وفي كل الساحات الداخلية في المباني، من الردهات إلى الرواق».

«فالبيت والقرية وفي نهاية المطاف المدينة، ما هي إلا صورة مكبرة للمرأة. وان المباني البدائية القديمة، والمنازل والحجرات والقبور، كانت عادة مستديرة كالإناء الأصلي الذي وصف في قصص الإغريق بأنه صنع على نمط ثدي افروديت». (المدينة على مر العصور ج 1 ص 21).

وأرى أن ثمة علاقة رمزية أيضا بين نشأة القبة العربية وبين الثدي، قبل أن يصنع ذلك الإناء الأصلي بآلاف كثيرة من الأعوام. فالقبة جاءتنا إرثا شرعيا عن الأكواخ الطينية الخشبية المستديرة التي عثر عليها في أغوار الأردن منذ الألف (12) ق.م فظل ذلك النمط سائدا في بلاد الشام حتى الألف (8) ق.م، ولا نزال نشاهد نماذج منه في بعض الأرياف السورية حتى الآن.

ثانيا - حول زعامة المرأة في المرحلة الزراعية :

لقد صعدنا في الحلقات السابقة بكثير من الثقة والطمأنينة إلى ما قبل التاريخ بأجنحة زاخرة بالقوة والحيوية من خصائص الحروف الإيمائية التمثيلية، وعلى هدي المعاجم اللغوية، إلى نشأة اللغة العربية البكر في المرحلتين الغابية فالزراعية.

ولكن قبل أن ننهي رحلتنا اللغوية التاريخية هذه، هبوطا في طريقنا إلى المرحلة الرعوية وحروفها، نرى أن نتعرض هنا لبعض الشكوك المتوقعة حول ما توصلنا إليه من نتائج.

فلئن اقتنع السادة القراء بانتماء الحروف العربية إلى مراحل غابية وزراعية ورعوية، إلا أن البعض منهم، ولرواسب رعوية ذكورية، قد ينكر علينا إسناد زعامة المرحلة الزراعية وحروفها إلى المرأة ذات البنية الهشة الضعيفة، وليس إلى الرجل الصلب القوي. ولو أننا في عهد محاكم التفتيش يوم كان فقهاؤها يتساءلون عما إذا كان للمرأة روح كما للرجل، إذن لطالب هذا البعض بإحالتي إلى آلات تعذيبها.

وعند هذا الفاصل بين المرحلتين الزراعية والرعوية، يستحسن بنا أن نتناول ولو باقتضاب شديد بعض الشواهد التاريخية والأثرية والدينية على زعامة المرأة في المرحلة الزراعية دعما للأدلة اللغوية.

فبتقصي الآثار المكتشفة في واديي الرافدين والنيل وفي بلاد الشام (سورية + الأردن + فلسطين)، قد تبين لي أن الجزيرة العربية هي مهد الحضارات التي نشأت في هذه المناطق الثلاث. فمع الموجات البشرية التي طردها جفاف ما بعد العصر الجليدي الأخير من ربوع الجزيرة العربية منذ الألف(9) ق.م، قد تسرب إلى المناطق المجاورة لها، ألف عام بعد ألفٍ صناعتا الزراعة واستئناس الحيوان مصحوبتين بعبادة المرأة الأم، ثم تلتهما صناعة الرعي مع عبادة الكواكب.

ولما كانت بلاد الشام هي الامتداد الطبيعي والبشري والغذائي والثقافي المباشر للجزيرة العربية على مدى التاريخ، سأعتمد هنا كتاب (الوحدة الحضارية في بلاد الشام)، لمؤلفه (جاك كوفان) ترجمة قاسم طوير. فمؤلفه أستاذ التاريخ في جامعة (ليون) الفرنسية، قد ساهم بالحفريات الأثرية التي أجرتها إحدى البعثات الفرنسية في المريبط وتل الشيخ حسن، حتى عام 1974 ـ كما أن تواريخ الآثار المكتشفة بين الألفين (12ـ6) ق.م، قد تم تحديدها جميعا بطريقة تحليل الفحم(14) الحديثة الفائقة الدقة، مما يغطي ذلك الفاصل الزمني بين المرحلتين الزراعية والرعوية موضوع اهتمامنا.

1 ـ يؤكد المؤلف أن البشرية لم تنتج القوت (الزراعة وتأهيل الحيوان) قبل الألف(8) ق.م، وأنه قد نضجت في بلاد الشام بين الألفين(9ـ6)ق.م جملة من التحولات الحضارية قبل أي مكان آخر في العالم. ولكنه يقرر بأنه لم يلمس أسبابها وتطوراتها إلا بقدر ضئيل جدا (ص70). وهذا الجهل يشير إلى أن أصول هذه التحولات الحضارية، وفي مقدمتها إنتاج القوت قد جاءتها من الجزيرة العربية الأم.

2 ـ لا حظ المؤلف : «اختفاء مفجعا للحضارة النطوفية في بلاد الشام بين الألفين (9ـ8) ق.م وقيام حضارة جديدة على يد أناس جدد» (ص 42ـ43). وهؤلاء الناس الجدد الذين لم يعرف (جاك كوفان) من أين قدموا، كانوا في الحقيقة من الجزيرة العربية.

3 ـ كانت الغالبية العظمى من الدمى التي عثر عليها في بلاد الشام حتى الألف(8) ق.م، حيوانية، مما يشير إلى عبادتها. وكانت إحدى الدمى الإنسانية تمثل زوجا بشريا متناسق الأعضاء ورشيقها في وضع عاطفي، مما يشير إلى تقديس الجنس على رأي المؤلف. (ص. 150ـ 152).

4 ـ ظهرت بعض الدمى النسائية في أوائل الألف (8) ق.م، لا تناسق في أعضائها ولا رشاقة، وكانت ذات سمات مشتركة من حيث التجسيم الكامل والواقعي لجسد المرأة العاري، مع ظاهرة تضخيم الورك والمؤخرة. وقد أطلق على هذا النموذج الذي شاع في بلاد الشام طوال ألفي عام تارة اسم «الربة الكبرى» وتارة اسم «ربة الزراعة» (ص 152ـ153). وهذا يشير إلى انسياح عبادة المرأة مع إنتاج القوت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام.

5 ــ بدأت التماثيل الأولى للرجل بالظهور حوالي (7000)ق.م، إلا أن الغلبة كانت للدمى النسائية طوال الألفين (8ـ7)ق.م، وهذا يشير إلى أن سلطة الرجل لم تبدأ في بلاد الشام إلا بعد ذلك التاريخ على أيدي الرّعاة الذين بدؤوا بالاستيطان فيها حوالي (6200) ق.م. (ص. 152 + 158 + 166). مع التذكير بأن الحياة الرعوية بدأت في الجزيرة العربية منذ الألف(10)ق.م. بترجيح شديد.

6 ــ لاحظ العالم الأثري (لوروا غورهان) إن السوية الأولى في (تل الأسود) قرب دمشق الخالية من الزراعة لم تحتو إلا على دمى حيوانية. أما السوية الثانية التي ظهرت فيها أدلة على وجود الزراعة، فقد ظهرت فيها دمى بشرية، أي نسائية. (هامش ص168 + ص154) وهذا يشير إلى حتمية سيادة المرأة في المرحلة الزراعية.

7 ــ شوهد في السوية الرابعة من المريبط لعام (7650ــ 7300)ق.م. قبر شبه بيضوي منتفخ الشكل يستند إلى جدار. وكان الهيكل العظمي لصاحبه في حالة القرفصاء، في وضع مماثل لوضع الطفل في بطن أمه (ص 66). وهذه الطريقة في دفن الموتى تشير إلى طقوس دينية ترتبط بالربة الأم في ظل مقولة مفترضة: (من البطن الحاني إلى البطن الحاني يعود)، مصداقا لما قرره (لويس ممفورد) آنفا.

وهذه الأدلة التاريخية والأثرية على قلة ما سردنا منها وإيجازه، تبين لنا أن المرأة الأم كانت زعيمة المرحلة الزراعية في الجزيرة العربية. فاستمرت في فرض عبادتها وقداستها على الرجل بعد نزوحها إلى بلاد الشام حتى أوائل المرحلة الرعوية. وهكذا كان من طبيعة الأمور أن تتولى هي، وليس الرجل إبداع ما يلزم مرحلتها الزراعية في الجزيرة العربية من وسائل التواصل الإيمائي

التمثيلي على وجه ما بيناه في الحلقة السابقة.

ولو أن الرجل كان هو زعيم المرحلة الزراعية وصاحب حروفها، لكان فرض عليها عبادته وتقديسه كما فعل في مرحلة رعوية لاحقة.

وحكاية ترويض (أنكيدو) عشير الوحوش في أسطورة (جلجامش) على يد إحدى غانيات معبد بابل ذات الحضارة الزراعية، يمكن اعتبارها رمزا تراثيا موروثا على ترويض الرجل الغابي على يد المرأة الزارعة في الجزيرة العربية الأم.

الحلقة التاسعة :

حول سيادة الرجل في المرحلة الرعوية

أولا - في المجتمعات الزراعية :

لقد عرضنا في الحلقة السابقة أن الدمى النسائية المقدسة في بلاد الشام ظلت هي الغالبة طوال الألفين (9- 8) ق. م، على الرغم من ظهور التماثيل الأولى للرجل عام (7000) ق.م.

فهذه الظاهرة من التزاحم بين تماثيل الرجل والدمى النسائية على منصات القداسة طوال ألفي عام تشير في حد ذاتها إلى واقع النزاع بينهما على الزعامة في المجتمع الزراعي.

ولكن الأساطير السومرية والبابلية والكنعانية والمصرية توضح لنا كثيرا من ضروب العلاقة بينهما في تلك المجتمعات الزراعية. إيجابيها وسلبيها على حد سواء.

فأسطورة التكوين البابلي (الإينوما إيليش) مثلا، تلخص مراحل النزاع بين الرجل والمرأة في أقسى صوره وأوضحها.

فبمعرض الخلاف بين الإله (ابسو) وزوجته (تعامة) بصدد طيش أبنائهما الشباب، تنتصر لهم ويقوم أحدهم (ايا) بقتل أبيه غيلة. وذلك يرمز إلى تفوق المرأة المؤلهة على الرجل في أوائل المرحلة الرعوية في المجتمع الزراعي. ولكن يتم قتل (تعامة) ذاتها فيما بعد على يد أحد أحفادها، البطل (مردوخ) ذو المواصفات الرعوية، في معركة رهيبة يستخدم فيها كل منهما ما أنتجته مرحلته من الأسلحة، وبما يتوافق مع خصائص جنسه. وتنتهي الملحمة بقيام (مردوخ) بتنظيم الكون الجديد على أسس جمالية أخلاقية. وهذا يشير إلى قيام الرجل الراعي بانتزاع السيادة من المرأة بقوته وخبرته وحكمته وروحه الشاعرية.

أما النزاع بين الرجل والمرأة في أسطورة (جلجامش) فتأخذ طابعا أقل حدة بين الآلهة (عشتار) ربة الحب، و (جلجامش) البطل. ينتصر هو عليها في

الجولة الأولى بقتله الثور السماوي الذي خلقه أبوها (آنو) للقضاء عليه جزاء رفضه الزواج منها وتحقيرها. وتنتصر هي في الجولة الثانية بمعونة الآلهة بإماتة صديقه (أنكيدوا)، فيهيم على وجهه في الغابات حزنا عليه.

وتنفرد أسطورة التكوين الكنعاني عن غيرها بإبراز ظاهرة الوفاق بين المرأة والرجل في مجتمع زراعي عريق. فالصراع هنا يقع بين (بعل) رب المطر والصواعق والسحاب، وبين (يم) إله النهر، فتنحاز (عناة) ربة الحرب والدمار والخصوبة الكونية لحبيبها وسيدها (بعل). وتنتهي الأسطورة بزواجهما السعيد.

وقريب من ذلك ما جاء في أسطورة التكوين الخاصة بمدينة (نيبور) السومرية التي تحكي قصة غرام الإلهة الشابة (ننليل) بالراعي (أنليل). يفتنها ويعتدي عليها فيستولدها إله القمر (نانا). ثم يفر منها إلى العالم السفلي، فتحلق به ويستولدها آلهة أخرى لذلك العالم.

فهذه الأساطير إنما هي نماذج خاصة من المستحاثات الأثرية التي استطاعت بأسلوبها الشاعري الرمزي أن توصلنا بمجمل العادات والتقاليد والروابط الاجتماعية والعقائد والأفكار التي كان أبناء شعوب المنطقة العربية يتوارثونها على صفحات الذاكرة جيلا بعد جيل قبل التدوين بآلاف كثيرة من الأعوام.

ثانيا - في المجتمعات الرعوية :

أما الرجل في المجتمع الرعوي، فإنه لم يجد أي صعوبة في انتزاع الزعامة من المرأة خلال هذه المرحلة الجديدة التي صنعها بنفسه لنفسه.

فالأسلحة التي شرعها في وجه المرأة الأم المؤلهة لم تقتصر على قوته الجسدية وخبرته القتالية وملكيته للقطيع فحسب، وإنما تعدتها أيضا إلى سلاح روحي جديد أشد حسما، هو عبادة القمر مفتاح العبادات السماوية.

فالقمر هو أعظم كواكب الليالي ونجومها حجما وأكيسها استدارة وأسطعها ضوءا، وأبهاها طلعة وأشدها ارتباطا بمصيره.

نوره في مظلمات الليالي يشيع الأنس في نفوس رعاة الجزيرة العربية في بادية موحشة لا أنس فيها ولا أمان ولا اطمئنان.

مساره على فلكه في السماء يحدد لهم مواقعهم على الأرض، فيعرفون صحيح مسالكهم في متاهات صحاريها وبواديها.

أهلّته المتكررة تحدد لهم شهورهم وأعوامهم، فيعرفون مواقعهم الصحيحة في تيار الزمن.

وجوهه المتغيرة في كل ليلة تعيّن لهم أيام الأسابيع. فكان الأسبوع سبعة أيام بما يعدل ربع الشهر القمري. ثم كانت الحروف العربية فيما بعد(28) حرفا بعدد منازله. أربعة عشر منها قمرية تظهر معها (لام) التعريف بعدد منازله الظاهرة، وأربعة عشر شمسية تختفي معها (لام) التعريف بعدد منازله المخفية.

ولقد عبدوا القمر باسم الإله (سين) منذ الألف(9) ق.م. فقد عثر في السوية الثالثة من المريبط في سورية (8000 - 7600) ق.م. على أحد جدران المسكن(47) طبقة سميكة من الطين الأصفر على هيئة هلال، بطول(60) سم وعرض(20) سم (الوحدة الحضارية في بلاد الشام ص(51+142). وهذا يشير إلى أن عبادة القمر قد نزحت من الجزيرة العربية مع النازحين.

وهكذا لم تستطع المرأة أن تصمد في المجتمع البدوي أمام هذا المنافس الجديد. فهو الأروع جمالا والأسمى مقاما والأقدس مظهرا والأنقى بشرة والأكثر نجدة والأشمل رعاية، والأصدق مواعيد في مساره ووجوهه وأهلته.

وفوق ذلك كله، كانت عبادته هي الأدعى لتوحيد عقائد رعاة الجزيرة العربية وقيمهم الجمالية والأخلاقية ومثلهم العليا، يستوحونها من خصائصه وصفاته أنى حلّوا وأنى ارتحلوا.

ولقد كان له في غور الأردن بأريحا أعظم معابده، يحج إليه الناس من سائر المناطق العربية، على مايؤكده (ويل ديورنت) في قصة الحضارة الحديثة. كما كانت أرض سيناء تدعى (أرض القمر).

ثالثا - حول أبعاد الصراع بين المرأة والرجل في اللغة العربية :

لئن أولينا هذه العلاقة الجدلية بين الذكورة والأنوثة، في هذه الحلقة التي قبلها، شيئا من الاهتمام في بحثنا اللغوي هذا، فذلك لأنها تشكل واحدا من أعمق الجذور الثقافية التراثية في «الشخصية العربية». ولقد كان لهذه العلاقة الجذر بينهما أبعاد أيضا في اللغة العربية، لا يزال الكثير منها خفيا لم يحظ بما يستحقه من اهتمام علماء اللغة العربية وفقهائها.

لقد ساهمت التقاليد الرعوية على مدى آلاف الأعوام في ترسيخ سيادة الرجل على المرأة، ولكن الإنسان العربي قد

كرس هذه السيادة أبد الدهر في لغته بالكثير من قواعدها وأصولها المحكمة، كما في الأمثلة التالية:

1 — لقد اختار النون لرقتها وشاعريتها، وما يوحيه صوتها في نهاية المصادر من معاني الخفاء والاستكانة والاستقرار (كما أسلفنا في حلقة سابقة)، فألحقها بكلمة (أب)، ولم يلحقها بكلمة (أم). وذلك ترسيخا لقاعدة إلحاق الأبناء بالآباء في المجتمعات الرعوية وليس بالأمهات، على العكس مما كان حالهم وحال الأزواج في المرحلة الزراعية.

2 — كما ألحق هذه (النون) الأنيقة الرقيقة المستكينة في نهاية الأفعال والأسماء والحروف وجعلها علامة للإناث: (سمعن - حديثهن — عنهن..)، وذلك بمقابل ما جعل (الواو) ذات الفعالية والاستمرار (كما أسلفنا في حلقة سابقة)، ضميرا للذكور: (سمعوا).

3 — ثم اختار (التاء) الضعيفة الشخصية، ذات الصوت الباهت، لا صفاء فيه ولا أناقة ولا رنين ولا فعالية، ولا ما يوحي بأية مشاعر إنسانية، فجعلها علامة للتأنيث. وقد ألحقها بالأسماء المذكرة من درجات القرابة وسواها، كناية عن تقدم المذكر على المؤنث وأفضليته: (زوج، زوجة - إبن — إبنة - أخ، أخت - عالم، عالمة..). ما سلم من هذا التسلط الذكوري على درجات القرابة المؤنثة سوى لفظة (أم)، وذلك لأنها جاءتنا إرثا عن مرحلة زراعية أعرق في القدم من المرحلة الرعوية كما أسلفنا.

أما درجة القرابة (كنّة) مؤنث (صهر) فهي وإن استقلت عنه بكلمة خاصة، فسلمت بذلك من التسلط الذكوري ظاهريا، إلا أن العربي قد أبدعها في المرحلة الرعوية خصيصا لتحديد موقعها الثانوي في أسرتها الجديدة، بتسلط ذكوري أشد إحكاما وتحكما.

فلفظة (صهر) بحروفها الرعوية قد اشتقها العربي من الانصهار، لمعاني التفاعل والتمازج، عنوان حيوية وفعالية. وذلك على العكس من لفظة (كنة)، المنتهية بنون (الإناث) وتاء (التأنيث): فهي لمعاني الرقة والضعف والاستكانة والاستقرار، عنوان خفاء وتبعية. وذلك بأفضلية موقع الصهر في أسرة حميّه التي ينصهر فيها، على موقع (الكنة) في أسرة حميها التي تستكين فيها ولا تنصهر.

رواسب رعوية ذكورية لا تزال ماثلة في تقاليدنا وعاداتنا وعواطفنا وروابطنا، لم يتحرر المجتمع العربي الرعوي منها حتى الآن إلا قليلا.

الحلقة العاشرة:

الحروف الرعوية ومعانيها

أولا ــ حول صعوبة استيحاء معانيها :

لقد تحدثنا في حلقة سابقة عن كيفية استخلاص معاني الحروف الزراعية من خصائصها الإيمائية التمثيلية. وما أحسب أن القارىء قد اعترضته أي صعوبة في الاهتداء إلى معانيها، بمجرد الانتباه إلى الحركات التي ترافق النطق بأصواتها.

أما استخلاص معاني الحروف الرعوية من صدى أصواتها في النفس، فهو يتطلب شروطا خاصة لابد من توافرها في الباحث عنها.

فمعظم دكاترة اللغة العربية وطلابهم يجزمون اليوم بأن الحرف العربي لا معنى له. وأن الكلمة العربية مجرد مصطلح لا علاقة لمعناها بأصوات أحرفها. وذلك تأثرا منهم بالمدارس اللغوية الغربية جيلا يعلم جيلا، فلا تلحظ أبصارهم دلالات طرق النطق بأصواتها ولا تنتبه أسماعهم إلى صدى أصواتها في النفس.

يقول الدكتور صبحي الصالح في كتابه (دراسة في فقه اللغة): (لا قيمة للأصوات والكلمات والصيغ والتراكيب إلا بمقدار ما يتعارف المجتمع على أنها رموز لدلالات).

والأستاذ محمد المبارك يتساءل في كتابه(فقه اللغة) الذي ألفه في شبابه بعد تخرجه من جامعة السربون الفرنسية.

«أليست هذه الألفاظ أشبه بالرموز الرياضية؟ أليست أشبه بالنقود التي يرمز بها إلى القيم؟». ص(15).

ولكنه قد رجع عن رأيه هذا في كتابه «خصائص العربية» فيقول:

«.. كما إني وجدت تقابلا عجيبا وتشابها واضحا بين اللغة العربية والطبيعة.. انكشف لي ذلك تدريجيا في أثناء سيري في البحث اللغوي خلال سنين طويلة..». ص(228). ثم يعترف صراحة فيقرر:

«إنني أقول في غير تردد : أن للحرف في اللغة العربية إيحاء، ويثير في النفس جوا يهيىء لقبول المعنى ويوحي إليه ويوحى به» ص (260).

فكيما يستطيع الباحث أن يكتشف العلاقة الفطرية الكائنة بين أصوات الحروف العربية ومعانيها، لابد له أن يتمتع برهافة سمع وشفافية مشاعر، وتذوق أدبي رفيع، ومعاناة طويلة مع تلونات أصوات الحروف العربية، كما

وقع للأستاذ المبارك. أما الذي لا يتمتع بالحدود الدنيا من هذه الشروط جميعا، فسيجد مسألة معاني الحروف العربية مجرد توهم في أذهان القائلين بها لا رصيد لها من حقيقة.

وعلى الرغم من ذلك يمكن التخفيف عن الباحث أو القارىء من هذه الصعوبات بمعرض التقصي عن معاني الحروف العربية وذلك باتباع النهج الذي عرضناه في الحلقة (الثالثة)، وملخصه:

أ ــ البحث مسبقا عن الخصائص الإيمائية والإيحائية في الحرف المعني.

ب ــ الرجوع إلى المعاجم وانتقاء الجذور الألصق معان بالطبيعة، مما يشارك هذا الحرف في تراكيبها.

ج ــ اختيار المعنى الحسي لكل جذر منها، دون المعنوي. فالأصل في الجذور ومعانيها هو الفطري الحسي، وليس المعنوي المجرد الذي جاء لاحقاً في مراحل لغوية متطورة.

وهكذا نستطيع بسهولة أن نستخلص المعاني الأصيلة التي أبدع الحرف العربي للتعبير عنها ابتداء، أو التي وظفها للتعبير عنها في مراحل لغوية متطورة، كما لحظنا ذلك في معاني حرف (اللام)، في الحلقة السابقة.

نهج موضوعي يتوافق مع مراحل تطور اللغة العربية. ولذلك من المحال على الباحث أن يهتدي إلى معاني أي حرف إذا لم يلتزم بهذا النهج، ولو اهتدى إلى بعضها عفو رهافة سمع وشفافية مشاعر وتذوق أدبي رفيع ومعاناة طويلة مع أصوات الحروف، كما وقع لابن جني والعلايلي والأرسوزي والمبارك وابن زيدان، وغيرهم كثير.

ثانيا ــ فما هي الحروف التي تعنينا وما معانيها ؟ :

اختصارا شديداً للبحث سنكتفي باستخراج معاني الحروف الرعوية وما بقي من الحروف الزراعية التي يكثر دورانها في حروف المعاني، وكذلك ما يدخل منها في تراكيب حروف المعاني الهامة الكثيرة الاستعمال.

وحذر الإطالة سنكتفي بالكشف عن بعض معاني كل حرف منها مما يفيدنا في معرفة معاني حروف المعاني التي تدخل في تراكيبها.

لقد استخرجنا في الحلقات السابقة معاني الحروف الغابية جميعا (الهمزة والألف اللينة والواو والياء)، ومعاني ثلاثة من الحروف الزراعية (الفاء والميم

واللام) وبقي منها (الثاء والذال).

لذلك سنعمد إلى استخراج معاني الحروف التالية:

«الباء ـ التاء ـ الثاء ـ الذال ـ العين ـ الكاف ـ النون ـ الهاء».

1 — حرف (الباء):

يبدأ تشكل صوت هذا الحرف بضم الشفة على الشفة بشيء من الشدة حبسا للنفس. وبانفراجهما الفجائي عن بعضهما، ينفتح الفم واسعا، ويحدث صوته الانفجاري.

وبذلك كانت له خصائص إيمائية تمثيلية مستمدة من طريقة التلفظ بصوته. فكان ثمة(86) مصدرا من أصل (292) مصدرا جذرا تبدأ به لمعاني الانبثاق والظهور والاتساع والامتلاء، بما يتوافق مع ظاهرتي انفراج الشفتين وانفتاح الفم عند خروج صوته.

أما خصائصه الإيحائية التي تعنينا، فهي مستمدة من طبيعة صوته الانفجاري. فكان ثمة(53) مصدرا جذرا تبدأ به لمعاني الحفر والشق والبعج والقطع والشدة، بما يتوافق مع صدى صوته الانفجاري في النفس، منها:

«بأر البئر (حفرها). بتّ الشيء وبتره وبتعه وبتكه وبتله وبركعه، وبرشق اللحم وبشقه وبضعه بمعنى (شقه) بجّ الشيء وبذحه وبعج البطن وبقره وبحر الأرض بمعنى (شقها). بحث بخص عينه (فقأها)».

2 — حرف (التاء):

صوته الباهت المتماسك، يوحي بملمس بين الطراوة والليونة، وكأن الأنامل تجس وسادة من قطن، أو كأن القدم الحافية تطأ أرضا من الرمل الندي. ولا يوحي صوته بأي إحساس حسي آخر، أو بأية مشاعر إنسانية.

كان لمعاني الرقة والضعف والأشياء التافهة بما يتوافق مع صدى صوته في النفْس(18) مصدرا من أصل (100) مصدر جذر تبدأ به. منها:

«تبتب (شاخ). التبن. تخّ. التراب. تفتف (اتسخ بعد نظافة). التفّ (وسخ الظفر) ـ تفه. تك الرجل (حمق). التلب. التين».

وكان في المصادر التي تنتهي به(23) مصدرا لهذه المعاني من أصل(97) مصدرا منها.

«بلت (انقطع عن الكلام حياء). خبت. ختّ. سكت. الشخت (الضامر خلقه). صمت. قلت فلان (فسد وقل لحمه). الفتات. نات (تمايل لضعف أو نعاس).

الوتاوت (الوساوس). فكانت (التاء) من ضعف الحروف شخصية، لتتأصل بذلك خاصية الضعف في معانيها.

3 ـــ (الثاء والذال) بين الأنوثة والذكورة :

لقد أبدعت المرأة الأم أصلي لثغتيهما في المرحلة الزراعية تعبيرا إيمائيا تمثيليا عن جنسي الأنوثة والذكورة، كما ذكرنا سابقا. فهما حرفان لثويان، ليس ثمة في اللغة العربية حرفان اثنان ألصق منهما مخرج صوت، ولا أكثر تطابقا في طريقة التلفظ بهما. وهذا ماحدا بالدكتور إبراهيم أنيس إلى التوهم بأنه: «لافرق بين صوتي (الثاء والذال) إلا الهمس بالثاء والجهر بالذال».

فكلاهما يتشكل صوته عبر ذات المراحل الثلاث التالية:

أ ـ يشق طرف اللسان الأسنان العليا قليلا عن السفلى، وإذا فخم صوت (الذال) برز طرف اللسان من بينهما.

ب ـــ يندفع النفس بين الأسنان العليا وطرف اللسان بشيء من البعثرة والتشتت، ولكن بفروق بينهما.

فمع الثاء يندفع النفس ببطء ورخاوة، ومع الذال بسرعة وشدة.

ج ـــ يسمع لاحتكاك النفس بالأسنان العليا عند خروجه مع (الثاء)، حفيف فيه لين وطراوة، أما مع (الذال)، فيسمع لاحتكاكه ذبذبة صوتية عالية.

وهكذا على الرغم من تقارب مخرجي صوتي هذين الحرفين وتطابق طريقتي التلفظ بهما ملثوغين، فإن ثمة فروقا أصيلة بينهما على مثال ما في الأنوثة والذكورة من تقارب وتطابق، ومن فروق أيضا.

1 ـــ فمخرج صوت (الثاء) أقرب إلى جوف الفم من مخرج الذال. وذلك كناية عن ظاهرتي الخفاء والحشمة في الأنوثة، وعن ظاهرتي البروز والظهور في الذكورة في المجتمع الرعوي.

2 ـــ أما التناقض بينهما، فهو أشد ما يكون في إيحاءاتهما الصوتية تعبيرا عن المعاني. وذلك على مثال ما كان التناقض بين الأنوثة والذكورة على أشده في وظائفهما ومهامهما في المرحلة الرعوية. فإذا كان صوت (الثاء) الملثوغة يدغدغ طرف اللسان بكثير من المرونة والطراوة، ويوحي بالدماثة والملمس الدافىء الوثير، فإن صوت (الذال) الملثوغ أشد توترا وألذع مذاقا وأكوى حرارة وأوخز ملمسا. ليشف بذلك صوت كل حرف منهما عن خصائص الجنس الذي يمثله.

فماذا عن هذه المزاعم على واقع المعاجم اللغوية ؟

أ- حرف الثاء

لهذا الحرف خاصيتان تمثيليتان وواحدة إيحائية، لثلاث فئات من المعاني:

1 - لمعاني الشق والانفراج والسيلان بما يتوافق مع ظاهرة شق الأسنان العليا عن السفلى بطرف اللسان، عند بداية تشكل صوته. وكان لها(17) مصدرا تبدأ بالثاء من أصل(94) مصدرا جذرا. منها:

«الثأي (الفتق). ثعرر الأنف (تشقق). ثغب الشاة (ذبحها). الثغر. الثلم...».

2 - لمعاني البعثرة والتشتت والتخليط، بما يتوافق مع ظاهرة بعثرة النفس عند خروج صوته وكان لها(17) مصدرا تبدأ به. منها:

«ثرثر. ثرد الخبز وثمأه (فته). ثر. ثط (خف شعر لحيته). ثعر (كثرت بثوره). الثلج. ثار (هاج وانتشر)...».

3 - لمعاني الرقة واللين والبضاضة ومتعلقات الأنوثة، بما يتوافق مع صدى صوته في النفس. وكان لها(21) مصدرا تنتهي بالثاء من أصل(83) مصدرا جذرا. فصوت (الثاء) الأنثوي، إنما هو أوحى بخصائصه في نهاية المصادر، كما لحظنا في الحلقة (الثالثة). منها:

«أنث (لان)، ومنها الأنوثة والأنثى. البُهْثَة (البشر وحسن اللقاء). رعث الصبي أمه (رضعها). الطمث. الرفث. خرثت المرأة (ضخمت خاصرتاها واسترخى لحمها). خنث الرجل. دمث. ماثت الأرض (لانت). داث ديثا (لان وسهل).

ملاحظة :

لئن كان لمعاني البعثرة والتخليط والجمع العشوائي (44) مصدرا جذرا تنتهي بالثاء، إلا أننا لم نعثر فيها على أي مصدر يدل معناه على الشق والانفراج والسيلان. وذلك لأن طرف اللسان مع (الثاء) في نهاية الكلمة يستقر في وضعه الأخير بين الأسنان العليا والسفلى، فلا تنفرجان عن بعضهما البعض.

ب - حرف الذال :

وكما لحرف الثاء، فإن لحرف (الذال) خاصيتين إيمائيتين وواحدة إيحائية، لثلاث فئات من المعاني.

1 - لمعاني الاهتزاز والاضطراب وشدة التحرك بما يتوافق مع ظاهرة الاهتزاز في صوته. فكان لها (11) مصدرا من

أصل (58) مصدرا جذرا تبدأ به، منها:

«ذبّ (لم يستقر في مكان). ذبح. ذأل (مشى مسرعا). ذقَّ الطائر (أسرع). ذمل البعير (سار سريعا لينا). ذهب. الذَّنَب والذَّيل (لظاهرة الذبذبة في تحركهما).

2 ـ لمعاني البعثرة والانتشار بما يتوافق مع بعثرة النفس في صوته الملثوغ وكان لها (11) مصدرا.

منها :

«ذرأ الأرض (بذرها). ذراه (فرقه وبدده). ذفر المسك (اشتدت رائحته وانتشر). ذراه ذروا (طار في الهواء وتفرق). ذاع الخبر. ذرف الدمع. ذرح الشي في الريح (ذراه). ذاب الشحم.

3 ـ لمعاني الشدة والفعالية والقطع بما يتوافق مع موحيات صوته وكان لها(19) مصدرا منها:

«ذأمه (طرده) الذئب. ذحّ الشيء (دقه وشقه). ذرب السيف (صار قاطعا). الذراع. سم ذعاف. الذكورة. ذلق اللسان. ذيأه (قطعه). الذهن (الفهم والعقل والقوة). ذمه اليوم (اشتد حره). ذئِر (أنف وغضب). ذمر (غضب)».

الحلقة الحادية عشرة:

الباقي من الحروف الرعوية ومعانيها

لقد استخرجنا في الحلقة الرابعة معاني (الهمزة والألف والواو والياء)، وفي الحلقة الخامسة وظائف (الفتحة والضمة والكسرة)، وفي الحلقة السادسة معاني (الفاء والميم واللام)، وفي الحلقة السابعة معاني (الياء والتاء والثاء والذال). وبقي علينا أن نستخرج في هذه الحلقة معاني حروف (الكاف والنون والهاء والعين). وهذا كل ما يلزمنا لمعرفة معاني أهم حروف المعاني وأصول استعمالها.

أولا ـ حرف الكاف :

هو عند العلايلي والأرسوزي (للاحتكاك). وهذا صحيح.

ففي الوقع، إذا لفظ صوته ممطوطا بعض الشيء، ومخفوتا به قليلا، ومضغوطا عليه بلا تفخيم، يخرج النفس بين اللهاة وسقف الحنك بشيء من الاحتكاك، بما يحاكي صوت احتكاك الخشب بالخشب. ولعل العربي قد اقتبسه عفو الفطرة من صوت هذا الحدث في الطبيعة.

وعلى الرغم من تنوع خصائص هذا الحرف وكثرة معانيه، فإنه لايعنينا منها بمعرض الحديث عن حروف المعاني إلاّ خاصيّة الاحتكاك. فكان لهذا المعنى(7) مصادر فقط من أصل(186) مصدرا جذرا تبدأ به بنسبة ضئيلة لايعتد بها لتقرير خاصية الاحتكاك في صوته.

أما المصادر التي تنتهي به، فكان منها (15) مصدرا لهذا المعنى من أصل(84) مصدرا جذرا بنسبة تقارب (18%)، مما يؤهل هذه الخاصية أن تكون واحدا من معانيه. منها:

«حكَّ ـ دعك ـ دلك ـ شبك ـ شك الشيء (لصق بعضه ببعض). عرك الجلد ومعكه (دلكه) علك. محك (لجّ في المنازعة)...».

ولقد استخلص العربي معنى التشبيه في حرف الكاف، من خاصية الاحتكاك في طريقة التفلظ به، ومن صدى صوته في النفس.

فالتشبيه لغة هو (التمثيل) كما في (رغيفك كرغيفه) وهو عند البيانيين، (إلحاق أمر بأمر لصفةمشتركة بينهما): (زيد كالأسد). وكلا المعنيين يتطلبان إجراء المطابقة بين صفاتهما الحسية أو المعنوية المشتركة بشيء من الاحتكاك المادي أو الذهني.

ثانيا ـ النون :

يقول عنها العلايلي بأنها «للتعبير عن البطون في الأشياء». ويقول الأرسوزي بأنها: «للتعبير عن الصميمية». وكلاهما صحيح.

وهذان المعنيان المتقاربان في (النون) قد تأتيا من طبيعة صوتها الهيجاني الذي ينبعث من الصميم للتعبير عفو الفطرة عن صميم الذات.

على أن (النون) لها معان أخرى تتوافق مع خصائصها المتأتية من طريقة التلفظ بصوتها في أول المصادر وفي آخرها. ولكننا حذر الإطالة سنقتصر هنا على ما يفيدنا في حديثنا المقبل عن معاني حروف المعاني ووظائفها.

أ ـ فإذا لفظت (النون) في مقدمة المصادر بشيء من الشدة، أوحى صوتها بالانبثاق من الصميم، كما قال الأرسوزي. فكان لهذه المعاني (29) مصدرا تدل على أصوات، و (120) مصدرا للانبثاق من الداخل، وذلك من أصل (368) مصدرا جذرا. كان منها للأصوات:

«نأج البوم ـ نبح ـ نحب ـ نخم ـ نخف ـ نشج الباكي ـ نعر ـ نعق ـ نغم ـ النقيق ـ نهق ـ نهت القرد ـ نهم الأسد ـ ناحت الحمام...».

وكان منها للانبثاق:

«نبأ ـ نبت ـ نبع ـ نبغ ـ نتأ ـ نتج ـ نتح ونث ونحج ونشح بمعنى (رشح). نجد المكان ونشز بمعنى (ارتفع). نجم (طلع وظهر). نضح ـ نضخ ـ نطق ـ نظر ـ نزف ـ نفست المرأة (ولدت). نهد الثدي (برز وارتفع). والأفعال في هاتين الفئتين من المصادر لازمة جميعا.

ب ـ وإذا لفظت النون بشدة وتوتر أكثر، أوحى صوتها بالنفاذ في الأشياء. وكان منها (45) مصدرا لهذه المعاني. منها:

«نبث ـ نبش ـ نثل الشيء ونجثه (استخرجه). نخزه ـ نحره ـ نخسه ـ نقب الجدار ـ نقد ـ نقر ـ نكت ـ نكز ـ نكف البئر (نزحها). نهش..» والأفعال في هذه المصادر متعدية جميعاً.

ج ـ أما صوت النون، في نهاية المصادر فيلفظ هناك مخففا مرققا منعما، بما يوحي بمعاني الرقة والأناقة والجمال ومحاسن النساء في المجتمع الرعوي، فكان لها (58) مصدرا من أصل (126) مصدرا جذرا، منها:

«الحسن ـ الحنان ـ امرأة رزان (ذات وفاء وعفاف). زانه (جمله). الغسان (حدة الشباب). العين ـ الفنن ـ لدن (كان لينا) ـ مرن ـ لان ـ الميسون (الغلام الحسن القد والوجه). الوسن (النعاس..).

كما كان منها أيضا (34) مصدرا لمعاني الإقامة والاستقرار والخفاء، بما يتوافق مع صدى صوتها المرقق المنعم منها:

«أتن بالمكان وبن به ودجن به وسكنه ورزن به وعدن به وعمن به وعهن به ومتن به ووثن به ووطن به بمعنى (أقام في المكان) ـ أكن الطائر ووكن (دخل عشه). أمن، الجفن (عطاء العين). جن (استتر). دفن ـ كمن ـ كن (استقر)...».

وهكذا استحقت (النون) بجدارة أن تكون في نهاية الأسماء والأفعال والحروف رمزا (للإناث)، رقة وأناقة وخفرا وحشمة.

ثالثا ـ حرف الهاء :

هذا الحرف يستمد معانيه العديدة من مصدرين اثنين:

أ ـ من طبيعة صوته في الاهتزاز أولا، وفي التخريب ثانيا.

ب ـ ثم من طريقة التلفظ بصوته: إما مشبعا مضغوطا عليه. وإما باهتزازات رخوة، وإما مخففا مرققا مطموس الاهتزازات، وإما مخنخنا به.

وكل واحدة من خصائص هذا الحرف الست، كان لها ما يتوافق مع معانيها في المصادر التي تبدأ به بنسبة بلغت

(90%). فكان هذا الحرف على هشاشة صوته من أقوى الحروف العربية شخصية.

وذلك لأن الإنسان العربي قد وجد في صوت (الهاء) مادة طيعة سهلة التكيف للتعبير بها عن معان تتوافق مع طبيعتها في الاهتزاز والتخريب والاضطراب والخنخنة، مما لا يتوافر في أي مادة صوتية أخرى. فكان أن أكثر العربي من استعماله لهذه المعاني السلبية في متعلقات حياته الذاتية كما سيأتي:

وعلى الرغم من أنه لا يعنينا من خصائص هذا الحرف ومعانيه بمعرض حديثنا المقبل عن حروف المعاني سوى خاصيتي الاهتزاز والتخريب في صوته، فإننا سنستعرض بإيجاز شديد أهم خصائصه الأخرى بمعانيها. وذلك للكشف عن النزعة الفنية الأخلاقية في مقومات الشخصية العربية الثقافية بمعرض تعاملها مع أصوات الحروف ومعانيها.

أ ـ فكان ثمة (31) مصدرا من أصل (280) مصدرا جذرا تبدأ به لمعاني الاضطراب والارتعاش والتحرك السريع بما يتوافق مع صدى صوته المهتز عندما يلفظ بشيء من الشدة، منها:

«هبت الريح وهفت ـ هبا الغبار ـ هز ـ هزهز ـ الهوف (الريح الهوجاء). هاش القوم (هاجوا). هاده هيدا (حركه). الهياج...»

ب ـ وكان منها (31) مصدرا لمعاني التخريب والقطع والسحق والكسر بما يتوافق مع صوت (الهاء) ملفوظا بشيء من الحدة، منها:

«هتم الشيء وهتاه وهثمه وهشمه وهصمه وهاضه وهضمه بمعنى (كسره أو حطمه). هبر اللحم وهذب الشيء وهذاه بالسيف وهزبره بمعنى (قطعه). هرس الشيء وهمق السويق وهمك البطاطس بمعنى (دقه وسحقه). هد البناء وهدمه وهوره بمعنى (هدمه). هرد الثوب وهرضه (مزقه)...»

ج ــ وكان ثمة (77) مصدرا لمعاني الاضطراب والعيوب النفسية والعقلية والأخلاقية، بما يتوافق مع صوته رخوا مخنخنا به بعض الشيء. منها لمعاني الحمق فقط:

«الهبكة ـ والهبنك ـ والهبل ـ والهتر ـ والهجاة والهجرع ـ والهيفك ـ والهلس ـ والهمج والهمق والهبت والهنبع والهوب والهوج والهوس والهوك...» بعضها لمعاني الحمق في الرجال وبعضها الآخر للنساء.

وكان منها (42) مصدرا للتشوهات

والعيوب الجسدية بما يتوافق مع صدى صوت (الهاء) مخنخنا به أيضا، منها:

«تهبرس ـ تهطرس ـ هبع ـ هبرج ـ الهجف ـ هرجل ـ الهرشن ـ هرص ـ الهرطال ـ هرملت المرأة ـ الهالط ـ الهلقام ـ هنبع ـ هنبل ـ الهيف».

وهكذا يكون العربي قد جعل من (الهاء) مصحا للأمراض العقلية وأقام فيه جناحا خاصا للأمراض الجسدية وعللها. وذلك على مثال ما جعل من (الخاء) حاوية قمامة في بنيانه اللغوي الأنيق.

رابعا ـ حرف العين :

لما كان هذا الحرف هو آخر الحروف العربية التي سنتحدث عن خصائصها ومعانيها رأيت أن أتناول كيفية تشكل صوته والمزيد من خصائصه بشيء ما من التعمق، لإعطاء القارئ ولا سيما المعنى بشؤون اللغة العربية فكرة أدق عن بعض أسرار حروفنا على واقع المعاجم اللغوية.

1 ـ حول كيفية تشكل صوته وطبيعته:

يتشكل صوت (العين) بتضيق مخرجه في أول الحلق على شكل حلقة ملساء، ومن ثم بتجميع ذبذبات النفس في بؤرة هذه الحلقة، فيخرج صوته في جوف الحلق نقيا ناصعا، هو أوحى الأصوات بالإشراق والظهور والسمو والفعالية. وذلك على مثال ما تتجمع أشعة الشمس في بؤرة عدسة بلورية مقرِّبة، فيكون الضوء فيها أشد توهجا وسطوعا وحرارة.

وهكذا فإن تشكيل صوت (العين) يتطلب مهارة فائقة في التحكم بعضلات الحلق للمحافظة على ملاستها ودائريتها المناسبة، مما يجعل النطق بصوته عسيرا يستحيل إتقانه على غير الشعوب العروبية (السامية).

ومسألة تجمع ذبذبات النفس في بؤرة الحلقة في أول الحلق، تحاكي تجمع ذبذبات النفس في بؤرة الحلقة التي تشكلها الشفتان لإحداث الصفير. ليكون صوت (العين) هو نوع خاص من الصفير، ولكن في جوف الحلق، وليس خارج الفم.

يقول عنه الدكتور إبراهيم أنيس: «إنه من حيث انعدام حفيفه هو أقرب من الميم والنون واللام، ومن حروف اللين، الألف والواو والياء».

وأخذا بهذا المنطلق من حيث المقارنة بين صوته وأصوات بعض الحروف، نستطيع أن نزيد على ذلك:

فصوته من حيث صفاؤه ونقاؤه، يمت بقرابة مماثلة من حرف (الصاد)، ومن

حيث فخامته فهو غير بعيد في قرابته عن حرف (الضاد). أما من حيث توتره الصوتي فهو ألصق طبيعة بحرف (الزاي).

وهكذا يبدو صوت العين كأنه مزيج من خصائص أصوات هذه الحروف جميعا، له من اللام متانتها وتماسكها، ومن الصاد صفاؤها وصقلها، ومن النون نقاؤها وأناقتها، ومن الضاد فخامتها ونضارتها، ومن الزاي شدتها وفعاليتها، ومن الألف والواو والياء، لينها ومرونتها.

فكان حرف العين بذلك أكثر الحروف العربية أرستقراطية، قد جمع إلى نفسه خلاصة أخيار أصوات الحروف العربية من خصائص وإيحاءات معان.

لا يضير هذا الحرف الأسطوري أن يسيء العرب استعماله فيكثرون من استخدامه لمعان لا صفاء فيها ولا نقاء ولا فخامة ولا سمو، كما سيأتي. فذلك يرجع إلى مرونة مادته الصوتية أولا، ومن ثم إلى نقاء هذه المادة. وهاتان الخاصيتان قد جعلتاه يأتلف مع سائر الحروف العربية باستثناء حرفي (الحاء والغين). فالحاء للتعارض الموسيقي بين صوتيهما. أما (الغين) فللتناقض بين خصائصهما ومعانيهما. فلم يجتمع أي منهما مع حرف (العين) في أي كلمة عربية.

وهكذا كان من المحال على حرف (العين) أن يحمي موحيات السمو والصفاء والنقاء في صوته من معاني الفجاجة والغلظة والاضطراب في الحروف التي تصاحبه. وشأن حرف (العين) في دنيا اللغة العربية كشأن العظماء مع المعيات الرديئة النفوس في دنيا المجتمع على مدى التاريخ. (والكريم يخدع).

2 ـ حول معانيه :

أ ـ كان لمعاني الشدة والفعالية والصلابة والقطع، مما يتوافق مع صوت (العين) مشددا عالي النبرة (125) مصدرا من أصل (664) مصدرا عثرنا عليها في المعجم الوسيط وفي قاموس محيط المحيط لبطرس البستاني. منها (19) مصدرا للأسد و (18) للإبل والناقة، في مختلف أوصافهما. كما كان منها (10) مصادر بمعنى الصلب الشديد.

ب ـ وكان منها (115) مصدرا لعيوب نفسية وجسدية، مما يتصف بالشدة والعيانية والظهور كما في: «العربدة ـ العهر ـ العـة ـ العمى ـ العمه ـ العور ـ العار ـ العاهة ـ العيب».

ج ـ وكان منها (64) مصدرا لمعاني العظم والظهور والعلو، مما يتوافق مع

(العين) المشـــددة المفخمـة. منهـــا (18) مصدرا جذرا للعلو فقط، منها:

«عـب البحـر (كثر مـوجـه وارتفـع). العباهر (الممتلىء الجسم الطويل). عرج في السماء (ارتفع وصعد). العراهل (الضخم الفاحـش الطول). العلو ـــ عاطـت العنق (طالت..).

د ـ وكـان منها (11) مصدرا للصفاء والضياء والعيانية، بما يتـوافق مع صدى صوته في النفس، مرققا منعما. منها:

«عـرب عـروبا (فصـح) ـــ عـرف ـ العـراص (اللمـع المضطرب) ـــ العقـل ـ العلم ـ العين...».

هـ ـــ وكان منهـا (64) مصدرا تـدل معانيها على العقد والربط وأدواتهما، وعلى الفتـل والـدوران، ثم على العـوج والميـل. أسرة من الأحداث يجمع بينها عامل حسي منظور هـو بدايـة حركـة دائرية تكتمـل تارة، وتتكرر تارة أخـرى، وتفشل أحيانا فتظل مجرد عوج أو ميل. وهذه الخاصية في حرف (العين) تتوافق مـع واقع تشكل الحلقة الملساء في أول الحلـق حين خروج صوته بشيء من التواتر والتكرار.

ونظـرا لأهمية هـذه الخاصيـة في الحديث عن حـروف المعاني سنستعرض المزيد من الأمثلة.

ـ كـان للعقد والـربط وأدواتهما (17) مصدرا منها:

«العبكـة (العقدة في الحبـل) ـ عـرس البعير (شد عنقه إلى ذراعه وهو بارك) ـ العصام (حبـل تشد به القربـة وتحمل). العقـدة ـ عقصـت المرأة شعرهـا ـ عقـل الـدابة (ربطهـا) ـــ عقـط الرجـل (شـد عمامته). عكم المتاع (شده بثـوبه) ـ عكا ذنـب الفرس (عطفـه وعقـده) ـ العـلاط (حبـل يجعـل في عنق البعير) ـــ العنـان. العكال...».

ـ وكان للفتل والدوران وتكرار الحركة (18) مصدرا، منها:

«عبل الحبل وعرقـده وعسده (فتله). عكف (طاف حول الشيء) ـــ عقى العقاب (حـام حول الشيء وارتفـع). العصابـة ـ العمامـة ـ عـاف الطير (دار حـول الشيء يريد الوقوع عليه..)

ـــ وكـان للعـوج والميـل واللي (29) مصدرا منها:

«عتش الشيء (عطفـه وأمالـه) ـ عـدل الطريق وعسق الشيء وعصفـه، وعَنَدَ عن الطريق بمعنى (مال). عصد الشيء وعفته وعفص يده وعفش العـود وعقفه بمعنى (لواها). العنكة (مـا تثنى من لحم البطن سمنا) ـ العوج...»:

على أننا لم نعثر في المصادر التي تنتهي بحرف (العين) على ما يدل على أي من هذه المعاني سوى كلمة الفدع (العوج في المفاصل). وذلك لأن صوت (العين) يلفظ هنا بلا تواتر ولا تكرار.

الضمائر المنعكسة في اللغة العربية

الدكتور محمود أحمد نحلة
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

لا يزال الدرس النحوي العربي القديم في حاجة إلى قراءة معاصرة تفيد من اتجاهات الدرس الحديث، ومناهجه، وطرائقه في رصد الظواهر اللغوية، ومعالجتها على نحو مضبوط، ويمكن الكشف بها عن ظواهر لم يعرض لها النحاة القدماء ومن صدر عن منهجهم من المحدثين، أو عرضوا لها ولكن لم يوفوها حقها من البحث الكاشف لها والمحيط بها. وليس من شك في أن أجيالا من الباحثين - وبخاصة من اتصل منهم بعلم اللغة الحديث دراسة وفهما - حاولوا، ويحاولون الآن الإفادة من جهود علماء اللغة المحدثين في أوربا وأمريكا في تجديد نظرتهم لتراثنا النحوي كله، والكشف عن كنوزه المخبوءة، وإثرائه، والإضافة إليه وإبراز عناصر القوة فيه، وإصلاح ما قد يكون فيه من جوانب النقص والقصور.

والنحاة العرب لم يعرفوا مصطلح «الضمائر المنعكسة» Reflexive Pronouns وإن عرفوا بعض ما يدخل فيه، ويندرج تحته، وعرفه نحاة بعض اللغات الأخرى، واستخدموا لما يدل عليه مصطلحا بديلا هو «الأفعال المنعكسة» (1) Reflexive Verben وهم يرون أن الضمير يكون منعكسا إذا كان مفعولا للفعل، متحدا coreferential مع الفاعل أو عائدا إليه، (2) والأفعال المنعكسة عندئذ هي الأفعال التي يكون معها الفاعل والمفعول به متطابقين أو عائدين إلى شخص واحد. (3)

وقد عرف نحاة العربية هذه الظاهرة من خلال درسهم لما أسموه «أفعال القلوب» وهي عند بعضهم سبعة أفعال: ظن، وحسب، وخال، وزعم، وعلم (إذا لم تكن بمعنى عرض)، ورأى (إذا لم ترد

رؤية العين)، ووجد (إذا لم ترد وجدان الضالة).[4] وأضاف إليها بعضهم «عدم»، و«فقد»، و«هَبْ» (بمعنى احسب)[5] وذكروا أن من خصائصها «أنك تجمع فيها بين ضميري الفاعل والمفعول فتقول: علمتُني منطلقا ووجدتَكَ فعلتَ كذا، ورآه عظيما، وقد أجرت العرب عدمت وفقدت مجراها، فقالوا عدمتُنِي وفقدتُنِي».[6] ولما كان هذا من خصائص «أفعال القلوب» فقد نصوا على أن ذلك لا يجوز في غيرها، بل يتوصل إلى التعبير عن هذا المعنى في غير أفعال القلوب بطريقة أخرى سنعرض لها.

ونود قبل الخوض في وصف هذه الظاهرة تركيبيا ودلاليا أن نعرض لما جاء عنها في كتب النحو العربي، لنقف على ما وصلوا إليه فيها، ونعرف أي مدى بلغوه في الكشف عنها والإحاطة بها:

جاء في كتاب سيبويه: «هذا باب لا تجوز فيه علامة المضمر المخاطب، ولا علامة المضمر المتكلم، ولا علامة المضمر المحدث عنه الغائب، وذلك أنه لايجوز لك أن تقول للمخاطب: اضربْكَ، ولا اقتُلْكَ، ولا ضربْتَكَ، لما كان المخاطب فاعلا وجعلت مفعوله نفسه قبح ذلك، لأنهم استغنوا بقولهم اقتُل نفْسَك وأهلكتَ نفسَك، عن الكاف ها هنا وعن إياك.

وكذلك المتكلم، لا يجوز له أن يقول أهلكتُنِي ولا أُهْلِكُني لأنه جعل نفسه مفعوله فقبح، وذلك لأنهم استغنوا بقولهم أنفع نفسي عن «ني»، وعن «إيّاي».

وكذلك الغائب لا يجوز لك أن تقول ضربه إذا كان فاعلا وكان مفعوله نفسه، لأنهم استغنوا عن الهاء وعن إيا بقولهم ظلم نفسه وأهلك نفسه، ولكنه قد يجوز ما قبح ها هنا في حسبت وظننت وخلت، وأرى وزعمت، ورأيت إذا لم تعن رؤية العين، ووجدت إذا لم ترد وجدان الضالة، وجميع حروف الشك، وذلك قولك حسبتُنِي وأراني ووجدتُنِي فعلت كذا وكذا، ورأيتُنِي لا يستقيم لي هذا. وكذلك ما أشبه هذه الأفعال، تكون حال علامات المضمرين المنصوبين فيها إذا جعلت فاعليهم أنفسهم كحالها إذا كان الفاعل غير المنصوب.

ومما يثبت علامة المضمرين المنصوبين ها هنا أنه لايحسن إدخال النفس ها هنا. لو قلت يظن نفسه فاعلة وأظن نفسي فاعلة على حد يظنه وأظنني ليجزىء هذا من ذا لم يجزىء كما أجزأ أهلكتَ نفسَكَ عن أهلكتَكَ، فاستغنى به عنه... وإذا أردت برأيت رؤية العين لم

يجز رأيتُنِي، لأنها حينئذ بمنزلة ضربت». (7)

وجاء فيه أيضا : «ولا يجوز أن تقول ضربتُنِي، ولا ضربتُ إياي، لا يجوز واحد منهما لأنهم استغنوا عن ذلك بضربتُ نفسي، وإياي ضربتُ». (8)

هذان النصان النفيسان من كتاب سيبويه تردد صداهما من بعد في كتاب النحاة الخالفين، وأضاف بعضهم إلى ما جاء فيهما تفصيلات من الأهمية بمكان، سنعرض لها إن شاء الله.

ويمكننا أن نلحظ في كلام سيبويه ما يأتي:

1 — فهم سيبويه ظاهرة «الانعكاس» كما فهمها نحاة الغرب، دون أن يضع لها مصطلحا خاصا كما فعلوا، بل جعلها جزءا من تعدية الفعل إلى المفعول، فالرجل يدرك ما حددوا به معنى «الانعكاس»، وهو أن يوقع الفاعل الفعل بنفسه، فيكون الفاعل مفعولا به، وعبارته صريحة في ذلك: «...لما كان المخاطب فاعلا، وجعلت نفسه مفعوله...»، «...لايجوز له أن يقول أهلكتُنِي ولا أُهلِكُنِي لأنه جعل نفسه مفعوله...».

2 — حدد سيبويه الضمائر التي تحمل هذا المعنى بضمائر النصب والجر المتصلة وهي ياء المتكلم وكاف المخاطب، وهاء الغائب، ثم «إيّا» مقدمة مضافا إليها ضمائر التكلم والخطاب والغيبة، واستبعد بذلك أن تحمل ضمائر الرفع هذا المعنى، ومثل هذا نجده عند نحاة الألمانية، إذ ينصون على أن الضمائر المنعكسة لاتستخدم إلا في حالتي النصب والجر، ولا يمكن أن تستخدم في حالة الرفع. (9)

3 — ذكر سيبويه أن هذه الضمائر ترد مباشرة مع بعض الأفعال، وقد ترد مسبوقة بكلمة «نفس» أو «إيّا». وواضح أن سيبويه يسوى بين قولك: ضربتُ نفسي، وإيّاي ضربتُ، ومع أن ظاهر كلامه يمنع ضربتُ إياي، فقد أورد في موضعين من كتابه شاهدا يدل على جوازه، هو قول ذي الإصبع العدواني:

كَأنَّا يَوْمَ قُرَّى إ   نَّماَ نَقْتُلُ إيَّانَا (10)

أي : نقتل أنفسنا، وفي هذا الشاهد دليل على ما لم ينص سيبويه عليه، وهو أنها مؤخرة أيضا بمعنى أنفسنا وتقوم مقامها.

4 — ما ذكره سيبويه يدل على أن الأفعال مع الضمائر المنعكسة تتصرف تصرفها مع غيرها فترد ماضية، ومضارعة، وأفعال أمر، وقريب من ذلك موجود في غير العربية أيضا كاللغة الألمانية، فإن الأفعال المنعكسة فيها تستخدم من حيث الزمن Tempus ودلالة

الصيغة Mudus استخدام الأفعال غير المنعكسة.[11]

5 — عرض سيبويه لتوزيع[12] هذه الضمائر محددا استخدامها الصحيح والمواضع التي تخرج فيها على الصحة النحوية، ويمكننا أن نوضح ذلك على النحو الآتي:

(1) أ ـ (أنا) ضربتُنِي*

ب ـ (أنت) ضربتَكَ*

ج ـ (هو) ضربَه*

(2) أ ـ (أنا) ضربتُ نفسي (إياي)

ب ـ (أنت) ضربتَ نفسك (إياك)

ج ـ (هو) ضربَ نفسه (إياه)

(3) أ ـ (أنا) ظننتُ نفسي مجتهدا*

ب ـ (أنت) ظننتَ نفسَك مجتهدا*

ج ـ (هو) ظنَّ نفسَه مجتهدا*

(4) أ ـ (أنا) ظننتُنِي مجتهدا

ب ـ (أنت) ظننتَك مجتهدا

ج ـ (هو) ظنَّهُ مجتهدا

بمقارنة هذه المجموعات يتضح أن الضمائر المتصلة التي تتحد مع الفاعل أو تعود إليه نوعان: ضمائر مسبوقة بكلمة نفس، وضمائر غير مسبوقة بها، وحيث تجوز هذه لا تجوز تلك، وهي في الحالة الثانية مفعول مباشر للفعل، وفي الحالة الأولى انتقل حكم الضمير إلى كلمة نفس، فوقعت مفعولا به، وأضيف الضمير إليها.

والأفعال التي يرد معها ضمير المفعول عائدا على ضمير الفاعل غير مسبوق بكلمة «نفس» أفعال محدودة، تكون مجموعة «مغلقة» من الأفعال حددها النحاة بعشرة أفعال، أما الأفعال التي يرد ضمير المفعول معها عائدا على ضمير الفاعل مسبوقا بكلمة «نفس» فهي مجموعة «مفتوحة» تشمل سائر الأفعال.

وإذا جاز لنا أن نعتد الأمثلة التي وردت في رقم(1) بنية باطنة عميقة Deep Structure «تحولت» في الأمثلة التي وردت في رقم(2) إلى بنية سطحية ظاهرة Sur-face Structure جاز لنا أن نعتد الأمثلة التي وردت في رقم(3) بنية باطنة «تحولت» في الأمثلة التي وردت في رقم(4) إلى بنية سطحية ظاهرة وإذا جاز أن يكون الضمير المنعكس مسبوقا بـ«نفس» أو «إيا» في رقم(2)، فإنه لايجوز أن يكون كذلك في رقم(4). ويجوز لنا بعد ذلك أن نضع قاعدتين إجباريتين «تتولد» بهما الضمائر المنعكسة، وتشملان المادة اللغوية السابقة الواردة في كتاب سيبويه:

القاعدة الأولى :

إذا كان الضمير مفعولا أول الفعل من أفعال القلوب عائدا على الفاعل كان ضميرا منعكسا.

القاعدة الثانية :

إذا كان الضمير عائدا على الفاعل في غير أفعال القلوب مسبوقا بكلمة نفس أو إيّا كان ضميرا منعكسا.

وعلى أساس من هاتين القاعدتين يمكن استبعاد أن تكون الضمائر في الأمثلة الآتية ضمائر منعكسة:

(5) أ ـ (أنا) ضربتُك.

ب ـ (أنا) ضربتُه.

(6) أ ـ (أنت) ضربتَني.

ب ـ (أنت) ضربتَه.

(7) أ ـ (هو) ضربني.

ب ـ ((هو) ضربك.

(8) أ ـ (أنا) ظننتُك...

ب ـ (أنا) ظننتُه...

(9) أ ـ (أنت) ظننتَني...

ب ـ (أنت) ظننتَه...

(10) أ ـ (هو) ظنَّني...

ب ـ (هو) ظنَّك...

كذلك لا يمكن أن «تتولد» بهما التراكيب السطحية الآتية:

(11) أ ـ (أنا) ضربتُ نفسَك*.

ب ـ (أنا) ضربتُ نفسَه*.

(12) أ ـ (أنت) ضربتَ نفسي*.

ب ـ (أنت) ضربتَ نفسه*.

(13) أ ـ (هو) ضرب نفسي*.

ب ـ (هو) ضرب نفسك*.

(14) أ ـ (أنا) ضربتُني*.

ب ـ (أنت) ضربتَك*.

ج ـ (هو) ضربَه*.

(15) أ ـ (أنا) ظننتُ نفسي*...

ب ـ (أنا) ظننتُ نفسَك*...

ج ـ (أنا) ظننتُ نفسَه*...

(16) أ ـ (أنت) ظننتَ نفسَك*...

ب ـ (أنت) ظننتَ نفسي*...

ج ـ (أنت) ظننتَ نفسَه*...

(17) أ ـ (هو) ظن نفسه*...

ب ـ (هو) ظن نفسي*...

ج ـ (هو) ظن نفسك*...

ولا يمكن بهما أيضا إنتاج جمل «نحوية» في البنية السطحية مثل:

(18) أ ـ نفسي ضربتني*.

ب ـ نفسُك ضربتك*.

ج ـ نفسُه ضربته*.

ولنشر الآن إلى ملحظ نراه ضروريا في المادة اللغوية السابقة، فقد حكمنا على (14ج): هو ضربه بأنها غير صحيحة نحويا، بناء على القاعدة الثانية على أساس أن الضارب هو المضروب كما يمكن إيضاح ذلك بالطريقة الآتية:

هو ضربه

أ أ

لكن هذه الجملة تحتمل أن يكون الضارب فيها غير المضروب، فلا يعود

فيها ضمير المفعول على ضمير الفاعل، كما يمكن إيضاح ذلك بالطريقة الآتية:

هو ضربه

أ ب

ولذلك لا بد من العودة إلى البنية الباطنة التي تحتوي على الخبر المراد، فإذا كان الضارب فيها هو المضروب انطبقت عليها القاعدة الثانية فولدت منها الجملة الصحيحة نحويا وهي: هو ضرب نفسه، وإن كان الضارب فيها غير المضروب تولدت هذه البنية: هو ضربه الصحيحة نحويا، وبهذا نعلم أن من التراكيب السطحية الظاهرة مالا يمكن الحكم عليه بالصحة النحوية أو انتفائها عنه إلا بعد العودة إلى البنية الباطنة العميقة. وهذا الأمر غير متحقق في المادة اللغوية السابقة إلا في ضمير الغائب.

ولعل من اللازم الآن أن نختبر انطباق القاعدتين اللتين وضعناهما بناء على ما ورد من أمثلة في كتاب سيبويه على مادة لغوية مستعملة في أوثق نص عربي وأجدره بالاعتماد عليه، وهو القرآن الكريم. والأمر في القاعدة الأولى هين ميسور، إذ الضمائر المنعكسة «تولد» بها مع مجموعة «مغلقة» من الأفعال محددة كما ذكرنا بعشرة أفعال، فإذا ذهبنا نلتمس لها دليلا من القرآن الكريم وجدنا أنه لم يرد من أفعال القلوب التي يعود مفعولها الأول على فاعلها غير الفعل المضارع «يرى» مضارعا مسندا إلى ضمير المتكلم، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيرِ مِنْه﴾

(يوسف 36).

وغير الفعل «رأى» ماضيا مسندا إلى ضمير الغائب كما في قوله تعالى:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾

(العلق 6، 7)

والقاعدة منطبقة عليهما، فالضمير مفعول أول لفعل من أفعال القلوب عائد على الفاعل، فهو إذن ضمير منعكس.

فإذا تتبعنا استخدام القرآن الكريم لأفعال القلوب التي وردت فيه استخداما انعكاسيا وهي: ظن، وحسب، ورأى، وعلم، تبين لنا أن القرآن الكريم يدخل في عدد من المواضع «أنَّ» على الضمير المنعكس على الفاعل، وأكثر ما يكون ذلك مع الغائب منعا للبس الذي أشرنا إليه في المثال (14ج)، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ﴾

(الحشر 2)

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾

(يونس 22)

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم قَدْ كُذِّبُوا﴾

(يوسف 110)

﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾

(الكهف 53)

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ...﴾

(البقرة 46)

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللهِ...﴾

(البقرة 249)

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾

(الأعراف 30)

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾

(الكهف 104)

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾

(المجادلة 18)

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُم قَدْ ضَلُّوا﴾

(الأعراف 149)

وظاهر أن الضمير إذا اتصل بالضمير دون أن تفصل بينهما «أنَّ» فقيل: فظنوهم، أو يحسبونهم، أو: رأوهم، أدى ذلك إلى اللبس في البنية السطحية الظاهرة فالضمير عندئذ يحتمل العودة على الفاعل فيكون ضميرا منعكسا، والعودة على غير الفاعل فيكون غير منعكس.

والقرآن الكريم يلجأ إلى ذلك أيضا إذا كان الفاعل مفصولا عن ضمير النصب المنعكِس عليه، إذ لا يمكن عندئذ اتصال الضمير بالفاعل، فوسطت «أنَّ» بينهما، كما في قوله تعالى:

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُم قَادِرُون عَلَيْها﴾

(يونس 24)

﴿أَلَا يَظُنُّ أولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُون﴾

(المطففين.4).

﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُك﴾

(الصافات 102).

وقد فصلت «إنَّ» المكسورة الهمزة بين الفاعل الظاهر والضمير المنعكس عليه في موضع واحد في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾

(الصافات 158).

وعلى أساس مما عرضناه من مادة لغوية ينبغي أن نعود إلى القاعدة الأولى التي وضعناها بناء على ما ورد في كلام سيبويه والنحاة من بعده، فنجري عليها التعديل الآتي:

﴿وَلاَ أنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾

(الأعراف 192).

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾

(الكهف 28).

﴿فَاقْتُلُوا أنفُسَكُمْ﴾

(البقرة 54).

﴿اقْتُلُوا أنفُسَكُمْ﴾

(النساء 66).

﴿أَخْرِجُوا أنفُسَكُمْ﴾

(الأنعام 93).

﴿وَلُومُوا أنفُسَكُمْ﴾

(إبراهيم 22).

وواضح أن القاعدة الثانية تنطبق انطباقا تاما على العبارات القرآنية السابقة مع تعديل طفيف فيها على النحو الآتي:

القاعدة الثانية :

إذا كان الضمير عائدا على الفاعل في غير أفعال القلوب مسبوقا بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) كان ضميرا منعكسا.

وواضح أيضا أن الضمير في النصوص السابقة لم يرد مسبوقا بـ(إيًا)، لكنه ورد في شاهد شعري أورده سيبويه هو:

كَأنَّا يَوْمَ قُرَّى إ   نَّمَا نَقْتُلُ إيَّانَا [13]

فوجب أن يضاف إلى القاعدة فتصبح:

القاعدة الثانية :

إذا كان الضمير عائدا على الفاعل في غير أفعال القلوب مسبوقا بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) أو بكلمة (إيًا) كان ضميرا منعكسا.

على أنا قد وجدنا في القرآن الكريم شاهدا بني فيه الفعل للمجهول، فلم ينعكس الضمير على الفاعل، بل انعكس على نائب الفاعل، وذلك في قوله تعالى:

﴿لاَ تُكَلَّفُ إلاَّ نَفْسَكَ﴾

(النساء 84).

من ثم وجب أن تعدل القاعدة مرة أخرى لتصبح:

القاعدة الثانية :

إذا كان الضمير عائدا على الفاعل أو نائبه في غير أفعال القلوب مسبوقا بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) أو بكلمة (إيا) كان ضميرا منعكسا.

ولما كانت كلمة (نفس) أو جمعها، وكلمة (إيًا) ترد كل منهما ملازمة للضمير المنعكس لا تنفك عنه، ولا ينفك عنها أو يذهب عن الضمير معنى الانعكاس، وتصبح الجملة التي يرد فيها «غير نحوية»، فإننا نبيح لأنفسنا أن نطلق على الضمير المسبوق بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس)، أو المسبوق بكلمة (إيًا) مصطلح «ضميمة منعكسة» ليتيسر لنا الوصف التركيبي والدلالي لها.

أولا ـ الوصف التركيبي :

أ ـ مع أفعال القلوب :

1 ـ الضمائر المنعكسة مع أفعال القلوب لا تكون إلا ضمائر تكلم أو خطاب أو غيبة في محل نصب وتنعكس على الفاعل ضميرا أو اسما ظاهرا، غير مفصولة عنه، أو مفصولة عنه بـ(أنَّ) أو (إنَّ). والنحاة يجعلون من خصائص هذه الأفعال أن ضمير الفاعل فيها يتعدى إلى ضمير المفعول، ولا يلتفتون إلى فاعلها الظاهر، ولا إلى توسط (أنَّ) أو (إنَّ) بين الفاعل والضمير المنعكس عليه، لأن شأنها في ذلك شأن سائر الأفعال غير المنعكسة المتعدية إلى مفعولين. يقول ابن السراج: «ويجوز في باب ظننت وحسبت أن يتعدى المضمر إلى المضمر».[14] ويقول الزمخشري: «ومنها (أي من خصائصها) أنك تجمع فيها بين ضميري الفاعل والمفعول فتقول: علمتُني منطلقا، ووجدتَك فعلتَ كذا، ورآه عظيما».[15] وقال ابن يعيش في شرحه لعبارة الزمخشري: «وأما أفعال القلوب التي هي ظننت وأخواتها فإنه يجوز ذلك فيها ويحسن، فيتعدى «ضمير» الفاعل فيها إلى «ضمير» المفعول الأول دون الثاني فتقول: ظننتُنِي غنيا، وحسبتَك غنيا، وذلك لأن تأثير هذه الأفعال إنما هو في المفعول الثاني، ألا ترى أنَّ الظن والعلم إنما يتعلقان بالثاني، لأن الشك وقع فيه، والأول كان معروفا عنده، فصار ذكره كاللغو فلذلك جاز أن يتعدى ضمير الأول إلى الثاني، لأن الأول كالمعدوم، والتعدي في الحقيقة إلى الثاني، وقوله: «رآه عظيما» في المثال، يريد: إذا كان المفعول الأول هو الفاعل المضمر في «رأى» فاعرفه».[16]

ويقول الرضي في شرح الكافية: هذه الأفعال المذكورة في متن الكافية، ولفظة «هَبْ» بمعنى احسب، و «رأى» الحلمية يجوز كون فاعلها ومفعولها ضميرين متصلين متحدي المعنى نحو: علمتُنِي قائما، وقال تعالى: ﴿**إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ**﴾[17] وقال السيوطي: لا يجوز أن يكون الفاعل والمفعول ضميرين متصلين لشيء واحد في فعل من الأفعال إلا في ظننت وأخواتها، وفي فقدت وعدمت. قاله البهاء النحاس في تعليقه على المقرب».[18]

2 ـ جوز بعض النحاة ورود الفاعل مع هذه الأفعال اسما ظاهرا نحو: ظنه زيد قائما، فإذا كان الفاعل ضميرا مستترا يعود على المفعول الظاهر لم يجز نحو: زيدا ظن منطلقا[19] وقال الرضي: «والقياس جواز : ظن زيدٌ زيداً قائما، أي نفسه».[20]

والأصوليون من النحاة على أنه إن

وجب القياس لشيء حكما، وجاز أن يأتي السماع بضده فالرأي الأخذ بالقياس حتى يرد ما يبين ذلك.[21]

3 ــ يمكن أن يحل اسم آخر محل الضمير المنعكس، من ثم فالضمير المنعكس عنصر من العناصر المكملة للجملة، على أن هذا العنصر مطلوب من الفعل على وجه اللزوم، فلا يجوز حذفه. يقول ابن السراج: «...وإنما حقه أن يتعدى فعل المظهر إلى المضمر، وتكون أيضا قد جعلت المفعول الذي هو فضلة في الكلام لابد منه وإلا بطل الكلام.[22]

ولا يقتصر استعمال أفعال القلوب على الضمائر المنعكسة، بل كما تستعمل هذه الأفعال منعكسة تستعمل غير منعكسة فنقول مثلا: ظننت زيدا قائما، أو: ظننتُك قائما، أو: ظن زيدٌ عمرا قائما.

4 ـ لا يمكن أن ينعكس الضمير مع أفعال القلوب على «نائب الفاعل»، ولا أن تبنى هذه الأفعال للمجهول إذا اتصل بها ضمير منعكس، مع أنها أفعال متعدية إلى مفعولين، ومن ثم نعدها حالة خاصة من حالات التعدي، وتتفق هذه الأفعال من هذه الناحية مع الأفعال المنعكسة في اللغة الألمانية.[23]

5 ـ يطابق الضمير المنعكس مع هذه الأفعال الفاعل في النوع والعدد.

6 ـ يجوز أن يتقدم الضمير المنعكس مع هذه الأفعال على الفاعل، كما اتضح ذلك في المثال الذي أورده الرضي، وهو: ظنه زيدٌ قائما،[24] فقد تقدم الضمير المنعكس، وفصل الفاعل بين المفعولين.

ب ـ مع غير أفعال القلوب :

1 ــ الضمائر المنعكسة مع هذه الأفعال ضمائر تكلم وخطاب وغيبة، مسبوقة بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس)، أو بكلمة (إيّا). ويرى رَايْتْ أن الضمير قد يرد مسبوقا بكلمة نفس، أو عين، أو وجه، (وفي العربية المتأخرة: روح، ذات، حال) مثل قتل نفسه، عزّ به نفسك، اهلكتُ روحي، **أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّه**.[25] وقد رأينا أن نطلق على الضمير المنعكس المسبوق بكلمة نفس أو ما يشبهها مصطلح «ضميمة منعكسة».[26]

2 ـ ترد الضميمة المنعكسة في القرآن الكريم في موقع المفعول به لفعل ماض، أو مضارع، أو أمر كما ظهر في الشواهد القرآنية التي ذكرناها. وقد ترد مفعولا ثانيا لفعل متعد إلى مفعولين من غير أفعال القلوب، وفي هذه الحالة يفصل الفاعل بين المفعولين كما في قوله تعالى:

﴿ويـحذركُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾

(آل عمران 28)

وترد مفعولا به للمصدر كما في قوله تعالى:

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أنفُسَكُمْ﴾

(الروم 28).

وقوله عز وعلا :

﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أنفُسَكُمْ﴾

(غافر 10).

وترد مفعولا به لاسم الفاعل كما في قوله جل وعز:

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىَ آثَارِهِمْ﴾

(الكهف 6)

وترد مفعولا به لاسم الفعل كما في قوله جل وعز:

﴿عَلَيْكُمْ أنفُسَكُمْ﴾

(المائدة 105).

وترد الضميمة المنعكسة في موقع المجرور بحرف جر أصلي كما نجد ذلك في الشواهد القرآنية الآتية:

﴿إلاَّ مَا حَرَّمَ إسْرَائِيلُ عَلَىَ نَفْسِهِ﴾

(آل عمران 93).

﴿كَتَبَ عَلَىَ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾

(الأنعام 12).

﴿فَأسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾

(يوسف 77).

﴿فَأوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾

(طه 67).

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه 41).

﴿أوْ أكْنَنتُمْ فِي أنفُسِكُمْ﴾

(البقرة 235).

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأنفُسِكُمْ﴾

(التوبة 35)

﴿إنْ أحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأنفُسِكُمْ﴾

(الإسراء 7).

﴿شَهِدْنَا عَلَىَ أنفُسِنَا﴾

(الأنعام 130).

﴿أسَرُّوا فِي أنفُسِهِمْ﴾

(المائدة 52).

﴿كَذَبُوا عَلَىَ أنفُسِهِمْ﴾

(الأنعام 24).

﴿وَشَهِدُوا عَلَىَ أنفُسِهِمْ﴾

(الأنعام 130).

﴿فَرَجَعُوا إلَىَ أنفُسِهِمْ﴾

(الأنبياء 64).

﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أنفُسِهِمْ﴾

(الفرقان 21).

﴿أسْرَفُوا عَلَىَ أنفُسِهِمْ﴾

(الزمر 53).

﴿فَعَلْنَ فِي أنفُسِهِنَّ﴾

(البقرة 240).

﴿فَإنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىَ نَفْسِهِ﴾

(النساء 111).

﴿وَلاَ يَرْغَبُوا بِأنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾

(التوبة 120).

﴿فَمَن اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾

(يونس 108)

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾

(النمل 40).

﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾

(العنكبوت 6).

﴿وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾

(فاطر 18).

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾

(محمد 38).

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾

(الفتح 10).

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾

(النحل 111).

﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَراً﴾

(الأعراف 188).

﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾

(يوسف 54).

﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾

(سبأ 50).

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ﴾

(البقرة 110)

﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾

(آل عمران 154).

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً﴾

(النساء 65).

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(الأنعام 123).

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾

(الروم 8).

﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾

(الروم 44).

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾

(المجادلة 8).

﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾

(البقرة 234).

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾

(البقرة 223).

﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾

(آل عمران 168).

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾

(القيامة 14).

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾

(الأنعام 104).

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾

(فصلت 46).

وترد الضميمة المنعكسة مع اسم الفاعل دون فاصل مجرورة بحرف جر أصلي كما في قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾

(الكهف 35).

﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾

(التوبة 17).

وترد مفصولة بـ(ولو)، كما في قوله جلَّ شأنه:

﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾

(النساء 135).

وظاهر أن الضميمة المنعكسة المجرورة بحرف جر أصلي غير محفوظة الرتبة، كما هو شأنها إذا كانت غير منعكسة، فهي ترد بعد الفاعل، وبعد المفعول، ومقدمة على المفعول، ومقدمة على الخبر، ومقدمة على الفعل والفاعل، ومحصورة بـ(إلَّا) وخبرا لمبتدإ محذوف.

وترد الضميمة المنعكسة في موقع الجر بالإضافة إلى المصدر كما في قوله جل شأنه:

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾

(الحشر 9).

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾

(يونس 15).

﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ (الكهف 51).

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾

(الأنبياء 43).

وترد في موقع المجرور بحرف جر زائد في محل رفع فاعلا، كما في قوله تعالى:

﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

(الإسراء 14).

3 ــ تعود الضميمة المنعكسة على ضمير بارز متصل، أو على ضمير مستتر، أو على اسم ظاهر كما ظهر في الشواهد السابقة.

4 ـ تطابق الضميمة المنعكسة ما تعود إليه في النوع والعدد.

5 ـ من الممكن أن يحل محل الضميمة المنعكسة عنصر لغوي آخر، وليس في اللغة العربية أفعال لا تستخدم إلا منعكسة، على نحو ما نجد ذلك مستخدما في اللغة الألمانية.(27)

6 ـ يجوز أن تبنى الأفعال للمجهول مع الضميمة المنعكسة، على ألا تكون الضميمة المنعكسة نائب فاعل، بل يظل لها موقع النصب، كما في قوله تعالى:

﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ (النساء 84).

7 ــ تستخدم الأفعال المنعكسة من حيث دلالة الصيغة والزمن استخدام الأفعال غير المنعكسة.

8 ــ يجوز أن ينحصر الضمير المنعكس عليه، أي: ضمير الفاعل، بـ(إلا) فينفصل، ولا تصبح هناك حاجة إلى كلمة «نفس» كما في قولك: ما ضربك إلا أنت وقد أجازه النحاة.[28]

9 ـ يجوز أن ترد الضميمة المنعكسة معطوفة على ضميمة غير منعكسة، كما في قوله تعالى:

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأنفُسَكُمْ﴾

(آل عمران 61).

10 ــ ترد الضميمة المنعكسة عائدة على المفعول به، كما في قوله تعالى:

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾

(الأعراف 172).

إذ المفعول به هنا فاعل في المعنى، فالمعنى ـ والله أعلم ـ: جعلهم يشهدون على أنفسهم، بدليل قولهم في الإجابة عن السؤال الذي وجه إليهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ (الأعراف 172)، قال الزمخشري: «أي: على أنفسنا»[29] ومثل ذلك قوله تعالى:

﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾

(الحشر 19)

11 ــ قد ترد الضميمة المنعكسة مقلوبة، أي: آخذة موقع ما تعود عليه، تحقيقا لغرض بلاغي، كما في قوله تعالى:

﴿سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (طه 96) بدل: سولت لنفسي.

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُم أَمْرًا﴾ (يوسف 18) بدل : سولتم لأنفسكم أمرا

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ (آل عمران 154) بدل: أهموا أنفسهم.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ (المائدة 80) بدل : قدموا لأنفسهم.

12 ـ قد تقوم(ال) متصلة بـ(نفس) بوظيفة الضمير المنعكس كما في قوله تعالى:

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾

(النازعات 40).

أي : نفسه.[30]

والآن بعد أن تم لنا الوصف التركيبي للضميمة المنعكسة يجدر بنا أن نعود إلى القاعدة الثانية التي وضعناها فنجري عليها التعديل الأخير، حتى يمكن أن «تولد» بها كل الجمل الصحيحة التي ذكرناها، وتكون صالحة لتوليد غيرها من الجمل الصحيحة.

القاعدة الثانية :

الضميمة الاسمية التي تطابق ضميمة اسمية أخرى سابقة عليها في جملة واحدة هي ضميمة منعكسة.

ولما كانت هذه القاعدة تشمل الآن

القاعدة الأولى، وتغني عنها، فإننا نختصر القاعدتين في قاعدة واحدة إجبارية هي:

القاعدة : (إجبارية)

الضميمة الاسمية التي تطابق ضميمة اسمية أخرى سابقة عليها في جملة واحدة هي ضميمة منعكسة.

ثانيا ـ الوصف الدلالي :

1 ـــ تتحقق العلاقة الانعكاسية في الأمثلة والشواهد السابقة بين عنصرين لغويين أحدهما منعكس والآخر منعكَسٌ عليه، والمنعكَسُ عليه فيما أوردناه من أمثلة وشواهد يتسم بسمتين مميزتين Distinctive Features هما: [+حي]، [+بشري].

2 ـــ وردت العلاقة الانعكاسية في الأمثلة والشواهد السابقة تامة، لكن الرضي في شرح الكافية أشار إلى جواز أن تكون علاقة الانعكاس جزئية، فقد أورد المثال الآتي: رأيتُنَا مع رسول الله ﷺ، أي: رأيتُنِي ومن معي، وأورد أيضا قولهم: رأيتُماكَ تقول كذا،(31) فالضمير المنعكس هنا يعود على بعض المنعكس عليه.

3 ـــ يجوز أن تكون العلاقة الانعكاسية تبادلية Reciprocal يصير فيها فعل الانعكاس متبادلا بين الفاعلين، وذلك في نحو قوله تعالى:

﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾

(النور 61).

وأكثر ما يكون ذلك إذا كان الفاعل جمعا.

4 ـ لا تتحقق العلاقة الانعكاسية ـ في غير أفعال القلوب ـ إلاَّ من خلال حدث يمكن أن ينعكس على الفاعل أو يعود عليه، فإذا لم يكن الحدث صالحا للانعكاس لم يصح استخدام الضميمة المنعكسة معه، ويتضح ذلك من الأمثلة الآتية:

■ أ ـ أتممت العمل

ب ـ أتممت نفسي*

■ أ ـ تسلمت الجائزة

ب ـ تسلمت نفسي*

■ أ ـ ذقت الطعام

ب ـ ذقت نفسي*

■ أ ـ قطفت الثمار

ب ـ قطفت نفسي*

.... الخ

5 ـــ يتحقق معنى الانعكاس دون ضميمة منعكسة ببعض صيغ الأفعال المزيدة التي تعبر عن معنى أفعال مجردة أو مزيدة مستخدمة مع ضميمة منعكسة، ومن ذلك صيغة (افتعل)، كما يتضح ذلك فيما يأتي:

ـ المرأة غسلت ثيابها

المرأة غسلت المرأة* (إذا كانت المرأة في الموضعين شخصا واحدا).

المرأة غسلت نفسها

المرأة اغتسلت

وقد عرض بروكلمَن لبعض ذلك، فذكر أن صيغة (تفعَّل) صيغة انعكاسية لـ(فعَّل) مثل: تكبَّر (=كبَّر نفسه) Sich Gross Machen، ومثل تنبأ (=ادعى النبوة لنفسه) Sich als Propheten Stellen، وذكر أن صيغة (تفاعل) صيغة انعكاسية لـ(فاعل) مثل: تقاتل (= قاتلوا أنفسهم) Sich Gegenseitig Bekäpfen، وقال: نادرا ما تحمل صيغة (تَفَاعَلَ) معنى الادعاء مثل: تناوم (= ادعى النوم لنفسه) Sich Schlafend Stellen، كما ذكر أن كلا من صيغة (انفعل) مثل: انهزم، و(افتعل) مثل: اكتسب صيغة انعكاسية لـ(فَعَلَ)، وأن صيغة (استفعل) صيغة انعكاسية لـ(أفعل) مثل: استوحش Sich Betrüben، ثم قال: ومن الشائع أن تدل هذه الصيغة على رغبة شخص في تحقيق شيء لنفسه، مثل: استغفر.[32]

على أن لهذه الصيغ معاني أخر تجدها مبسوطة في كتب الصرف، وقد أفرد لها أحد الباحثين كتابا.[33]

وقد تتبعت ما ذكره الرضي في شرح الشافية من معاني هذه الصيغ مما قد يدل على الانعكاس، فلم أجده أثبت لـ(انفعل) المعنى الذي ذكره بروكلمن لها، لكنه قال في (تَفَاعَل): تغافلت: أظهرت من نفسي الغفلة، وأثبت لـ(تفعَّل) معنى التكلف، وهو حمل النفس على أمر فيه مشقة، مثل: تحلَّم، وتمرَّأ، أي: تكلف الحلم والمروءة، وقال في: (افتعل): والظاهر أنه لاتخاذك الشيء أصله لنفسك، فاشتوى اللحم أي: عمل شواء لنفسه، وامتطاه: جعله لنفسه مطية، وكذا: اغتذى، وارتشى، واعتاد، وقال في (استفعل): استعجلت زيدا أي: طلبت عجلته، فإذا كان بمعنى عجلت، فكأنه طلب العجلة من نفسه.[34]

ثم قال بعد أن سرد معاني الصيغ: «واعلم أن المعاني المذكورة للأبواب المتقدمة هي الغالبة فيها، وما يمكن ضبطه، وقد يجيء كل واحد منها لمعان أخر كثيرة لا تضبط، كما تكررت الإشارة إليه.[35]

6 ـــ ينبغي ألا تلتبس الضميمة المنعكسة (نفسه) وأخواتها بالضميمة المؤكدة التي تتفق معها لفظا وتختلف معنى، فهي في الأولى عنصر إجباري دال على انعكاس الحدث على الفاعل، ولا يمكن حذفه دون أن تختل الجملة تركيبا ودلالة، وهي في الثانية عنصر اختياري

يؤكد اسما في الجملة برفع الاحتمال عنه، وحذفه لا يخل بتركيب الجملة، ولا بمعناها الأصلي، إذا استغنينا عن المعنى الإضافي الذي يفيده التوكيد.

وأريد أن ألفت في ختام هذا البحث إلى أن بعض الشعراء المعاصرين أخذوا يستخدمون الضميمة المنعكسة استخداما يخرج بها عن القاعدة، لا جهلا منهم بها، بل اجتراء عليها، ومن هؤلاء الشاعر محمد أبو دومة، فقال في بعض قصائده:

ـ لكني لم أعبأ بي
لم أتريث
واصلت لعلي أغفر لي إثمي.[36]

وقال في موضع آخر :

ـ بغيبته أسافر فيه، أدخله لأعرفني
وأومن بي.[37]

وبعد، فهذا هو الوصف التركيبي والدلالي للضمائر المنعكسة، وما تتصل به من أفعال تسمى أفعالا منعكسة أيضا، عرضت له من خلال المادة اللغوية الواردة في القرآن الكريم، وما ورد في كتب النحو العربي التراثي، وأفدت فيه من مناهج الدرس اللغوي الحديث والمعاصر عند الغربيين، ومن نحاة بعض اللغات الأخرى في رصدهم لهذه الظاهرة في لغتهم، ومن نظرات بعض المستشرقين. ولعلي أكون بهذا البحث قد جلوت غامضا، أو استدركت فائتا، أو أضفت جديدا.

الهوامش

(1) Grebe, P.: Grammatik der deutschen Gegenwartssprache, Duden 4 (Mannheim1973), S. 75

(2) Perlmutter, D. & Soames, S.: Syntactic Argumentation and the Structure of English (U.S.A. 1979) p.9

(3) Helbig, G. & Buscha, J. : Deutsch Grammatik (Leipzig 1980)[3] S. 65

(4) سيبويه : الكتاب. تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة 1966 ـ 1967) 2/367، الزمخشري: المفصل في علم العربية (بيروت د.ت) ص 259.

(5) الزمخشري : المفصل ص 262، الرضي: شرح الكافية لابن الحاجب (القاهرة 1310هـ) 2/285.

(6) الزمخشري : المفصل ص 262.

(7) سيبويه : الكتاب 2/366ـ368.

(8) السابق 2/366.

(9) Grebe, P. : Grammatik der deutschen Gegenwartssprache , Duden 4 S. 276

(10) سيبويه : الكتاب 2/111، 362، والرضي: شرح الكافية 2/14.

الاشتقاق وتنمية الألفاظ

د. حامد صادق قنيبي
أستاذ مساعد في قسم الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

توطئة :

● تمتاز اللغة العربية عن غيرها من اللغات بأنها لغة تتولد ألفاظها بعضها من بعض عن طريق الاشتقاق، وهذا قد أكسبها قدرة للتعبير عن الأفكار المجردة والمسميات الحسية، كما طبعها بمرونة أقدرتها على استيعاب التطورات الحضارية عبر التاريخ الإنساني. يقول الأمير مصطفى الشهابي: إن الطرائق التي اتبعت في إيجاد المصطلحات العلمية في عهود الازدهار من تاريخنا السابق، كانت:

أ ـ تحوير المعنى اللغوي القديم للكلمة العربية، وتضمينها المعنى العلمي الجديد.

ب ـ اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية، أو معربة للدلالة على المعنى الجديد.

ج ـ ترجمة كلمات أعجمية بمعانيها.

د ـ تعريب كلمات أعجمية وعدها صحيحة.(1)

وهو يرى أن هذه الطرائق مازالت صالحة حتى يوم الناس هذا. وإذا أخذ بهذا النهج في التوسع بالاشتقاق والتعريب استطاعت اللغة أن تنمو، وأن تواجه هذا السيل المتدفق من المصطلحات في هذا العصر الذي يسمى بحق عصر التفجر المعرفي والعلمي. ولا يخفى أن الآمال معقودة على أن تغدو اللغة العربية لغة المجتمع، ولغة العلم والتعليم، ولغة التشريع والقضاء، والإدارة، والاقتصاد، والصناعة والتجارة.

● إن التوافق بين الحياة واللغة شرط ديمومتها. والاشتقاق هو من أهم خصائص اللغة العربية، إذ أنها لغة توالدية لا إلصاقية، تتكاثر من داخلها، وتنتظم ألفاظها في مجموعات تشبه

الأسر، وهي تطبع عقلية أصحابها بالطابع المنطقي، يقول محمد المبارك [2]: «يمكننا أن نقول إن الألفاظ العربية كالعرب أنفسهم تتجمع في قبائل وأسر معروفة الأنساب وتحمل هذه الألفاظ دوما دليل معناها وأصلها وميسم نسبها وذلك في الحروف الثلاثة الأصلية التي تدور مع ما يتولد عنها ويشتق منها من ألفاظ وتختلف مفردات هذه المجموعات أو أسر الألفاظ كثرة وقلة فهي كالقبائل منها المنجب والعقيم والمكثر والمقل. إن الألفاظ العربية تكثر ويتوالد بعضها من بعض باستمرار وتؤدي بهذه الطريقة الحية وظيفتها في الحياة، إذ تقابل كل مولود جديد حسيا كان أم معنويا بمولود جديد مثله من اللفظ من الأصول الموجودة والأرومات القائمة».

● والصلة بين الاشتقاق والقياس وثيقة، لأن الاشتقاق هو عملية استخراج لفظ من لفظ أو صيغة من أخرى، أما القياس فهو الأساس الذي تبنى عليه هذه العملية لكي يصبح المشتق مقبولا معترفا به بين علماء اللغة، فالقياس هو النظرية والاشتقاق هو العلم التطبيقي لتوليد الصيغ.[3]

● و (الاشتقاق) قضية شغلت العلماء قديما وحديثا، ولسنا بصدد إعادة تفصيلاتها واجتهادات أصحابها. وسنعمد إلى الاختصار في السرد التاريخي والنظري رغبة في التوسع في بيان الصلة بين الاشتقاق وصوغ المصطلحات الحديثة، فنقول:

أولا: تعريفه وأنواعه :

تعددت تعريفات العلماء للاشتقاق، وهذه أشهرها:

قال أبو البقاء الكفوي (ت 616هـ) صاحب الكليات (1/179): «الاشتقاق: رد كلمة إلى أخرى لتناسبهما في اللفظ والمعنى. وهو أصل خواص كلام العرب، فإنهم أطبقوا على أن التفرقة بين اللفظ العربي والعجمي بصحة الاشتقاق».

● وروى السيوطي عن شرح التسهيل (المزهر 1/346) أنه: «أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى، ومادة أصلية، وهيئة تركيب لها..».

● وعرفه عبد الله أمين (مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مجلد 1 / 381): «أخذ كلمة من كلمة أو أكثر، مع تناسب بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ والمعنى».

● وعرفه فؤاد حنا ترزي (الاشتقاق، ص: 19): «هو أخذ لفظ من آخر آصل منه يشترك معه في الأحرف الأصول وترتيبها. ومن البديهي أن يؤدي مثل

هذا الاشتراك اللفظي إلى اشتراك معنوي بين اللفظين يقرر نوعه صيغةُ اللفظ المشتق».

● وعرفه عبد الصبور شاهين (اللغة العربية لغة العلوم والتقنية، ص 260): «هو صوغ كلمة فرعية من كلمة أصلية على أساس قياس مطرد، كاشتقاق الصفات وأسماء الزمان والمكان ونحوها» وأضاف: وبناء على هذا التعريف يصبح المصدر، والفعل الماضي ـ كلاهما صورة اشتقاقية كسائر المشتقات، لا أصلا اشتقاقيا، كما ذهب إليه القدماء، على خلاف بين البصريين والكوفيين.

ولا نريد أن نتعجل في الكشف عن سبب تعدد هذه التعريفات، ولكننا نشير إلى أن هذا التعدد يمكن فهمه في ضوء اتفاق العلماء على آلية الاشتقاق من ناحية واختلافهم في أصله وأنواعه من ناحية أخرى،[4] وهذا ما تكشف عنه الفقرات التالية. ولكننا ابتداء نوضح أننا عندما نتكلم عن نمو اللغة بطريقة الاشتقاق إنما ينصرف الذهن إلى ذلك النوع من الاشتقاق العام المسمى (الاشتقاق الصغير)، وهذا النوع الذي مازال فعّالا تماما بعد مرحلة تكوين اللغة العربية.

وأنواع الاشتقاق كانت هي الأخرى موضوع اختلاف، فابن جني جعل الاشتقاق في نوعين: صغير أو أصغر، وكبير أو أكبر. وسمى كلا منهما تسميتين. وعنى بالأول: ما ينحصر في المادة الواحدة التي تحتفظ بترتيب حروفها، كتركيب (س ل م) وما يشتق منه نحو: سلم يسلم، سالم، وسلمان، وسلمى، والسلامة، والسليم. وعنى بالثاني: «أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا، تجتمع التراكيب الستة، وما يتصرف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد شيء من ذلك رد بلطف الصنعة والتأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد... نحو (ك ل م)»[5] وتقاليبها الست الوضعية، وكلها دال على القوة والشدة. و (ق و ل) للإسراع والخفة و (ج ب ر) للقوة والشدة.

وعبد الله أمين جعل الاشتقاق في أربعة أنواع أسماها: الصغير، والكبير، والكُبَار، والكُبّار. وفي كتابه (الاشتقاق) أراد أن يؤكد أن الاشتقاق ممكن في كل مقولات اللغة.[6]

وأغلب الدارسين يرون حصر الاشتقاق في أنواع ثلاثة،[7] هي:

1 ــ الاشتقاق الصغير، أو الأصغر: ويتلخص في انتزاع كلمة أخرى بتغيير في الصيغة وتشابه في المعنى واتفاق في

الأحرف الأصلية وترتيبها، وهذا النوع هو الوحيد الذي ظل فعالا تماما بعد مرحلة تكون اللغة العربية. فكلمتا (عالم، ومعلوم) من (العلم). وأفراد هذا الاشتقاق عشرة: الفعل الماضي، والفعل المضارع، وفعل الأمر، واسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة باسم الفاعل، واسم التفضيل، واسم الزمان، واسم المكان، واسم الآلة.

2 ـ الاشتقاق الكبير (القلب الموضعي): وهو الذي سبق بيانه عند ابن جني (النوع الثاني). وفائدة هذا النوع أنه وسيلة لحصر الكلمات المستعملة والمهملة في اللغة، وعليه عوّل الخليل بن أحمد في وضع معجم (العين).

3 ـ الاشتقاق الأكبر (الإبدال): وهو أن يكون بين الكلمتين تناسب في المعنى واتفاق في الأحرف الثابتة وتناسب في مخرج الأحرف المغيرة، مثل: (ثلم وثلب) و (قضم وخضم) و (قطع وقطف) و (نهق ونعق) و (هتم وهطل) و (عنوان وعلوان).

ولاشك أن الاهتمام منصب على النوع الأول من الاشتقاق (الصغير)، وهو بالحق وسيلة رائعة في توسع اللغة، ولما كان مطرد القياس فقد جوز المجمع استخدامه دون اشتراط عنصري الزمان والسماع.(8) وهو كذلك يضم وسيلتين أخريين من وسائل التنمية اللفظية هما النحت والتعريب، إذ إنه يتناول نتاج التعريب والنحت أيضا ويولد كلمات جديدة منهما. فعندما نعرب اللفظة الأعجمية بتحويرها لمتطلبات النطق العربي نشتق منها أفعالا ومصادر وصفات. فمن ذلك كلمة (تلفون) قلنا: تلفن يتلفن تلفنة. ومن (مهندس) قلنا: هندس يهندس هندسة وهندسي. ومن (تلفزيون) قلنا: تلفز يتلفز تلفاز تلفزي.. إلخ.

ثانيا : الدراسات التي تناولت علم الاشتقاق :

ألف في الاشتقاق جمهرة من العلماء المتقدمين، ذكر السيوطي معظمهم في المزهر (351/1) فقال: «أفرد الاشتقاق بالتأليف جماعة من المتقدمين: منهم قطرب (ت 206هـ)، والأصمعي (ت 215هـ)، وأبو الحسن الأخفش (ت 221هـ)، وأبو نصر الباهلي (ت 231هـ)، والمفضل بن سلمة (ت 250هـ)، والمبرد (ت 385هـ)، والزجاج (ت311هـ)، وابن السّراج (ت316هـ)، وابن دريد (ت 321هـ)، وأبو جعفر النحاس (ت 338هـ)، وابن خالويه (ت 370هـ)،

والرماني (ت 384هـ) ـــ له الاشتقاق الكبير والاشتقاق المستخرج. ويوسف الزجاجي الجرجاني (ت415هـ)، وأبو عبيد البكري (ت 487هـ). وجمال الدين الشربيني الأندلسي (ت 685هـ)، وعلي الخوارزمي حجة الأفاضل (ت 676هـ).

ولم يطبع من هذه الكتب سوى كتاب (ابن دريد، أبو بكر بن الحسن) وقد حققه الأستاذ عبد السلام محمد هارون ونشره 1958م. و(لإبن السراج، أبو بكر محمد بن السرى ت 316هـ): رسالة الاشتقاق، تحقيق محمد الدرويش، وقد تمّ نشرها في دمشق عام 1973م. على أن الكتب الأمهات لم تخل من بحوث مهمة في الاشتقاق كالخصائص لابن جني (ت392هـ)، ومقاييس اللغة لابن فارس (ت395هـ)، والمزهر للسيوطي (ت911هـ).

ومن كتب الاشتقاق المحدثة :

1 ـ العلم الخفاق من علم الاشتقاق، للسيد محمد صديق خان بهادر (ت1307هـ)، وقد طبع في استانبول، مطبعة الجوائب سنة 1296هـ.

2 ـــ الاشتقاق والتعريب، لعضو المجامع اللغوية عبد القادر بن مصطفى المغربي (ت 1955م). وقد بحث فيه ما يعرض للغة العربية من تكاثر كلماتها من طريق الاشتقاق والتعريب. وقد طبع الكتاب طبعة ثانية 1947م، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

3 ـــ كتاب الاشتقاق لعضو المجمع القاهري عبد الله أمين. وقد اعتمد المجمع تعريفه للاشتقاق الذي أكد فيه أن الاشتقاق ممكن في كل مقولات اللغة العربية.

وقد طبع الكتاب بالقاهرة 1956م: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

وفي مقدمة الكتاب حدد عبد الله أمين المقصود بعلم الاشتقاق بأنه: «...شيء آخر غير علمي النحو والصرف. إنه علم يزيد اللغة العربية ثروة وغنى، ويجعلها قادرة دائما على التجدد، والتقدم، ومسايرة ارتفاع شأن الحياة، وارتقاء الحضارة. إنه العلم الذي تعرف به أصول الكلمات، وفروعها، والعلاقات بينها، وطرق صوغ بعضها من بعض، ففيه من المباحث الجديدة برفعة اللغة وتقدمها،

1. اشتقاق أفعال حديثة من أسماء الأعيان التي لاتحصى والتي تزداد كل يوم بالنحت، أو بالتعريب، أو بالوضع، ومن هذه الأفعال يمكن اشتقاق جميع المشتقات.

2. ونحت أسماء، وأفعال حديثة لمسميات حديثة، ثم تصريف هذه الأسماء، والأفعال بوجوه الاشتقاق الجائزة في نظائرها من الألفاظ الأصلية.

3. والانتفاع بما في وجوه القلب، والإبدال من ألفاظ مختلفة التراكيب، متقاربة المعاني». [9]

4 ـ الاشتقاق، لفؤاد حنا ترزي، وهو أحدث الكتب في بابه من منشورات كلية العلوم والآداب في جامعة بيروت الأميريكية، طبع دار الكتب. بيروت سنة 1968م. وفي مقدمة الكتاب يصرح المؤلف بالسبب الذي دعاه لوضع الكتاب، فيقول: «... ويكفي أن يعلم أن المتتبع لمفهوم الاشتقاق في كتب اللغة لا يقع على اتفاق تام على تحديده. ولا على المجال الذي يدور فيه. فبينما يضيق هذا المفهوم عند بعضهم بحيث لا يشمل إلا الألفاظ المشتركة في اللفظ والمعنى وترتيب الحروف. إذا به يتسع عند نفر منهم فيشمل الألفاظ المشتركة في المعنى دونما تقيّد تام بالحروف وترتيبها.

وبعبارة أخرى، بينما يتقيّد بعضهم بمفهومه الحقيقي الأصيل، يرى بعضهم أن يضمنه القلب والإبدال والنحت». [10]

وقلما نجد كتابا من كتب اللغة إلا ويفرد جزءا منه للاشتقاق، وانظر إن شئت في كتب: علي عبد الواحد وافي، وإبراهيم أنيس، ومحمد المبارك، وصبحي الصالح، وتمّام حسان، ورمضان عبد التواب، وعبد الصبور شاهين، وأنيس فريحة، وإبراهيم السامرائي.. وغيرهم. هذا فضلا على أنه كان من أول ما أولاه رجال المجامع اللغوية اهتمامهم.

ثالثا ـ أصل الاشتقاق :

لقد خصص جزء كبير في درس الاشتقاق لفض الخلاف بين البصريين والكوفيين في الأصل الذي يشتق منه: أهو المصدر كما يرى البصريون، أم الفعل كما يرى الكوفيون؟ ولقد راح كل فريق يستدل على رأيه بأدلة متعددة.

والأغرب في أدبيات هذه المسألة أن نشهد من راح يضيق موضوع الاشتقاق، فهذا ابن حزم (ت456هـ) يرى: «أن الاشتقاق كله باطل، حاشا أسماء الفاعلين من أفعالهم فقط، وأسماء الموصوفين المأخوذة من صفاتهم الجسمانية والنفسانية» وسخر من هؤلاء الذين توسعوا في الاشتقاق، فعلق على قول الزجاجي (ت337هـ) في نوادره: «العشقة: نبت يخضر، ثم يصفر، ثم يهيج، ومنه

سمي العاشق عاشقا» بقوله: «أو ما علم هذا الرجل أن كل نبت في الأرض فهذه صفته، فهلا يسمى العاشق (باقلا) مشتقا من البقل الذي يخضر، ثم يصفر، ثم يهيج.. الخ.[11]

يقول الدكتور إبراهيم مدكور:[12] «وأغلب الظن أنه ــ أي أصل الاشتقاق ـ خلاف نظري لا طائل تحته. وكم وضعت للاشتقاق من قيود تضيق آفاقه، وتحدد ما يُشتق وما لا يُشتق. وكان هم المجمع أن ييسر من أمره ويفك بعض قيوده، ويشتق مما لا يُشتق منه، ويجعله أداة طيعة في أيدي الأدباء والعلماء وتمكنهم من أن يجدوا الكلمات الملائمة لأداء ما يعنّ لهم من معان، وكلما نجحوا في الاشتقاق استغنوا عن العامي والأعجمي. ولم يحرص المجمع على أن يكون بصريا أو كوفيا بقدر ما حرص على أن يواجه حاجات العصر ويحاول سدها».

والواقع أن استقراء واقع الأمر يقرر ما ذهب إليه الدكتور مدكور من أن خلافهم كان من قبيل الجدل الذي لا يجدي، وأنه كان حجاجا دائريا، ولا يمكن الخروج منه بترجيح رأي على آخر ـ لقد توسع العرب في الاشتقاق إلى درجة أنهم اشتقوا من المشتقات نفسها. فاشتقوا من اسم الفاعل وقالوا فاعلية، واسم المفعول وقالوا المسئولية. والصفة المشبهة فقالوا تمسكن. والمصدر العام فقالوا الإسلامية. والمصدر الميمي فقالوا تمذهب.. على نحو ما سبق بيانه فيما تقدم في بحث (القياس).

رابعا ـ الاشتقاق في ضوء قرارات المجامع العربية والاستعمالات الرائجة:

تضمن العدد الأول من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (1935م) مجموعة قراراته العلمية (ص ص 33 ـ 37)، وفي نفس العدد كتب الشيخ أحمد الأسكندري، عضو المجمع بحثا جعله (الغرض من قرارات المجمع، والاحتجاج لها) وقع في الصفحات (177ــ 268)، وللقياس والاشتقاق[13] النصيب الأوفى من هذه القرارات. والمجمع يهدف إلى تيسير قواعد الاشتقاق لتتخطى العربية كثيرا من العقبات التي تعترض سبيل المتكلمين والكتاب بخاصة فيما يتصل بالخلاف بين العلماء في القياسي والسماعي من المشتقات والمصادر. وفي قراره ـ جواز القياس فيما كان أصله السماع ـ قد أزال حرجا ووسع ضيقا، بل إنه بلغ الغاية المطلوبة حين أجاز السماع من المحدثين، ففي ذلك كله إثراء

للغة وتطويع لها حتى تفي بمطالب الحياة العربية في علومها وفنونها وشئون معيشتها اليومية، وأوضح مثل على ذلك قراره في قياسية الاشتقاق من أسماء الأعيان عربية أو معربة، فقد صان العربية ـ كما يقول الدكتور إبراهيم مدكور ـ من العجز والاستخذاء أمام المعاني العلمية الحديثة. غير أن المجمع حين اتخذ هذا منهجا له ـ لم يبتدع قواعد جديدة، ولم يخرج بقراراته عن طبيعة اللغة ونظامها الموروث، وكان شأنه دائما الحرص على أن يستأنس بما ذهب إلى القدماء من يسر وتيسير. وخاصة مقولتهم المشهورة (ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب).[14]

وتجدر الإشارة هنا أن المجمع منذ إنشائه قد دأب على مراجعة قراراته، واستكمال بعضها كما حدث في قرار اسم الآلة إذ أضاف صيغا جديدة،[15] أو يرفع بعض القيود التي التزم بها فيما سلف كرفع قيد الضرورة في الاشتقاق من أسماء الأعيان..[16]

والحق أن المجمع كلما امتد به العمر اشتدت نزعته إلى التيسير، وقارب إلى الوفاء بالحاجة، غير أن قراراته لم تجد طريقها بعد إلى الكتاب المدرسي، بل لم تجد طريقها إلى ألسنة الناس وأقلامهم من غير المتخصصين في علوم اللغة.

وتتلخص قرارات المجمع في التوسع في قياسية أبنية الأفعال المشتقة والجامدة، والمصادر، والأسماء، على النحو التالي:

أ ـ قياسية أبنية الأفعال :

الجذر اللغوي تتولد منه أفعال وأسماء عديدة تدل على معان جديدة، ولكن تظل تحمل بعض دلالة الجذر الأصلي. والفعل إما مجرد أو مزيد، ولكل من المجرد والمزيد مصدر، وقد تعدد المصادر مجردة أو مزيدة. وتعنى كتب الصرف بدراسة هذا الجانب.

(1) ـ أقرّ المجمع قياسية (فَعَّل) للتكثير والمبالغة، وأجاز أن ينقل المجرد الثلاثي إلى صيغة (فَعَّل) للتدعية أو التكثير أو النسبة أو السلب أو اتخاذ الفعل من الاسم عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، وإن لم ينص على هذه الصيغة. (انظر مجموعة القرارات العلمية، ص55).

ـ والأمثلة : خدَّر، حضّر، ورّد، جسَّم، حلَّل، شرّع، صوّت (بمعنى أبان عن رأيه To vote، وهي هنا مشتقة من الاسم «صوت»). والفعل (حلّل) في معناه الحديث (رجع الشيء إلى عناصره)، والمعنى القديم للكلمة نفسها: حلّل

الشيء: أباحه، وحلل اليمين أو القسم: جعلها حلالا بكفارة. ولكن من معاني الصيغة الجديدة: حَلَّ العقدة: فكها، وحل الجامد: أذابه، وحل السائل: خففه بإضافة الماء، وهذا المعنى الأخير مأخوذ من معنى الكلمة To analyse كمصطلح في الكيمياء.

و (كيّف) الهواء = غير درجة حرارته أو برودته بوساطة مكيف الهواء.

و (مثّل) = To present، وقيّم = To evaluate.

(2) أقر المجمع صياغة وزن (فَعَل) من أسماء الأعلام الأجنبية والكلمات الدخيلة عموما، مثل:

بَسْتَرَ من باستير Pasteur،

و بَلْشَفَ من البلشفية،

و تَلْفَن من التلفون،

و جبس من الجبس (انظر : في أصول اللغة، ص 252).

(3) أجاز المجمع قياسية (أفعل) لتعدية الفعل الثلاثي اللازم، مثل:

أكرم، أخرج .. (انظر: مجلة المجمع القاهري 1/37 و 230).

(4) أجاز المجمع قياسية (استفعل) لإفادة الطلب أو الصيرورة. أو للدلالة على الجَعْل والاتخاذ، وتكون بزيادة السين والتاء.

فالطلب مثل : استكتبه مقالا. والصيرورة : استنسر البغاث، واستماه البخار. والجعل والاتخاذ: استهدف الشيء، أي جعله هدفا، واستخلف فلانا (انظر: في أصول اللغة، ص ص 40 ـ 42).[18].

(5) أقر المجمع قياسية أوزان المطاوعة على النحو التالي:

● يقول الرضي:[19] المطاوعة في اصطلاحهم التأثر والتأثير... فالمطاوع في الحقيقة هو المفعول به الذي صار فاعلا نحو (باعدت زيدا فتباعد) المطاوع هو زيد، لكنهم سموا فعله المسند إليه مطاوعا مجازا. ويتم نقل الفعل المتعدي إلى اللازم بأحد أوزان المطاوعة، وهي: «انفعل ـ افتعل ـ تفعَّل ـ تفاعل»، مثل:

كَسَرَ زيدٌ الباب ← انكسر البابُ،

جَمَعَ زيدٌ الناس ← اجتمع الناسُ،

جَمَّعَ زيدٌ الناس ← تجمّع الناسُ،

قاتل زيدٌ عَمْراً ← تقاتل زيدٌ وعمرو، فإذا كان الفعل قبل المطاوعة متعديا لاثنين، فقد بالمطاوعة مفعولا به واحدا، مثل: علَّم زيدٌ عَمْراً المسألة ← تعلَّم زيدٌ المسألة.[20]

● مطاوع (فَعَل) الثلاثي:[21] كلّ فعل متعدٍ دالٍّ على معالجة حسيّة فمطاوعه القياسي (انْفَعَلَ)، ما لم تكن

فاء الفعل واواً، أو لاماً، أو نوناً، أو راء. ويجمع هذه الأحرف قولك (لم نرو) فالقياس فيه (افتعل). والأمثلة:

لأمتُ الجرح فالتأم، ولا نقول فانلأم،

رميتُ به فارتمى ولا نقول فانرمى،

نفيته فانتفى، ولا نقول فأنفى،

وصلته فاتصل، ولا نقول انوصل.

— مطاوع (فَعّل) بتشديد العين: [22] قياس المطاوعة لفعّل مضعف العين (تفعّل)، والأغلب فيما ضعّف للتعدية أن يكون مطاوعه ثلاثيه. والأمثلة:

قطّعت الخيط فتقطع، قيسته فتقيّس، علمته فعلّم أو فتعلّم،

فرّحته ففرح، ولا يقال فتفرّح لأنه لم يرد.

— مطاوع (فاعَل): [23] قياس المطاوعة لـ(فاعَل) الذي أريد وصف مفعوله بأصل مصدره مثل (باعدته) يكون قياس مطاوعه (تفاعل) كتباعُد.

ومثله : توازُن.

— مطاوع (فَعْلَلَ) [24] وما ألحق به قياس المطاوعة منه على (تَفَعْلَلَ)، نحو: دحرجته فتدحرج، وجلببته فتجلبب.

— والملحق بـ(فعلل) الرباعي هو الثلاثي المزيد بحرف، ويكون على ثلاثة أوزان:

(فاعل)، (فعّل) و(أفعل). وقياس مطاوعها بزيادة التاء، والأمثلة:

فاعل ← تفاعل : عالجته فتعالج.

فعّل ← تفعّل : كسرته فتكسر،

ولا يقال أكرمته فتأكرم.

ب ـ قياسيَّة المصادر :

(1) قرار (فِعالة) للحِرفة: [25] يُصاغ للدلالة على الحرفة أو شبهها من أيّ باب من أبواب الثلاثي مصدر على وزن (فِعالة) بالكسر:

— من (فَعَلَ) اللازم، مثل : تجر ← تجارة، سفر ← سِفارة، أمر ← إمارة، وسط ← وِساطة.

— من (فَعَل) المتعدي، مثل : خاط ← خِياطة، كتب ← كِتابة، نجر← نجارة، حاك ← حِياكة.

(2) قرار (فعلان) للتقلب والاضطراب: [26] يقاس المصدر على وزن (فَعلان) اللازم مفتوح العين إذا دلّ على التقلب والاضطراب، والأمثلة:

جيشان، غليان، خفقان، هذيان، نبضان، نوسان، موجان.

(3) قرار (فُعال) للمرض: [27] يقاس من (فَعَل) اللازم المفتوح العين مصدر على وزن (فُعال) للدلالة على المرض، والأمثلة:

صُداع، هُزال، كُساح، رُعاف، فُصام.

ويصاغ من الفعل المبني للمجهول والمُحَّول عن (فَعَل) المتعدي المفتوح العين وزن (فُعال)، والأمثلة:

زُكام من زُكِم، ذُباح من ذُبح.

(4) قرار (فُعال وفعيل) للصوت:[28] إذا لم يرد في اللغة مصدر لـ(فَعَل) اللازم مفتوح العين الدال على صوت، يجوز أن يصاغ له قياساً مصدر على وزن (فُعال) أو (فعيل)، والأمثلة:

صُرَاخ، وشواش ... (وزن فُعال)،

أنين، هدير، صفير ... (وزن فعيل).

(5) قرار (التفاعُل) للدلالة على الاشتراك مع المساواة أو التماثل، والأمثلة:

تبادل، تحارب، تخاطب، تداخل، تكامل، تصارع، تعارض، تعاون، تعايش، ترابط، تقارن، توافق، تضامن، تماسك، وتكافُل.

(6) قرار المصدر الصناعي[29] إذا أريد اشتقاق مصدر صناعي من كلمة يزاد عليها ياء النسبة والتاء.

والمصدر الصناعي صيغة عرفتها العربية في عصر الحضارة الإسلامية على نحو محدود مثل: (الجاهليّة) و(الشعوبيّة)، وكان قرار مجمع اللغة العربية حول المصدر الصناعي إقرار كلمات كثيرة أصبحت شائعة في العربية المعاصرة للدلالة على المذاهب والتيارات والآراء، يقول عبد الصبور شاهين:[30] «ولا شك أن هذه اللاحقة (الياء المشدّدة + التاء المربوطة) هي نفسها لاحقة النسب في مثل: مصريّ، وسعوديّ، غاية ما هنالك أن التاء التي نجدها في لاحقة المصدر الصناعي توصف بأنها تاء النقل من الوصفية إلى الاسمية، في حين أنَّ التاء في المؤنث المنسوب هي للتأنيث، ولا فرق في النطق بين كلمتي (إنسانية ومصرية) سوى الاعتبار المذكور». وهي تأتي على أشكال مختلفة، منها:

- (مصدر + يّة)، مثل : حيوانية، عبودية، مفهومية، تقدمية، انهزامية، تعاونية، اشتراكية، حريّة، وجوديّة..

- (اسم جمع + يّة)، مثل : بشرية، إنسانية، حيوانية، ذهبية، حجرية، قومية، جنسية، شعبية..

- (اسم فاعل + يّة)، مثل : عاطفية، جاذبية، حامضية، قاعدية، حساسية، فاعلية..

- (كلمة مركبة + يّة)، مثل : رأسمالية، ماهيّة، كيفية، هويّة، ماهيّة.

- (كلمة أجنبية + يّة)، مثل: فيدرالية، كلاسيكية، ديمقراطية، رومانسية، برجوازية، برجماتية، ديناميكية،..

- (اسم علم + يّة)، مثل: ماركسية، سارترية، ديجولية، ناصرية...[31]

- ترجمة الكلمات المختومة في الإنجليزية باللاحقة ism ـ، مثل:

Existentialism = وجوديّة، Humanism = إنسانية،

Symbolism = رمزية، Determinism = حتمية،

Racism = عنصرية أو سلالية، Imperialism = تسلّطية...

- ترجمة الكلمات المختومة في الإنجليزية باللاحقة ty ـ، وأحيانا باللاحقة ivity ـ، مثل:

Reactivity = المفاعلية، Impedevity = المعاوقية،

Conductivity = الموصولية ـ وهي خاصية للمادة بفضلها يسمح للبناء الكهربائي بالمرور خلالها، إذا كان هناك فرق جهد، وهي مقلوب المقاومية.

و Reluctivity = المُمانِعيّة ـ وهي مقدار قابلية المادة المغنطيسية لتوصيل الفيض المغنطيسي، وهي عكس المصطلح التالي:

Permeability = المَنْفذية ـ وهي النسبة بين كثافة الفيض المغنطيسي المنتج في وسط ما إلى القوة المغنطة المنتجة له،

و Permittivity = المجاوزية ـ وهي النسبة بين الإزاحة الكهربية لوسط ما إلى القوة الكهربية المنتجة له،

و Resistivity = المقاومية ـ وهي المقاومة الحجمية للمادة،

و Susceptibility = المتأثرية ـ وهي النسبة بين شدة التمغنط إلى شدة المجال المغنطيسي في الدائرة المغنطيسية.

يقول الدكتور شاهين نقلا عن مقال (خصائص اللغة العربية في التعبير العلمي) للدكتور عبد الحليم منتصر، المنشور في مجلة (اللسان العربي) ص 272: «وهذه المصطلحات كلها صيغت في لغتها الأصلية للدلالة على ما يدلّ عليه المصدر الصناعي في العربية، وأصلها قبل تحويلها إلى هذه الدلالة يأخذ شكل المصدر الصريح، على النحو المطرد في مجموعة الكلمات التالية:

Reactance = المفاعلة، Impedance = المعاوقة، Conductance = المواصلة، Reluctance = الممانعة، Permeance = المنافذة، Permittance المجاوزة، Resistance = المقاومة، Susceptance = المهاودة».

ومثلها: Vivacity = الحيويّة، Utility = النفعية، Inductivity = الحاثيّة، Humanity

= الإنسانية.

(7) أقرّ المجمع جواز جمع المصدر عندما تختلف أنواعه، ونجد في الاستخدام المعاصر صيغا كثيرة لجمع المصدر، منها: توصيلات، إرسابات، تمديدات، إشعاعات، تحليلات، تدريبات، إعانات، إرشادات، إنتخابات، إشتراكات، إستنتاجات، إرتسامات.[32]

(ج) المشتقات والأبنية الأخرى للأسماء :

(1) قرار (فَعَّال) للنسبة إلى الشيء:[33] يُصاغ (فَعَّال) قياسا للدلالة على الاحتراف، أو ملازمة الشيء. فإذا خيف لَبْس بين صانع الشيء وملازمه، كانت صيغة (فعّال) للصانِع وكان النسب بالياء لغيره، فيقال (زجّاج) لصانع الزجاج، و(زُجاجِي) لبائعه.

وهذا القرار في جزئه الأول استمرار للعُرف اللغوي السائد في كلمات مثل: نجّار، حدّاد، خبّاز. ولكن يبدو أن الجزء الأخير من القرار لم يُقبل في الاستخدام الحديث، وحلّ محله في المثال المذكور المضاف والمضاف إليه فقيل: بائع الزجاج.

(ومن الاستخدامات الحديثة على هذا الوزن : جرّاح Surgeon، وطيّار Pilot، وزهّار Florist، وأسّاد Lionist، وغيرها).

(2) قرار اسم الآلة[34]: يصاغ قياسا من الفعل الثلاثي على وزن (مِفْعَل، ومِفْعَال، ومِفْعَلة) للدلالة على الآلة التي يعالج بها الشيء. ويُوصي المجمع باتّباع صيغ المسموع من أسماء الآلات، فإذا لم يسمع وزن منها لفعل، جاز أن يصاغ من أيّ وزن من الأوزان الثلاثة المتقدمة. وقد أقرّ المجمع بعدئذ بالأوزان التالية (فَعّالة - فِعال - فاعِلة - فاعول).

ومن المعروف أن كتب الصرف قد نصّت على قياسية الأوزان التالية لاسم الآلة، وهي: (مِفْعَل، ومِفْعَال ومِفْعَلة). يقول الأستاذ سعيد الأفغاني[35]: «أحكام هذه القرارات كانت موضع خلاف منذ القديم بين مَنْ يقصرها على ما لم يسمع له صيغة مخصوصة، ومَنْ يرى اطّراد القياس فيها إلى جانب ما سُمع له صيغة أُخرى، والخطوة التي خطاها المجمع هي حسمه الخلاف بميله إلى اطراد القواعد وخيرا صنع».

والواقع أن هناك أسماء أخرى لاسم الآلة مشتركة مع أوزان المبالغة مثل: فَعّال. وفِعِّيل، وفُعّال.. وغيرها. وسنذكر هنا بعض الأمثلة مما أقرّه

المجمع والاستخدام الحديث في هذا الباب، فنقول:

ـ مِفْعَل، نحو: مِبرد، مِرْقب Heloscope، مِكْبس الترشيح Press filter، مِكْشَط، مثقب، مِقْوَد، مِضْغَط، مِكْثَف، مِكْبَح، مِشْبَك، مِفَكّ، مِبْذر، مِقْطَع، مِشْرط..

ـ مِفْعَلَة، نحو: مِحْفَظَة Capsul، مِرْوَحَة، مِصفاة، مِدْخَنَة، مِحْرَقة، مِخْرَطة، مِحَشّة، مرسمة التموجات Oscillograph محبرة، مِكْنَسَة، مِنجرة، مِلعقة، مِطرقة، مسطرة، مِشواة، مِطواة، مِجْمَرَة، مِمْلَحة، مِبْرقة Telegraph...

ـ مِفْعَال، نحو: مِفْتَاح، مِثقاب[36]، مِصباح، مِجْداف، مِرْذاذ، معيار، مِنظار، مسبار Sond، مِزْواة Theodolite، مِنساخ Pantographe، مِطْيَاف Spectroscope، ميزان، مكيال، مثقال، ميقات، محرار (لقياس درجة الحرارة Thermometer)، مِجهاد (لقياس الجهد Dynameter)، مرداد (لقياس التردد Frequenometer)، مكسار (لقياس انكسار النور Refractometer)، مِرقاب Telescope، مجهار Microscope...

ـ فَعَّالة، نحو: سيّارة automobile، دبّابة Tank، دبّاسة Stapler، نفّاثة Jet plane، برّادة Icebox و Refrigerator (توسع دلالي للكلمة القديمة لوعاء يبرد الماء أو منصة تعلق عليها الأوعية لتبرد)، ثلاّجة Freezer و Icebox (مرادف برّادة)، حرّاقة Torpedo (توسع دلالي للكلمة الوسيطة Fireship)، حفّارة، غَوَّاصة، قدّاحة، درّاجة، طفّاية، نسّافة، نشّافة، غسّالة، نظّارة، ثقّابة، فتّاحة، خرّامة، جرّارة، حمّاية Radiator،...

ـ فاعِلة، نحو: طائرة[37] Airplane، باخرة Steamship، شاحنة Truck / lorry، حافلة bus، قاطِرة، رافعة، فارزة، غاسِلة،...

ـ فِعال، نحو: حِزام، رِباط، نِقاب، وِكاء، قِناع، عِيار، غِطاء، دِثار، حِجاب، لِجام، قِراب، سِوار، زِناد، سِنَان..

ـ فَعَّال، نحو: طَرَّاد، جرّار، قبّان، كبّاس، عَدّاد، صمّام،..

ـ فاعُول، نحو: ساطور، طاصون، حَاسُوب Computer، حاكوم Remote Control،...

ـ أُفْعولة، نحو: أُرْجوحة، أُنْشوطة، أُحبولة، أُثفية (وهو وزن مشترك جاءت منه ألفاظ أُخرى غير دالة على اسم الآلة، مثل: أُسْطورة).

ـ وقد تأتي أسماء الآلة من غير

المشتق على أوزان لا يجمعها ضابط، مثل: جَرَس، قُدُّوم، شاكُوش، شوكة، قَلَم، فأس، هاتف، خاتم.. وغيرها. أو قد يغلب استعمال بعض الألفاظ الدخيلة فتعرّب تعريبا لفظيا لما لها من شيوع دولي، مثل: ميكروسكوب Microscope، ميكرومتر Micrometer، جيروسكوب gyroscope، تلسكوب Telescope، ترمومتر Thermometer، ترموستات Thermostat،...

وأرى أن أختم هذه الفقرة باقتراح للباحث الخبير بإدارة مكتب المدير العام في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الأستاذ شحادة الخوري، وقد نشره في مجلة اللسان العربي (عدد 29 سنة 1987) نظرا لأهمية الموضوع، حيث إن عصرنا، هو عصر الآلات التِّقنيّة، يقول: «إن التوقف عند سبعة أوزان»، كما فعل مجمع اللغة العربية بالقاهرة، أمر لا مسوّغ له.. (وينبغي عند النظر في صوغ اسم الآلة إلى التخصص، وكيفية عمل الآلة، وحجم عمل الآلة).. فثمة آلات تعمل عملا عارضا: وزن فِعال: حِزَام ولجام وزِمام، وخِطام، وسِوار، وقِراب (فمثلا): الحِزام يسدّ حاجة مؤقتة ولا يترك حين انتهائه أي أثر، وكذلك القِراب والخِطام والسوار فكأنه عمل بلا جهد أو فاعلية. وثمة آلات تعمل بجهد بشري: أوزان مِفْعَل ومِفْعَلَة ومِفْعَال: مِبْرد، ومِكْنَسَة وميزان. فالإنسان هو الذي يقوم بالبَرْد والكَنْس، والوَزْن، والآلة هنا وسيلة عمل. وثمة آلات تعمل بجهد ذاتي: أوزان فاعِل وفاعِلة وفَعَّالة وفَعَّال وبقية الأوزان: لاصق، قاطرة، سيَّارة، جرّار.. الخ.

وحجم العمل الذي تقوم به الأداة أو الجهاز أو الآلة حجم متفاوت يتدرج من الحجم الصغير إلى الحجم الكبير، ويمكننا أن نجد فيه مستويات مختلفة حسب التسلسل:

- المستوى الأول تمثله الأوزان: مِفعل ومِفعلة ومِفعال: مِغزل ومِطْرَقَة ومِنْشار، وفِعال وإفعيل: حِزام وإزميل.
- المستوى الثاني يمثله الوزنان: فاعِل وفاعلة: حاجِز، وباخرة.
- المستوى الثالث يمثله الوزنان: فَعَّال وفَعَّالة: طَرَّاد وطَيَّارة.
- المستوى الرابع تمثله الأوزان: فُعَّال وفعُّول وفِعّيل وفاعول: كُلّاب، كُلّوب، سِكّين، وساطور، وحاسوب.

هذه آراء تطرح على بساط الدرس والمناقشة، ليتداول بها أصحاب الاختصاص وتتصدى لبحثها وإقرارها أو إقرار ما يوازيها ويضارعها ويقوم

مقامها ـ مجامع اللغة العربية ولاسيما مجمع القاهرة الذي اشتهر باجتهاداته اللغوية التي أغنت العمل المصطلحي وشقت له دروبا آمنة».

(3) أقر المجمع صحة صيغة النسب إلى الجمع[38]: «المذهب البصري في النسب إلى جمع التكسير أن يرد إلى واحده، ثم ينسب إلى هذا الواحد. ويرى المجمع أن ينسب إلى لفظ الجمع عند الحاجة كإرادة التمييز أو نحو ذلك».[39]

والاستخدام القديم عرف أيضا تكوين صيغة النسب من الإسم الجمع، مثل: صحابي، صبياني، ملوكي، أصولي، شعوبي،[40] مدائني، أهوازي،...

والاستخدام العربي الحديث توسع في هذا اللون من الصيغ رفعا للالتباس، مثل: (الدُّوَلي ـ بضم الدال) المنسوب إلى مجموعة الدول، والدَّولي ـ بفتح الدال) المنسوب إلى الدولة الواحدة، وعلى هذا صح قول المعاصرين: الاتحاد المغاربي، الاتحاد المشارقي، قضية أخلاقية، وزي نسائي ورجالي وولادي، ورجل كُتُبي، وأُممي وعقائدي وعُمّالي،[41] وصحائفي، ووظائفي.. ونحوها.

وفي باب النسب تجدر الإشارة إلى قرارات مشابهة في هذا الباب، منها:

(أ) التزام الياء عند النسب إلى ألفاظ العقود، مثل: الخمسيني (ترى اللجنة صحة إلحاق الياء بألفاظ العقود عند النسب إليها، وجعل الإعراب بحركات ظاهرة على ياء النسب، فيقال: هذا هو العيد الخمسيني).[42] والذكرى الأربعينية.

(ب) جواز قول المعاصرين: العشرينيات، التسعينيات ونحوها (ترى اللجنة أن ألفاظ العقود يجوز أن تجمع بالألف والتاء إذا ألحقت بها ياء النسب، فيقال مثلا: ثلاثينيات... ويدل اللفظ حينئذ على الواحد والثلاثين إلى التاسع والثلاثين، وفي هذا المعنى لا يقال: ثلاثينات بغير ياء النسب).[43]

(ج) جواز استخدام نون الإلحاق في النسب في مثل: نفساني، روحاني،[44] وتحتاني...

(4) أقر المجمع جواز دخول (أل) على حرف النفي المتصل بالإسم واستعماله في لغة العلم.[45] وفي هذا إقرار بصحة صيغ قديمة مثل: اللاكون، اللاأدرية.

وعليه فقد أجاز للمعاصرين مثل: اللاهوائي ـ اللاسلكي ـ اللانهائي ـ اللاإنساني ـ اللاوعي ـ اللاشعور.

(5) قرار الاشتقاق من أسماء الأعيان «اشتق العرب كثيرا من أسماء الأعيان والمجمع يجيز هذا الاشتقاق ـ للضرورة ـ

في لغة العلوم».[46] وقد ذكر الشيخ أحمد الإسكندري في احتجاجه لهذا القرار أمثلة كثيرة جدا مما اشتق العـرب من أسماء الأعيان ومنهـا: مُنحّس (مـن النحاس) ـ مُزَرْنَخ (من الزرنيـخ) ـ مبلّـر أو متبلّـر (من البلور) ـ مُقَصْدَر (من القصدير) ـ مُكَهْرَب (مـن الكهربـاء) ـ وممغطَس أو ممغنَط (مـن المغنطيـس) ـ اسْتَمَـاهَ البُـخَار (أي استحال مـاء) ـ اسْتَـربَّ النشا (أي استحال رُبّاً. والرُّب: الغليكوز = عسل الفاكهة).[46]

كما قالوا: حَنَّيْته ـ بَوَّبتُه ـ ترب المكان (كثر فيـه التراب وتربت يـده، واستعاروا منه؛ أتـرب: قل مـاله وافتقـر، فالتصـق بـالتراب، ومنه المتربـة) ـ جَوْرَبْتـُه (أي ألبسته الجورب، فتجورب) ـ والمقرمد من (القـرميـد والقـرمـد: الآجـر والخزف المطبـوخ) ـ وسـويـق مقنـد ومقنـود ومُقَنـدي: لُـتَّ بـه من (القنـديد والقنـد: عسل قصب السكر إذا جمد).[47]

المعرب والدخيل في اللغة العربية

الدكتور مناف مهدي الموسوي
أستاذ مساعد في كلية التربية
الزاوية ـ ليبيا

إن عملية التبادل اللغوي أصبحت من الحقائق الثابتة التي لا غبار عليها نتيجة اختلاط الأمم فيما بينها.

وما من لغة ذات شأن وحضارة عريقة ومكانة تاريخية سامية إلا كانت عرضة لمثل هذا التبادل اللغوي، لأنه لا يمكن أن تتم عملية تبادل حضاري دون تبادل لغوي في الوقت ذاته. فاللغة الإنجليزية ــ مثلا ـ على قدمها اقتبست آلاف المفردات من اللغات الأخرى، كما أوضح ذلك أحد علمائها الكبار(1)، فقد اقتبست الحديثة منها ما بين 55 و75 في المائة من مجموع مفرداتها من اللغتين الفرنسية واللاتينية وغيرهما من اللغات الرومانية، وكذلك اقترضت الكورية ما يقرب من 75 في المائة من مفرداتها من اللغة الصينية.

والعربية كغيرها من اللغات الحية لجأت إلى الاقتراض اللغوي من لغات الشعوب التي اتصلت بها، والتي تبادلت معها البضائع وما تحتاج إليه من منتجات زراعية أو صناعية، كالفرس والروم والأقباط والهنود وغيرهم.

وأكثر المُستورَد لم يكن له اسم عند العرب فاضطروا إلى أخذ أسمائه التي عرفت بها عند أصحابها، بعد أن بحثوا في رصيدهم اللغوي عن مقابل لتلك الألفاظ، فترجموا ما أمكن ترجمته، كما استخدموا وسائل القياس والاشتقاق والمجاز، وعندما لم يجدوا ما يناسب تلك الألفاظ من لغتهم حاولوا ما أمكنهم أن يلبسوه حلة عربية فأخضعوه لنظام العربية وهذا ما يطلق عليه المعرّب.

فإن لم يغيروا فيه شيئا ونطقوه كما ينطقه أهله سمي دخيلا.

وعلى هذا يكون المعرب: هو اللفظ الذي قد بدل فيه بعض أصواته أو غيرت بنيته، فابتعد عن صورته الأصلية.

والدخيل: هو الذي ترك على حاله ولم يغيروا فيه شيئا.

وهناك من اللغويين من لا يفرق بينهما فيطلقون على المعرب دخيلا، وبالعكس. ومن هؤلاء: الجواليقي[2] والخفاجي[3] والسيوطي[4] وغيرهم[5]. قال السيوطي «يطلق على المعرب دخيل، وكثيرا ما يقع ذلك في كتاب العين والجمهرة وغيرهما»[6].

ويفرق بينهما الدكتور حسن ظاظا[7] على أساس زمني لا على أساس لغوي كما أسلفنا، فيقول: «اللفظة الأجنبية التي استعملها العرب الذين يحتج بكلامهم تعتبر من المعرب حتى ولو لم تكن من حيث بناؤها ووزنها الصرفي مما يدخل في أبنية كلام العرب. أما ما دخل بعد ذلك فإنه يعتبر من الدخيل، أي الذي جرى على الألسنة والأقلام مستعارا من اللغات الأجنبية لحاجة التعبير إليه».

والذي أراه أن الرأي الأول هو الأفضل والأنسب لتعريفهما، أي الرأي الذي يفرق بينهما على أساس لغوي، أما الرأي الأخير الذي ذهب إليه الدكتور حسن ظاظا والمستند على أساس زمني لا يمكن الركون إليه إلا بمعرفة تاريخ دخول كل لفظة إلى اللغة العربية، ومثل هذا ما لا يمكن تحقيقه، باستثناء بعض الألفاظ المرتبطة بحوادث معينة أو شواهد محددة يمكن بوساطتها معرفة تاريخ دخولها.

يضاف إلى ذلك أن الدكتور حسن ظاظا لم يفرق بين المفردات التي بدلت العرب بعض أصواتها أو غيرت بنيتها، والألفاظ التي بقيت على حالها دون تغيير يذكر.

لذلك تكون التفرقة بينهما على أساس لغوي أكثر ملاءمة للواقع الذي مرت به تلك الألفاظ.

العوامل التي ساعدت على دخول الألفاظ الأعجمية

هناك عدة عوامل ساعدت على دخول الألفاظ الأعجمية إلى اللغة العربية، منها:

1 ـ الاحتكاك بين العرب وغيرهم من الأمم الأخرى عن طريق التجارة، أو نزوح جماعات سكناهم بين جماعات يتكلمون بلغة تختلف عن لغتهم، وقد نبه الأقدمون إلى مثل ذلك العامل الذي أدى إلى تداخل اللغات واقتراض المفردات، نتيجة للتجاور أو التجارة، مما سبب رفض اللغويين الأقدمين أخذ اللغة من

تلك القبائل المجاورة للأمم الأخرى فقالوا: «فأما اليمن وهي جنوب الجزيرة فأفسدت كلام عربه خلطة الحبشة والهنود... وأما ما وَالَى العراق من جزيرة العرب وهي بلاد ربيعة وشرقي الجزيرة فأفسدت لغتها مخالطة الفرس والنبط ونصارى الحيرة وغير ذلك. وأما الذي يلي الشام وهو شمالي الجزيرة وهي بلاد آل جفنة وابن الرافلة وغيرهم فأفسدها مخالطة الروم وكثير من بني إسرائيل» (8).

وهذه الحالة يشرحها السيوطي فيقول «لم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سكان البراري ممّن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام، لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية، ولا من تغلب والنمر، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم» (9).

2 ــ انتشار اللغة العربية في البلاد التي فتحها المسلمون مما أدى إلى اقتباس ألفاظ من تلك البلاد المفتوحة من جراء الاحتكاك بين لغات المسلمين.

3 ــ دخول غير العرب بالدين الإسلامي وانضمام قسم منهم إلى صفوف الجيش الإسلامي مما سبب دخول بعض الألفاظ الأعجمية إلى لغة العرب المسلمين.

4 ــ انتشار الترجمة حيث قام المسلمون بترجمة كثير من كتب الفلسفة والفلك والطب والرياضيات إلى اللغة العربية مما سبب دخول بعض الألفاظ الأجنبية التي لم يجد المترجمون المقابل المناسب لها في اللغة العربية وخاصة في المواضيع والأشياء التي لم يستعملها أو يسمعها العرب قبل ترجمتها من اللغات الأخرى.

وهناك أسباب أخرى دفعت العرب لاستعمال ألفاظ أعجمية فربما استملحوا سماع لفظ لندرته ولصدوره عن قائليه في غير مواضع الجد تلطفا.

وقد يكون بسبب طرافته أو للقافية، كما يذكر ذلك أبو حاتم حيث يقول: «إن رؤبة بن العجاج والعظماء كالأعشى وغيره ربما استعاروا الكلمة من كلام

العجم للقافية، لتُستطرف، ولكن لا يستعملون المستطرف، ولا يصرفونه ولا يشتقون منه الأفعال، ولا يرمون بالأصلي المستطرف، وربما أضْحكوا منه كقول العدوي:

«أنا العربيُّ الباكْ»

أي النقي من العيوب

وقال العجاج:

«كما رأيتَ في المُلاء البَرْدَجا»

وهم السَّبْيُ ويقال لهم بالفارسية (بَرْدَه) فأراد القافية» (10).

أو يكون الدافع في استعماله هو خفة اللفظ المستعار وسهولة نطقه إذا ما قيس بمرادفه العربي كما يشير إلى ذلك الجاحظ في البيان والتبيين فيقول: «ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم لذلك يسمون البطيخ الخربز.. وأهل البصرة القثاء خيارا» (11).

والذي يستقصي الألفاظ الأعجميه التي استعملها العرب مع وجود المرادف لها من الكلمات العربية يجد كثيرا منها كالإبريق ومرادفه العربي التأمورة والنرجس ومرادفه العربي العبهر.. إلى غير ذلك. وقد أخذت اللغة العربية من كل أمة بما عرف عنها.

فمن اللاتينية واليونانية أخذت الألفاظ القانونية كالقبان والقانون والقنطار والقسطاس والميل والدرهم والدينار.. بالإضافة إلى ألفاظ إدارية وعلمية وفلسفية متنوعة.

وأخذت من الفارسية في عصور الاحتجاج أسماء بعض الآنية والمعادن وألوان الخبز والطهي والرياحين والطيب والمنتجات الصناعية والشؤون الحربية مثل: البَهْرمان - وهو اللون الأحمر، والأرجوان والقرمز، وأخذت من الرومية بعض الأسماء كـ(ماريه)، و(رومانس) وبعض أسماء الخمر كـ(الخندريس) و(الإسفنط) وبعض أسماء الفواكه كالخوخ والدراقن.

وأخذت من الهندية ألفاظا تدل على طبيعة تلك البلاد ومنتجات أرضها فأخذت العقاقير والأحجار الثمينة، وصناعة السيوف والرماح وبقية آلات الصيد والأصباغ ومصطلحات التجارة والملاحة والسفن وأدواتها مثل الكافور والفلفل والاهليلج والبهار والأرجوان والخيزران...

وأخذت من الحبشية ألفاظا ذات طبيعة دينية أو قريبة الصلة بالإسلام في استعمالها في مرحلته الأولى كـ(المنبر) و(الحواري) والمحراب والبركان والنفاق والهرج: وهو القتل.. الخ.

ومن العبريـة أخذت ألفـاظا لها صلـة بالجانب الديني أيضا كالملكوت والجبروت وكـاهـن وعـاشوراء وبعـض أسماء الأنبياء...

واقتبسـوا كلمات مختصـة بالـزراعـة والصناعـة والتجارة والملاحة والعلـوم من السريان وهم في مقدمـة الشعوب الآرامية في الجاهلية والقرون الأولى للإسلام التي خالطها العرب [12].

وكل مـا أخذته لا يقـدح في عظمتها أو ينقص من قدرها فهو بحدود ثلاثة آلاف لفـظ بينما دخل بقيـة اللغـات من اللغـة العربية ألفاظ كثيرة.

وقد قـام علماء بعض اللغـات بحصر عدد الألفـاظ الدخيلـة في أصول لغـاتهم ومن هـذه اللغات: اللغة الإنجليزيـة حيث بحث الإنجليـز عن المفـردات العربيـة في لغاتهم غير مرة وقد أنجـزوا في هذا الباب كتـابا مـن تـأليـف الباحـث الإنجليـزي (جيمـس بِيتَـرْز) وزميـل لـه عربي هـو (حبيب سلـوم) يتضمن هذا الكتـاب نحو ألفين وخمسمائة كلمة إنجليزية ترجع إلى أصـل عـربي. وأوكلت مـؤسسـة وبستر (Webster) الأمـريكية إلى الـدكتور فيليب حتّي تعقّب الألفـاظ الإنجليـزيـة التـي تنتسـب إلى أصـل عـربي فخـرج بنحـو خمسة آلاف كلمة اعتمدتها تلك المؤسسة في معجمها [13].

ولم يتجه علماء العـربية إلى مثـل تلك الـدراسـات، لأنها لم تثر اهتمامهـم فلـم يدرسوها لذاتها، بل جاء طرف منها عند تفسير بعض الألفاظ في الكتـب التي ألفت في غــريــب اللغــة، كما وردت ضمــن الموسـوعـات اللغويـة وكتب علـوم القرآن وغـريب اللغـة فأحصـوا مجمـوعة مـن الألفـاظ الأعجمية في فصـول منهـا، كما فعل ذلـك أبو عبيـد في الغريـب المصنف وابن سيـده في المخصص والسيوطي في كتـابـه الإتقـان في علـوم القـرآن، كما سيتضح قـريبا أهـم المؤلفات في المعـرب والدخيل.

أهم المؤلفات في المعرب والدخيل

لاشـك أن معـرفـة أول مـن كتـب في المعرب والدخيـل عملية شـاقة لا يمكـن الـوصول بها إلى نتيجـة مرضيـة ويقين قـاطع، ولكـن يمكن حصر البـوادر الأولى التي وصلت إلينا والبحوث التي اختصت بـالحديث عـن المعـرب القرآني والألفـاظ الـدخيلة في اللغـة العربيـة حتـى الوقـت الحاضر كما فعـل ذلك الـدكتـور حسين نصار [14] حين ذكـر مجمـوعة مـن تلـك المؤلفات، وقد فـاته بعض منها كحـاشية ابـن بري على المعـرب ومعجـم الدخيـل

للأستاذ طه باقر وغيرهما. وفيما يلي قائمة تحوي ما استطعنا التعرف عليه من تلك الدراسات:

- وضع أبو عبيد القاسم بن سلام (ت 229هـ) فصلا من كتابه الغريب المصنف سماه (ما دخل من غير لغات العرب في العربية) وهو قصير بصفحتين.

- وأفرد ابن قتيبة (276هـ) فصلا من كتابه (أدب الكاتب) لما تكلم به العامة من كلام الأعجمي.

- ألحق ابن دريد (ت 321هـ) بابا في آخر كتابه الجمهرة تحت عنوان (باب لما تكلمت به العرب من كلام العجم) حتى صار كاللغة.

- خصص ابن سيده (458هـ) بابين من السفر الرابع عشر من كتابه المخصص للمعرب.

الباب الأول: (باب ما أعرب من الأسماء الأعجمية).

الباب الثاني: (باب اطراد الإبدال في الفارسية).

كما ذكر قسما صغيرا له في السفر السادس عشر تحت عنوان (ومن نادر الأعجمي).

- ووضع أبو منصور الجواليقي (ت 540هـ) كتابا خاصا يعد من أكبر الكتب التي تعرضت لهذا النوع من البحث. وسماه (المعرب من كلام الأعجمي على حروف المعجم).

- ووضع ابن بري (ت 499هـ) حاشية على كتاب المعرب للجواليقي ومعروف (بحاشية ابن بري على كتاب المعرب) وفيه ذكر تعليقات وتنبيهات وإضافات وشواهد شعرية على بعض الألفاظ التي وردت في كتاب الجواليقي. طبع بتحقيق د. إبراهيم السامرائي سنة 1985 - بيروت.

- ألف عبد الله بن محمد العذري المعروف بالبشبيشي (ت 820هـ) كتابا سماه (التذييل والتكميل لما استعمل من اللفظ الدخيل).

- ووضع أحمد بن كمال باشا (ت 940هـ) رسالة في تعريب الألفاظ الفارسية.

- وعمل شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي (ت 1061هـ) كتابا سماه (شفاء الغليل، فيما في كلام العرب من الدخيل).

- وعمل السيوطي (ت 911هـ) كتاب (المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب) طبع بمصر سنة 1980 بتحقيق د. إبراهيم محمد أبو سكين ورتبه على حروف المعجم مبتدأ بحرف الألف، كما طبع مرة أخرى بتحقيق د. عبد الله

الجبوري ضمن كتب (رسائل في الفقه واللغة) طبع ببيروت سنة 1982.

وقد ذكر السيوطي - أيضا - هذا الكتاب ملخصا في كتابه الإتقان في علوم القرآن (النوع الثامن والثلاثون) وعنونه بـ (فيما وقع فيه بغير لغة العرب) وذكره مجردا من الأسانيد والروايات.

- وألف السيوطي كتابا آخر رتبه على أساس اللغات فبدأ بذكر (ما ورد في القرآن بلغة الحبشة) ثم (ذكر ما ورد في القرآن بالفارسية) ثم (ذكر ما ورد في القرآن بالرومية).. الخ واعتمد فيه على كتب التفسير والقراءات وعلوم القرآن والحديث والمعرب ولغات القرآن وغير ذلك.

ـ ألف مصطفى المدني (القرن 11) كتابا سماه (المعرب والدخيل).

ـ وعثرت على رسالة في المعرب معنونة بـ (رسالة في بيان تعريب لفظ الأعجمي وبيان استعماله في العربية) وقد انتهيت من تحقيقه والتعليق عليه ولكن لم أهتد بعد إلى ترجمة مؤلفه لأنه نسب في المخطوط إلى (ابن الوزير) وهناك عدة أعلام عرفت بابن الوزير فلعلي أهتدي إلى إشارات في المستقبل القريب ترشدني إلى مؤلفه الحقيقي.

وعرفت في العصر الحديث بعض الكتب والرسائل والبحوث التي تهتم وتختص بهذا النوع من الألفاظ وأهم هذه الكتب والرسائل:

ـ كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، لأدّى شير (طبع في بيروت سنة 1908) ورتب ألفاظه وفقا لحروفها الأول والثاني والثالث معتمدا على الحروف الصامتة دون حروف العلة.

وصرح في مقدمته أنه اعتمد في تأليفه على معجم (البرهان القاطع) لحسين بن خلف التبريزي في الألفاظ الفارسية، وفي العربية على محيط المحيط وأقرب الموارد.

- صنف الأب رفائيل نخلة اليسوعي كتاب غرائب اللغة العربية صدرت الطبعة الأولى سنة 1954 فقد ذكر فيها (521) كلمة وفي الطبعة الثانية أضاف عدة فصول جديدة وتوسع في الأبواب القديمة حتى اشتمل على حوالي (2515) كلمة وجعل في آخر الكتاب جدولا أبجديا يشير فيه إلى اللغة التي اقتبست منها الكلمة ورقم الصفحة الحاوية الشرح اللازم للكلمة ولأصلها.

- ألف الأستاذ طه باقر معجم الدخيل في اللغة العربية (طبع دار الوثبة - دمشق، بيروت).

تحدث فيه عن (276) كلمة رتبها حسب الترتيب الهجائي وعرض لأصول

المفردات التراثية في إطارها التأريخي بأن مهد لها بمقدمة تأريخية عن لغات حضارة وادي الرافدين القديمة وصلتها بالعربية وباللغات السامية وذلك بإرجاع أصول المفردات العربية التراثية إلى إحدى اللغات التي تكلم بها سكان العراق القدماء.

- ووضع رشيد عطية اللبناني الدليل إلى مرادف العامي والدخيل، طبع بمطبعة الفوائد ببيروت 1898م.

ـ كما ألف معجم عطية في العامي والدخيل (طبع سنة 1944م).

- صنف القس طوبيا العنيسي الحلبي:

1 - كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه ورتبها ترتيبا هجائيا، طبع بالقاهرة سنة 1964.

2 ـ كتاب (نبذة في أصول الألفاظ السامية)

Etymologie semitische (Roma 1909).

ـ قمت بعمل موسوعة (المعرب والدخيل في اللغة العربية) اعتمدت في إعدادها على أكثر من عشرة كتب من كتب التعريب بالإضافة إلى كتب التفسير والغريب والمعاجم العربية. ورتبتها على حروف المعجم وحسب صورتها التي وصلت إلينا بغض النظر عن أصالة حروفها أو زيادة بعض الحروف الأخرى.

ـ وقمت باستقصاء أقوال العلماء حول الكلمات الدخيلة في أمهات الكتب ونبهت إلى ما ورد في كتاباتهم من ذكر لأصالة اللفظة أو عجمتها. وما ورد في هذه الموسوعة لا يعني إقرارا بعجمتها أو إثباتا لأصالتها في اللغة العربية وإنما محاولة لتسهيل الطريق أمام الباحثين لسبر غور المعرفة في أصالة تلك الألفاظ عند تحقيقهم لها وتذكيرهم بالمصادر التي نوهت إليها وتحدثت عنها، ليتمكنوا من اتخاذ القرار الملائم بعد تحقيق وتدقيق واستقصاء للوصول إلى الحقيقة بأدلة وبراهين مقنعة (وهذه الموسوعة تحت الطبع وستصدر قريبا).

ـ وكتب الدكتور فؤاد حسنين علي مقالات في مجلة كلية الآداب في عام 1948م بعنوان (الدخيل في اللغة العربية) ورتب فيها الألفاظ وفقا لصورتها دون النظر إلى أصالة حروفها وزيادتها ولم يقصر البحث على العربية الفصحى بل بحث ألفاظا عامية أيضا.

وحظيت ظاهرة الدخيل في اللغات وقضية التبادل اللغوي للألفاظ باهتمام كثير من علماء أوربة مما حفزهم لتأليف معاجم متخصصة ترمي إلى فرز الألفاظ الدخيلة وتأصيلها في لغاتها - اشتقاقا

ودلالة ـ ومن أشهر الأعمال العلمية مما له صلة بالعربية في هذا المجال[15]:

ـ كتاب سيغموند فرانكل (الكلمات الدخيلة الآرامية في العربية) مطبوع باللغة الألمانية:

Siegmund Fraenkel: die Aramaishen fremd worter in arabischen (Leyden 1886)

ـ معجم دوزي في الكلمات الإسبانية والبرتغالية المقتبسة من العربية.

R. Dozy: glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe (Leyden 1869).

ـ معجم تصريف أو تأصيل الكلمات الفرنسية المأخوذة عن العربية والفارسية والتركية، تأليف أ.ب. فيهان.

A.P. Pihan: Dictionnaire étymologique des mots de la langue française dérivés de l'arabe du persan ou du turc (Paris 1866).

ـ معجم المستشرق الهولندي رينهارت دوزي المساعد للمعاجم العربية.

R. Dozy: Supplément aux dictionnaires arabes (Beyrouth 1968).

ـ كتاب جورجي بوبيسكو شيوكانل في بعض الكلمات الرومانية التي هي من أصل عربي أو تركي أو فارسي أو عبري.

Gheorghe Popesco Ciocanel: Quelques mots roumains d'origine Arabe, Turque, Persane et Hebraïque (Paris 1907).

ـ كتاب آرثر جفري ـ الألفاظ الدخيلة في القرآن.

Arthur Jeefery: The foreign vocabulary of the Quran.

ا ألف كثير من الكتب والبحوث العلمية التي تبين أثر اللغة العربية في اللغات الأخرى وتبرز الكلمات التي دخلت تلك اللغات، منها:

* كتاب مفردات إسبانية عربية الأصل، لبتول العلاف، طبع ببغداد سنة 1962م.

* كتاب أثر اللغة العربية في اللغة التاجكية، د. حسين علي محفوظ، طبع ببغداد سنة 1965.

* بحث تأثير اللغة العربية في إفريقيا/ لحمد مختار سيسي، مجلة اللسان العربي ــ الرباط عدد 13، سنة 1976 ص. 72ـ77.

* ألفاظ عربية في اللغة الأرمينية/ أ. أبيان، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، عدد 12 سنة 1932 ص. 439ـ441.

* الكلمات العربية في اللغة الأردية/ مبارك الباكستاني، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، عدد 29 سنة 1954، ص. 253ـ260.

* الألفاظ ذات الأصل العربي الدخيلة في اللغة الرومانية بوساطة اللغة التركية: نيقولا دوبريشان، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عدد 9 سنة 1972، ص. 147ـ 174.

أثر العربية في اللغة البرتغالية: الأب.أ. دي ساس، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عدد 8 سنة 1965 ، ص. 65 ـ70.

* الألفاظ العربية المستعارة في لغة الهوسا/ داود سلوم، مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد، العدد 21 سنة 1977، ص. 57ـ104.

* الألفاظ المستعارة من العربية في لغة اليوربا/ داود سلوم، مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد، العدد 20، سنة 1976، ص. 7ـ26.

* الألفاظ المستعارة من العربية في اللغة السواحلية/ داود سلوم، مجلة كلية الآداب ــ جامعة بغداد، عدد 19 سنة 1975، ص. 219ـ299.

* (بحث) العربية في الكتب العبرية/ عبد العزيز بنعبد الله، مجلة اللسان العربي، الرباط، عدد 11 ج1 سنة 1974، ص. 159 ـ 160.

* (بحث) الألفاظ العربية في اللغات الإسلامية غير العربية/ عبد الوهاب عزام، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عدد 9 سنة 1957، ص. 85ـ86.

* (بحث) تأثير علوم اللغة العربية في البلاد غير العربية/ عبد الوهاب عزام، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عدد 13 سنة 1961، ص. 35ـ 42.

* (بحث) مصطلحات أجنبية أصلها عربي/ أبو فارس، مجلة اللسان العربي، الرباط، عدد 9 جزء 1 سنة 1972، ص. 430ـ431.

* كلمات عربية في اللسان الإسباني/ إلياس قنصل، مجلة اللسان العربي ـ الرباط، عدد 11 ج.1 سنة 1974 ص. 182ـ 202.

* (بحث) أثر اللسان العربي في اللغة الإسبانية/ سامي الحفار الكزبري، مجلة اللسان العربي ــ عدد 7 ج. 1 سنة 1970، ص. 155ـ 157.

* (بحث) تأثير اللغة العربية على البولونية: جرزي كوتكوفسكي/ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، عدد 25 سنة 1950، ص. 147ـ 150.

* (بحث) أثر اللغة العربية في اللغة الفارسية/ حسين علي محفوظ، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عدد 40، سنة 1974، ص. 301ـ 330.

* (بحث) الوجوه العربية في اللغة التركية/ أحمد توفيق المدني، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد 36 سنة 1975، ص. 127ـ 170.

* (بحث) تأثير اللغة العربية في اللغة الألبانية/ محمد موفاكي، مجلة المعرفة،

دمشق عدد 178 سنة 1976، ص. 173-183.

نظرة القدماء إلى مسألة التعريب

اختلف اللغويون القدماء في مسألة التعريب وشروطه بين متشدد فيه ومتساهل.

فمنهم من لم يشترط فيه سوى الاستعمال، فإذا استعمل العرب الكلمة الأعجمية صارت معربة سواء ألحقوها بأوزان كلماتهم أم لم يلحقوها وإلى مثل هذا أشار سيبويه فقال: «اعلم أنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة، فربما ألحقوه ببناء كلامهم وربما لم يلحقوه» (16).

وذهب إلى مثل هذا الشهاب الخفاجي فقال: «اعلم أن التعريب نقل اللفظ من العجمية إلى العربية» (17).

أما الفريق الآخر فيتصدره الجوهري فيرى أن التعريب هو أن تتكلم العرب بالكلمة الأعجمية على طريقتها وأسلوبها فقال: «تعريب الإسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها، تقول: عربته العرب وأعربته أيضا» (18).

نظرة القدماء لمسألة وجود الألفاظ الأعجمية في القرآن الكريم

اختلف أئمة اللغة العربية في مسألة وقوع ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم.

فقسم يرى أنه «ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان عربي» فينكرون وقوع ألفاظ غير عربية في القرآن الكريم، ومن هؤلاء: الإمام الشافعي (19) (ت 204 هـ) وأبو عبيدة (20) (ت210 هـ) وابن جرير (21) (ت 310هـ) والقاضي أبو بكر الباقلاني وابن فارس (22) (ت 385هـ). واستندوا إلى قوله تعالى: **﴿قرآنا عربيا﴾** (23)، وقوله تعالى: **﴿ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فُصِّلت آياته أأعجمي وعربي﴾** (24).

فقال الشافعي ردا على من يقول: إن في القرآن غير لسان العرب: «ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبيّ» (25).

وقال أبو عبيدة: «إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول» (26).

كما رد ابن جرير على من يستشهد بورود الألفاظ الأجنبية في القرآن الكريم بما ذكره ابن عباس وغيره فقال: « ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن أنها بالفارسية أو الحبشية أو النبطية أو نحو ذلك، إنما

اتفق فيها تـوارد اللغـات فتكلمـت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد»[27].

ويعطي ابن فارس دليلا آخر على عدم وقوع المعـرب في القرآن فيقول: «لـو كان فيه مـن غير لغة العـرب شيء لتوهـم أن العرب إنما عجزت عن الإتيـان بمثله لأنه أتى بلغة لا يعرفونها[28].

ونرد على هذا الرأي فنقول: إن القرآن نزل بلغـة القوم واستعمـل الألفاظ التي كان يستعملها الناس في ذلـك الوقت ولو أتى بألفاظ جديـدة لم يسمعوها من قبل لكـان غـريبا عليهـم، وبطبيعـة الحال إن قسما مــن تلـك الألفـاظ التـي كـان يستخدمهـا العرب هي عربيـة استعملها العرب بعـد أن وردت إليهم مـن شعوب أخرى مع الأشياء التي اقتبسوها من تلك الأقوام لظروف مختلفة كما سبق الإشارة إليه.

كمـا يـرد أبـو بكـر بـن الأنـبـاري (ت 328هـ) عما يحكيه بعـض المفسرين عن مقاتل بن سليمان:

«صِـرْهُنَّ معنـاه: قطِّـع أجنحتهـن، وأصله بـالنبطية: صِـريْه» فيقـول: «فإن كان أثر هذا عن أحد مـن الأئمة فإنه مما اتفقت فيه لغة العرب ولغة النبط لأن الله عز وجل لا يخاطب العرب بلغة العجم، إذ بين ذلك في قوله جل وعلا: ﴿**إنّا جعلْنَاه قُرْآناً عربياً لعلّكُم تَعْقِلُون**﴾[29].

وهناك من المحدثين من أيد هذا الفريق المنكـر لوجـود المعرب في القـرآن الكريـم وهو الشيخ أحمد شاكر في مقدمته لكتاب المعرب للجواليقي.

والقسم الآخر مـن أئمة اللغة لهم رأي مغاير لما ذهـب إليه الفريق الأول فـأقروا وجـود ألفاظ معـربة في القـرآن الكريـم، منهـم الصحابـي الجليـل ابـن عـبـاس (ت 68هـ) في كتـابه (اللغـات في القرآن) والإمام زيـد بن علي (ت 120هـ) وتظهر وجهـة نظـره من خـلال كتـابـه (تفسير غريب القرآن) فذكر فيه نحوا من عشرين كلمة من أصول فارسية وهندية وحبشية وسريانية ونبطية[30] وغيرها.

كما نقـل عـن أبي عبيد القـاسـم بـن سـلام قـولـه: «روي عــن ابـن عبـاس ومجاهـد وابـن جبير وعكـرمـة وعطـاء وغيرهـم مـن أهـل العلـم أنهم قـالـوا في أحـرف كثيرة إنها بلغـات العجـم، منهـا قوله: طه واليمّ، والطور والربانيون...»[31]

وحجـة مـن يـرى وجـود المفردات الأعجميـة في القـرآن الكـريـم هـي «أن الكلمات اليسيرة بغير العربيـة لا تخرجه عن كـونه عربيـا فالقصيدة الفـارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها عربية»[32].

واستدلوا كذلك باتفاق النحاة على أن منع الصرف في نحو (إبراهيم) للعلمية والعجمة ويرد هذا الاستدلال بأن الأعلام ليست محل خلاف كالكلام في غيرها، موجّه بأنه إذا اتفق على وقوع الأعلام فلا مانع من وقوع الأجناس» [33].

وذهب فريق ثالث إلى موقف وسط بين هذا وذاك، فصدّق القولين، وذلك يتمثل برأي أبي عبيد القاسم بن سلام (ت 224هـ) فقال بعد أن مكّن القول بالوقوع عن الفقهاء، والمنع عن أهل العربية: «الصواب عندي: أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الأحرف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربية فهو صادق ومن قال: إنها أعجمية، فصادق» [34].

ويتضح من هذا القول أن أبا عبيد قد حاكى الواقع الذي عاشت فيه اللغة العربية، حيث لا يمكن نكران اختلاط العرب بغيرهم ولا غضّ الطرف عن مجاورتهم لأصحاب اللغات الأخرى، وهذا الاختلاط والمجاورة لابد أن ينتج عنهما أخذ وعطاء للألفاظ التي ليس لها نظير مناسب لدلالاتها في اللغة الأخرى.

ويرى أبو عبيد أن الفريقين ـ أي المنكر والمؤيد لوجود المعرب في القرآن ـ مصيب ويعلل ذلك بقوله: «إن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل فقال أولئك على الأصل ثم لفظت به العرب بألسنتها، فعربته، فصار عربيا بتعريبها إياه، فهي عربية في هذا الحال، أعجمية الأصل» [35].

وقد أيد قول أبي عبيد الجواليقي [36] وابن الجوزي [37] وأبو منصور الأزهري حيث قال الأخير: «إن الاسم قد يكون أعجميا فتعربه العرب فيصير عربيا» [38].

ومن المحدثين الذين ذهبوا إلى رأي أبي عبيد هو الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه (فصول في فقه اللغة) [39] فقد انتقد تعصب الشيخ أحمد شاكر للرأي الأول، واختار ـ وهو محق ـ الرأي المعتدل الذي ذهب إليه أبو عبيد وغيره من الأعلام، لأنه أقرب إلى التصديق من غيره بسبب محاكاته للواقع والظروف التي مرت بها اللغة العربية.

كيفية معاملة العرب للألفاظ الأعجمية

اتبع العرب طريقة محددة وأسلوبا خاصا لتعاملهم مع الألفاظ الأعجمية ويتمثل ذلك بالتغييرات التي يجرونها على

الألفاظ الأعجمية، ونال الحرف القسط الأكبر من الاهتمام والمعالجة، ثم اتسعوا ليشمل التغيير بنيتها، وكان سيبويه أول من نبه إلى البدائل العربية لأصوات الألفاظ الأعجمية ومثل لذلك باللغة الفارسية لأنها نالت قصب السبق في إعارة ألفاظ كثيرة للغة العربية فخصص بابا من كتابه لذلك سماه (باب اطراد الإبدال في الفارسية) وجاء فيه «يبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجا وربما بَعُدَ مخرجا أيضا»(40). والسبب في ذلك يتضح من قول الجواليقي (ت 540هـ) «الإبدال لازم، لئلا يدخلوا في كلامهم ما ليس من حروفهم»(41) فذكر الجواليقي سببا صوتيا ليمكن من خلاله معرفة أصالة الكلمة العربية من عدمها، وقد أيد البحث الحديث فكرة القوانين الصوتية بكونها المعيار الأول لتحديد أصالة الكلمة أو عدمها من الناحية الاشتقاقية(42).

وكما يقول أحد الباحثين: «قد يكون من السهل ـ إلى حد ما ـ رد كلمة معربة إلى مصدرها الأول إذا كان هذا المصدر من عائلة لغوية أجنبية. أما إذا كانت اللفظة شائعة في لغات العائلة الواحدة فإن الأمر عسير جدا»(43).

فالمسألة تنقسم إلى قسمين:

الأول: هو إذا كانت اللفظة موجودة في اللغات التي تنتمي إلى عائلة واحدة وينطبق هذا على اللغة العربية وشقيقاتها في اللغات السامية كالعبرية والآرامية وغيرهما وتتضح هذه الصورة بالكلمة العربية (ثغر) وما يقابلها وفق القوانين الصوتية في اللغات السامية المختلفة «فالثاء العربية تعبر عن الثاء في اللغة السامية الأم يقابلها الشين في العبرية والتاء في الآرامية. أما الغين العربية فيقابلها في الآرامية والعبرية صوت العين. ومعنى هذا أن المقابل الاشتقاقي المباشر للمادة العربية (ث.غ.ر) هو (ش.ع.ر) في العبرية و (ت.ع.ر) في الآرامية.

وهذا ما نجده في كلمة (ثغر) العربية و (Šaᶜar)في العبرية و (taᶜr) في الآرامية وواضح أن هذه الكلمات من جذر اشتقاقي واحد»(44).

والقسم الآخر هو رد الكلمة المعربة إلى أصلها عندما يكون ذلك الأصل لغة أجنبية أي ليست اللغتان من عائلة لغوية واحدة وينطبق هذا الأمر على اللغة العربية واللغات غير السامية التي تأثرت بها كاللغة الفارسية مثلا، ويتضح بالإبدال الحاصل في الأصوات التي ليست من حروف العربية فيبدلون تلك

الأصوات بغيرها والتغيير الآخر هو الحاصل في بنية الكلمة وإلحاقهم إياه بأبنية العربية، وفيما يلي التفصيل:

أولا: التغيير الحاصل في الأصوات،

ويكون كما يأتي:

1 ـ «يبدلون من الحرف الذي بين الكاف والجيم: الجيم» [45].

ويعلل سيبويه سبب ذلك بقرب المخرج فيقول: «لقربها منها ولم يكن من إبدالها بد لأنها ليست من حروفهم» [46]، ومثال ذلك (الآجر) و(الجورب) فالجيم فيهما لم تكن تنطق جيما خالصة كما ينطقها العرب بل كانوا ينطقونها بين الجيم والكاف(گـ) أي كافا فارسية فغيّره العرب «ربما جعلوه جيما وربما جعلوه كافا وربما جعلوه قافا لقرب القاف من الكاف (كربج) وبعضهم يقول (قربق)» [46].

ويرى المحدثون [47] أن نطق الجيم ـ بين الجيم والكاف ـ هو الأصل في اللغة السامية الأم ثم تطورت في العربية الفصحى فأصابها ما يسمى بالتغوير (plataligdion) بأن تقدم مخرجها إلى الأمام حيث الغار (الحنك الصلب) ثم رجعت في بعض اللهجات العربية الحديثة كلهجة القاهرة وعدن إلى الأصل السامي الأول وهو نطقها من الطبق شديدة مجهورة.

2 ـ يبدلون مكان آخر الحرف الذي لا يثبت في كلامهم إذا وصلوا الجيم وذلك مثل (كوسه) و(موزه). ويعني هذا أنهم قالوا (كوسج) و(موزج) وربما دخلت القاف عليها كما ذكر سيبويه [48] فقالوا (كوسق).

وتبع سيبويه في هذه الفكرة كثير من اللغويين كالجوهري [49] والرازي حيث قال:

«من علاماتهم التي فصل بها كلامهم من كلام العجم إدخالهم القاف في آخر الاسم في موضع الهاء كقولهم (الاستبرق) وهو الغليظ وهو (استبره) بالفارسية وقولهم (يلمق) وهو (يلمه) وإدخالهم الجيم في آخر الحرف كقولهم (موزج) و(ديباج) وهو (موزه) و(ديباه)» [50].

3 ـ ويبدلون من الحرف الذي بين الباء والفاء ـ أي (P) ـ فاء وربما أبدلوه باء كما في (الفِرِنْد) وقال بعضهم (بِرِنْد) [51].

وعقّب سيبويه على هذا الإبدال بقوله: «البدل مطرد في كل حرف ليس من حروفهم يبدل منه ما قرب منه من حروف الأعجمية» [52] ويعني بالحروف التي ليست من حروفهم أي الحروف الفرعية المستقبحة التي لا يستحسن

قراءة القرآن الكريم والأشعار العربية بها مثل (گـ) الفارسية أو (پ) وغيرهما وهي حروف ليس لها رسم أو رمز كتابي في العربية الفصحى ولا تستعمل أصواتها فيها.

وقال سيبويه: إن الإبدال فيها مطرد أي لا يستسيغ العربي أن يتكلم بها أو يدخلها في نظم أشعاره أو خطبه دون تغيير في حروفها التي لم تستخدم في العربية الفصيحة.

كما نبه إلى الحروف التي لا يطرد فيها البدل، وإنما حدث إبدال في بعض الألفاظ الفارسية عند تعريبها، فذكر السين في (سراويل) والعين في (إسماعيل) فقال: «أبدلوا للتغيير الذي قد لزم»(52) والأصل فيها (شروال) و(إشماويل)(53) وقالوا للصحراء (دست) وهي بالفارسية (دشت) وعلل سبب ذلك سيبويه فقال: «أبدلوا من الشين نحوها ـ هي السين ـ في الهمس والانسلال من بين الثنايا وأبدلوا من الهمزة العين لأنها أشبه الحروف بالهمزة»(54) كما أبدلوا اللام من الزاي في (قَفْشَلِيل) وهي المَغرفة وأصلها (كَفْجَلاَز) وجعلوا الكاف منها قافا والجيم شينا والفتحة كسرة والألف ياء»(55).

ثانيا: التغيير في بنية الكلمة:

تضمنت الألفاظ الأعجمية التي دخلت العربية أبنية تختلف عن الأبنية الموجودة في اللغة العربية فربما يغير بناء الكلمة إلى أبنية العربية.

قال سيبويه: «اعلم أنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة، فربما ألحقوه ببناء كلامهم وربما لم يلحقوه»(56). وقال الفراء: «يبنى الاسم الفارسي أيّ بناء كان إذا لم يخرج عن أبنية العرب»(57).

كما ذكر سيبويه(58) ورردده من بعده الجواليقي(59) ما ألحقوه ببناء كلامهم كـ(دِرْهَم) ألحقوه ببناء (هِجْرَع) و(بَهْرَج) ألحقوه بـ(سلهب) و(دِيْنَار) ألحقوه بـ(دِيماس)..(60).

«وربما حذفوا كما يحذفون في الإضافة ويزيدون كما يزيدون فيما يبلغون به البناء وما لا يبلغون به بناءهم»(61).

ومما زادوا فيه من الأعجمية ونقصوا (إبريسم) و(إسرافيل) و(فيروز) ومما تركوه على حاله فلم يغيروه (خُراسان) و(خُرَّم) و(كُرْكُم)(62).

قال أبو عمر الجَرميّ: «وربما خلطت العرب في الأعجمي إذا نقلته إلى لغاتها»(63).

ومما تقدم نفهم أن طريقة العرب في تعريب الألفاظ الأعجمية هو تغييرهم لكل لفظة كانت حروفها أعجمية ـ أي: الحروف التي لا توجد في العربية الفصيحة ـ فتركوا الأصوات الأعجمية كما ألحقوا الألفاظ بأبنيتهم، وهو الأكثر كما أنهم لم يشترطوا في الصيغ أن تكون عربية الأوزان دائما فكان إلحاق الشكل مبنيا على فكرة إلحاق المادة الأساسية أي حروف الكلمة ويتضح هذا أيضا من قول سيبويه حول الأعجمي: «لما أرادوا أن يعربوه ألحقوه ببناء كلامهم، كما يلحقون الحروف بالحروف العربية» (64).

ويمكن تقسيم الكلمة المعربة التي تكلم بها العرب إلى أربعة أقسام (65):

1 ـ نوع غيرته العرب وألحقته بأبنيتها في الوزن كـ(دِرْهَم) الذي ألحقوه بـ(هِجْرَع)، والدرهم أصله (دَرْم) فغُيِّر بزيادة الهاء إلحاقا له بصيغة (فِعْلَل).

2 ـ نوع غيرته ولم تلحقه بأبنيتها نحو (آجر).

3 ـ نوع لم تغيره ولم تلحقه بأبنيتها كـ (خُراسان) فإنه لا يثبت به الوزن (فُعَالان).

4 ـ نوع لم تغيّره وألحقته بأبنيتها كـ(خُرَّم) ألحقوه بـ(سُلَّم) وكُرْكُم ألحق بـ(قُمْقُم).

وأفضل الكلمات المعربة هي ما وردت في القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام والأشعار الجاهلية وما سمع في نثر ممّن يحتج بعربيتهم.

العلامات الدالة على عجمة الكلمة:

تحدث اللغويون عن العلامات التي ترشد إلى الألفاظ الأعجمية واستنتجوا أغلب تلك الملاحظات عند مقارنتهم طريقة تركيب الألفاظ العربية بالألفاظ المعربة ومن هذه الملاحظات التي أشار إليها أئمة العربية: (66)

1 ـ خروج اللفظة عن أوزان الأسماء العربية نحو (إبْرِيْسِم) فإن مثل هذا الوزن مفقود في أبنية الأسماء في اللسان العربي، وليس في كلامهم وزن (فُعَالان) كـ(خُراسان) أعجمية ولا (فاعيل) لذا قيل (آمين) عبراني ولا (فِعْلَل) بكسر الفاء وفتح اللام إلا دِرْهَم وهِبْلَع وبِلْعَم وضِفْدَع لغة ضعيفة (67).

2 ـ اجتماع الجيم والقاف يقول الجواليقي «فمتى جاءتا في كلمة فاعلم أنها معربة» من ذلك (جَرَنْدَق) و(المَنْجَنِيق) و(الجَوْق).

3 ـ اجتماع الجيم والصاد في كلمة مثل (صَوْلَجَان) و(الجُصّ) و(الصَّنْجَة).

4 ـ وقوع الزاي بعد الدال من ذلك (المُهَنْدِز) أبدلوا الزاي سينا فقالوا (المهندس).

5 ـ وقوع الراء بعد النون من ذلك (نَرْجِس) و(نورج).

6 ـ أن تكون الكلمة رباعية أو خماسية خالية من حرف أو أكثر من حروف الذلاقة مثل (عَقْجَش) و(سَفَرْجَل) وحروف الذلاقة هي (مر بنفل).

7 ـ اجتماع الباء والتاء مثل (البستان).

8 ـ الجيم والتاء لا يجتمعان في كلمة من غير حرف ذولقي ولهذا ليست الجبت من محض العربية [68].

9 ـ الجيم والطاء لا يجتمعان في كلمة واحدة ولهذا كان الطّاجِن والطَّيْجَن مولدين لأن ذلك لا يكون في كلامهم الأصلي [69].

10 ـ لا يوجد في كلام العرب دال بعدها ذال إلا قليل. قال البطليوسي في شرح الفصيح: «لذلك أبى البصريون أن يقولوا بغداذ بإهمال الدال الأولى وإعجام الثانية، فأما الداذى [70] ففارسي لا حجة فيه [71].

11 ـ جاء في المحكم: «ليس في كلام العرب شين بعد لام في كلمة عربية» [72].

12 ـ لم يجتمع في العربية سين وزاي ولا سين وذال معجمة إلا في كلمة معربة كـ(ساذج) معرب (ساده) مهملة و(سذام) اسم قبيلة معرب (سداب) [72].

بهذه الوجوه يمكن معرفة عجمة الاسم من عربيته كما صرح به أئمة اللغة.

وهناك ملاحظات وأدلة لم يضعها القدماء ضمن الأدلة التي تبين عجمة الكلمة الفارسية على الرغم من أن قسما منهم قد فطن إلى بعضها، من تلك الملاحظات المشهورة في اللغة الفارسية (Saffixes) وأهمها:

1 ـ اللاحقة (ويه) قال الخفاجي [73]: «في سيبويه ونحوه علامة تصغير قال ـ الزمخشري ـ في ربيع الابرار إذا سمّى أهل البصرة إنسانا بفيل وصغروه قالوا فيلويه كما يجعلون عمر عمرويه وحمد حمدويه».

2 ـ اللاحقة (بان) و(ان) وهي لاحقة تدل الحفظ والحراسة نحو (مَرْزُبان): حارس الحدود، و(شَادَرْوَان) حافظ الخيمة أو ستر عظيم يسدل على سرادق السلاطين.

3 ـ اللاحقة (چه) (Tcheh) وتدل على التصغير نحو (باغ): حديقة و(بغجة) جنينة أو حديقة صغيرة.

4 ـ اللاحقة (دار) تدل على صاحب الشيء نحو (بازدار) حامل الباز أو الباشق أو الشاهين وهي طيور جارحة يصاد بها.

5 ـ من اللواحق المكانية (ستان) وتعني الأرض أو المكان نحو (باك ستان) الأرض المباركة و(بستان) من (بو): الرائحة و(ستان) المكان أو الأرض كما تدل على الكثرة في بعض الكلمات.

وتستعمل لاحقة زمانية نحو (تابستان): الصيف، و(زمستان): الشتاء[74] وإذا لم تتوفر أدلة صوتية أو بنائية لمعرفة أصالة الكلمة عربية أم أعجمية يمكن اللجوء إلى معطيات حضارية أي من خلال احتكاك الشعوب واختلاطها يحدث التأثير والتأثر ودخول ألفاظ جديدة إلى اللغات المحتكة باعتبار أن اللغة وسيلة اتصال بين أبناء تلك الشعوب لأنها أداة يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وحاجاتهم «فإذا اتفق لفظان متقاربان لفظا ومعنى في لغتين وكانت بين أهل تينك اللغتين علاقات متبادلة من تجارة أو صناعة أو سياسة جاز لنا الظن أن إحداهما اقتبست من الأخرى. فإذا كان ذلك اللفظ من أسماء المحاصيل أو المصنوعات أو الأدوات فيرجح إلحاقه باللغة السابقة إلى ذلك. كلفظ (المسك) مثلا فإنه موجود في العربية وفي الفارسية وفي السنسكريتية وفروعها.. فإذا عرفنا أن المِسك يُحمل إلى العالم من تونكين وتيبت، ونيبال والصين وأن الهنود القدماء كانوا يحملون الطيب إلى الأمم القديمة ويمرون بسفنهم ببلاد العرب، ترجح عندنا أن العرب أخذوا هذه اللفظة عن الهنود كما أخذها الفرس عنهم، أو لعلها انتقلت إلى الفارسية من العربية لأن الفرس يعدونها عربية، كما يعدها العرب فارسية.. أو هي الفارسية باعتبار أنها فرع من السنسكريتية»[75].

وهكذا مع بقية الألفاظ التي يمكن أن نتتبع أصولها للوصول إلى حقيقة استعمالها الأول لعلنا نتوصل إلى نتائج مرضية لبعض منها، فإن كل لفظة لها ظروفها الخاصة التي مرت بها حتى انتقلت إلى اللغة الأخرى فتحتاج إلى دراية وروية ومثابرة في البحث كي يصيب الباحث الحقيقة للألفاظ التي يبحث عن أصالتها.

النحت بين مؤيديه ومعارضيه

د. فارس فندي البطاينة
جامعة اليرموك/ الأردن

أقرت اللجنة المؤلفة لبحث موضوع النحت ومدى الاستفادة منه والمشكّلة من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الشيخ إبراهيم حمروش، والشيخ محمود شلتوت، والدكتور أحمد زكي، والأستاذ مصطفى نظيف والشيخ عبد القادر المغربي، أقرت إباحة النحت عندما تلجىء إليه الضرورة العلمية.[1]

والنحت في اللغة، هو (النشر والقشر) يقال : نحت النجار الخشب، ونحت الجبل، قطعه.[2]

وهو في الاصطلاح عند الخليل : «أخذ كلمة من كلمتين متعاقبتين، واشتقاق فعل منها».[3]

ويعرفه الدكتور نهاد الموسى من المحدثين بقوله: هو «بناء كلمة جديدة من كلمتين أو أكثر أو من جملة، بحيث تكون الكلمتان أو الكلمات متباينتين في المعنى والصورة، وبحيث تكون الكلمة الجديدة آخذة منهما جميعا بحظ في اللفظ، دالة عليهما جميعا في المعنى».[4]

بالمقابلة بين الحدين، نلاحظ أن تعريف الخليل للنحت يقصر عن تعريف المحدثين، فقد حدد المنحوت بأنه ما أخذ من لفظين، وقيدهما بلفظ متعاقبين، فهذا الحصر يخرج بعض الألفاظ المنحوتة المسموعة عن العرب مثل، بسمل، أو حوقل، وأشباههما إذ هي منحوتة من جملة، إضافة إلى أن التعريف لم يتعرض إلى طريقة نحتها، بعكس حد المحدثين الذي أرى أنه جامع مانع.

وكان سيبويه قد ألمح إلى معنى النحت في كتابه حين قال : «قد يجعلون للنسب اسما بمنزلة جعفر، ويجعلون فيه من حروف الأول والآخر، ولا يخرجونه من حروفهما ليعرف».[5]

على أننا من النظرة التاريخية يمكن اعتبار الخليل بن أحمد (ت،175هـ) هو أول من اكتشف ظاهرة النحت في اللغة العربية حين قال: «إن العين لا تأتلف مع الحاء في كلمة واحدة لقرب مخرجيهما، إلا أن يشتق فعل من جمع بين كلمتين مثل (حيّ على) كقول الشاعر:

ألا رب طيف بات منك معانقي
إلى أن حيعل الداعي الفلاحا

وكما قال الثالث :

أقول لها ودمع العين جار
ألم يحزنك حيعلة المنادى

فهذه كلمة جمعت من (حيّ) ومن (على) ونقول منه (حيعل، يحيعل، حيعلة..).(6)

ولم يقتصر ابن فارس (ت،395هـ) على ما ذكره الخليل عن النحت، بل وسع قاعدة الكلمات التي يشملها بقوله: «وهذا مذهبنا في أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف، فأكثرها منحوت».(7)

أقسام النحت :

قام المتأخرون من خلال استقرائهم للأمثلة التي أوردها الخليل بن أحمد، وابن فارس بتقسيم النحت إلى أقسام عدة، يمكن حصرها فيما يلي:

1. **النحت الفعلي :** وهو أن تنحت من الجملة فعلا، يدل على النطق بها، أو على حدوث مضمونها، مثل (جعفر) من : جعلت فداك، و(بسمل) من : بسم الله الرحمن الرحيم.
2. **النحت الوصفي :** وهو أن تنحت كلمة واحدة من كلمتين، تدل على صفة بمعناها أو بأشد منه، مثل: (ضبطر) للرجل الشديد مأخوذة من ضبط وضبر، ومثل: الصّلدم. وهو الشديد الحافر مأخوذة من الصلد والصدم.(8)
3. **النحت الاسمي :** وهو أن تنحت من كلمتين اسما، مثل : (جلمود) من : جمد وجلد، ومثل (حبقر) للبرد، وأصله حب قرّ.(9)
4. **النحت النسبي :** وهو أن تنسب شيئا أو شخصا إلى بلدتي: (طبرستان) و(خوارزم) مثلا، تنحت من اسميهما اسما واحدا، على صيغة اسم المنسوب، فتقول (طبرخزي) ونحو ذلك.(10)
5. **النحت الحرفي :** مثل قول بعض النحويين، إن (لكنّ) منحوتة، فقد رأى الفراء أن أصلها (لكن أنّ) طرحت الهمزة للتخفيف ونون (لكن) للساكنين، وذهب غيره من الكوفيين إلى أن أصلها (لا) و (أن)

والكاف الزائدة لا التشبيهية، وحذفت الهمزة تخفيفا.(11)

6. وهناك تأويلات ألفاظ قائمة على وجوه فكهة يمكن حملها على النحت، وذلك كالذي أورده الجاحظ (ت،255هـ) عن أبي عبد الرحمن الثوري، إذ قال لابنه: «...أي بنيّ، إنما صار تأويل الدرهم، دار الهمّ، وتأويل الدينار، يدني إلى النار».(12)

ومنه «كان عبد الأعلى إذا قيل له : لم سمي الكلب قلطيا ؟ قال: لأنه قل ولطى، وإذا قيل له: لم سمي الكلب سلوقيا؟ قال: لأنه يستل ويلقي، وإذا قيل له: لم سمي العصفور عصفورا؟ قال: لأنه عصى وفرّ».(13)

وقد فهم الباحثون المتأخرون نص ابن فارس : «وهذا مذهبنا في أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف، فأكثرها منحوت»(14) فهموه فهما مختلفا، فقد استوحى بعضهم منه أن صاحبه يرى أنه قياسي، يقول إبراهيم أنيس: «ومع وفرة ما روي من أمثلة النحت تحرّج معظم اللغويين في شأنه، واعتبروه من السماع، فلم يبيحوا لنا نحن المولدين أن ننهج نهجه، أو أن ننسج على منواله. ومع هذا فقد اعتبره ابن فارس قياسيا، وعدّه ابن مالك في كتابه التسهيل قياسيا كذلك».(15)

واستند في حكمه على أن ابن مالك يعده قياسيا، على ما أورده السيوطي : «وقال ابن مالك في التسهيل: قد يبنى من جزأى المركب فعلل، بفاء كل منهما وعينه، فإن اعتلّت عين الثاني كمل البناء بلامه أو بلام الأول، ونسب إليه».(16)

ونجد أبا حيان في شرح التسهيل يخالف ابن مالك، حين قال: «وهذا الحكم لا يطرد، إنما يقال منه ما قالته العرب، والمحفوظ عبشمي في عبد شمس، وعبدري في عبد الدار، ومرقسي في امرىء القيس، وعبقسي في عبد القيس، وتيملي في تيم الله».(17)

وقد علقت لجنة النحت المشكلة من مجمع اللغة العربية في القاهرة على هذا الاختلاف بالقول: «... وقد نقلنا فيما تقدم عبارة ابن فارس في فقه اللغة، وهي لاتفيد القياسية إلا إذا نظر إلى أن ابن فارس ادعى أكثرية النحت فيما زاد عن ثلاثة، ومع الكثرة تصح القياسية والسماعية».(18)

وهكذا يظل النحت بين قياس وسماع بين اللغويين حتى «تجدد البحث أخيرا حول إباحته أو منعه، فرأى رجال الطب والصيدلة والعلوم الكيماوية والحيوانية والنباتية في إباحته وسيلة من خير

الوسائل التي تساعدهم عند ترجمة المصطلحات الأجنبية إلى اللغة العربية، تلك المصطلحات التي يغلب عليها عند الفرنجة التركيب من كلمتين متمازجتين مختصرتين أو أكثر على طريقة تشبه النحت العربي، فلو ترجمت الكلمتان أو الكلمات ترجمة حرفية بغير اختصار لنشأ من ذلك اصطلاح عربي طويل مركب من كلمتين ثقيلتين أو أكثر، أما إذا تناولها بالترجمة أولا ثم بالنحت على الطريقة العربية، فإننا نصل إلى اصطلاح عربي خفيف». (19)

وقد حاول جرجي زيدان أن يرد بعض الألفاظ العامية إلى النحت عند تحليله إياها، مثل: (شلون) و(شو) و(ليش) و(ايش) ونحوها، إلا أن رأيه في النحت بناه على أساس أنه مضر باللغة، ويفهم ذلك من قوله: «النحت ناموس فاعل على الألفاظ وغاية ما يفعله فيها إنما هو الاختصار في نطقها تسهيلا للفظها، واقتصادا في الوقت بقدر الإمكان، وهذا الناموس لم تنج من فتكه لغة من لغات البشر أدناها وأسماها، بل جرى منها على السواء من أول نشأتها، ولم يزل حتى الآن ولن يزال إلى ما شاء الله». (20)

وقد حاول الدكتور رمسيس جرجس عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة استقراء مناهج العرب في النحت وتوصل إلى الحقائق التالية:

«أولا : أجازوا الأخذ من كل الكلمات أو من بعضها.

ثانيا : يلاحظ اعتبار ترتيب الحروف الأصلية، وما عدا ذلك فهو شاذ مثل: طبلق (بتقديم الباء على اللام) من أطال الله بقاءك، قياسها: طلبق.

ثالثا : لا يشترط التزام الحركات والسكنات الأصلية، مثل : سبحل من سبحان الله.

رابعا : يصاغ وزن فعلل بتكرير المقطع الأول مثل : بأبأ من بأبي أنت وأمي». (21)

وبعد الاستقصاء الذي جهد به الدكتور رمسيس جرجس فإنه يقرر حصر استعمال النحت في العلوم فقط، قال: «يدعي البعض أن النحت يأتينا بألفاظ غريبة على السمع، معقدة تربك مستعملها ونسوا أننا رغم تمسكنا بالدقة العلمية لا نطالب بتضحية حلاوة الجرس، ولا باستعمال النحت في الأدب والموسيقى والفنون، بل نشدد في حصره في العلوم: كالطب والكيمياء والفيزياء والرياضة، فلن يخشى الأدباء فساد

الشعر والغناء. ونحن راضون عن الألفاظ العلمية المستغربة، وسيكون وقعها ثقيلا في أول الأمر، لكن إذا ما تداولتها الألسن، واعتادتها الآذان أصبحت موسيقية أكثر من المصطلحات الغربية». [22]

أما المستشرق الروسي كيفورك ميناجيان فقد جعل النحت أحد أساليب تطوير اللغات الهندوأوروبية على أساس قوانينها الداخلية، إذ المهم المحتوى وليس الشكل قال:

«وتمكنت من نحت مصطلحات تتكون من عشرات الأحرف وهي مقبولة لديهم وسائرة، ونذكر على سبيل المثال:

في الألمانية: Glasfaserverstarkung

في الإنجليزية: Octeochondrdystrophy [23]

ومع طول الكلمات المنحوتة وثقلها على اللسان فإنه لا يجرؤ أحد على نقدها مهما كانت مكانته العلمية». ويرى ميناجيان بأن اللغة العربية في حاجة إلى النحت «ولكن العلماء لجأوا إليه بتحين، ولم يعطوه انطلاقا للتكاثر في القديم، لذلك نجد أن عدد الألفاظ المنحوتة في اللغة العربية في القديم حوالي مائة لفظ وربما أكثر بقليل». [24]

وقد أدرك مجمع اللغة العربية في القاهرة أهمية النحت فاتخذ قرارا بجوازه، إذ قرر أن: «النحت ظاهرة لغوية احتاجت إليها اللغة العربية قديما وحديثا، ولم يلتزم فيه الأخذ من كل الكلمات ولا موافقة الحركات والسكنات. وقد وردت من هذا النوع كثرة تجيز قياسيته، وثم يجوز أن ينحت من كلمتين أو أكثر اسم أو فعل عند الحاجة على أن يراعى ما أمكن استخدام الأصلي من الحروف دون الزائد، فإن كان المنحوت اسما اشترط أن يكون على وزن عربي والوصف منه بإضافة ياء النسب، وإن كان فعلا كان وزن (فعلل) أو (تفعلل) إلا إذا اقتضت غير ذلك الضرورة جريا على ما ورد من الكلمات المنحوتة» [25]. والالتجاء إلى النحت مشروط بوجود الحاجة إليه وخاصة في لغة العلوم، يقول الدكتور أحمد مطلوب: «فما تعارف عليه العلماء وما استقرت عليه الكتب العلمية ينبغي ألا نغير فيه، كما أنّ استعمال كلمتين خير وأجدى إذا أدى النحت إلى مثل المصطلحات المذكورة التي لايقبلها الذوق اللغوي السليم ولا التحديد العلمي القويم». [26]

ويرى محمود شكري الألوسي أن النحت جزء من الاشتقاق الأكبر وهو عنده «قياس مطرد لأن الاشتقاق قياسي في اللغة العربية». [27]

وبالمقابل فقد اعترض الأب أنستاس الكرملي على خطة المجمع اللغوي العراقي

الذي أسس عام 1926 بعد أن ذهب معظم أعضائه إلى قبول النحت في هذا العصر فقال: «لا أرى حاجة إلى النحت، لأن علماء العصر العباسي مع كل احتياجهم إلى ألفاظ جديدة لم ينحتوا كلمة واحدة علمية، هذا فضلا عن أن العرب لم تنحت إلا الألفاظ التي يكثر ترددها على ألسنتهم فكان ذلك سببا للنحت، أما التي لا يكثر ترددها على ألسنتهم، فلم يحلموا بنحتها، ومثلها عندنا الآن (إيش) و(ليش) و(موشي) أي: ما هو شيء، و(شنو) أي شيء هو؟ إلى غيرها».(28)

أما ساطع الحصري فقد توقع أن يركز المعنيون على النحت لاستيعاب المستجدات العلمية، وذلك حين قال في مجلته (التربية والتعليم): «ونحن نعتقد بأننا وصلنا إلى دور اشتدت فيه حاجتنا إلى الاستفادة من النحت اشتدادا كبيرا، ونظن أن الأفعولة ستعود إلى النشاط، وتجود علينا بعدد كبير من المصطلحات التي نحتاج إليها في نهضتنا الفكرية الجديدة، وبناء على ما ذكر سنشرع في إيراد ما كتبه علماء اللغة عن النحت وأهم الكلمات التي تولدت من النحت، ثم نلحق بذلك بعض الاقتراحات حول كيفية الاستفادة من النحت في وضع المصطلحات العلمية الحديثة».(29)

وقد قام القزاز بتلخيص تأثير النحت غير المتوازن في جميع الكلمات في بضعة نماذج أساسية كما يلي:

أ ـ لا يعتري الكلمتين أي تغيير كان، إذ الواحدة تلتصق بالأخرى فتصبحان كلمة واحدة بدون أن يتغير شيء من حروفهما وحركاتهما كما في (اللاإرادية) وفي (بينما).

ب ـ لا يحدث تبدل في الحروف غير أنه يحدث بعض التغيير في الحركات كما في (شقحطب) و(فذلكة).

ج ـ تبقى إحدى الكلمتين كما هي، وتختزل الأخرى وحدها كما في (مشلوز) و(محبرم).

د ـ يحدث اختزال في الكلمتين ويكون هذا الاختزال متساويا في كلتيهما، فلا يدخل في الكلمة المنحوتة إلا حرفان من كل منهما كما في (تعبشم) و(هرول).

هـ ـ يحدث اختزال في الكلمتين، ولكنه لا يكون متساويا في كلتيهما كما في (سبحل) و(بأبأ).

و ـ تحذف بعض الكلمات حذفا تاما، فلا تترك في المنحوت أي أثر في (طليق) و(هيللة) فإن كلمة (الله) في الأولى وكلمة (لا وإلّا) في الثانية قد حذفت

بتاتا، ولم يبق لها أثر في المنحوتات المذكورة. يعني: «أطال الله بقاءك، ولا إله إلا الله»[30]. وقد استفاد المعاصرون من عملية البناء النحتي في بعض المستجدات العلمية، ونرى في الكتب والمجلات كثيرا من الكلمات المنحوتة مثل البرمائية، والحينبات من الحيوان والنبات والحويمن من الحيوان المنوي كما أننا نقول: لا أخلاقي، ولا اجتماعي ولا جنسي ولا مائي. إضافة إلى لا متناهي، ولا مركزية، ولا شعوري، ولا إرادي.

- **النحت في اللغات الأخرى :**

يرى المستشرق كرنكر أن النحت لا يأتلف مع روح اللغات السامية[31]، لأنها فيما يقدر العلايلي لغات تحتكم فيها الحركات دون الحروف[32] وهذه اللغات - برأيهم - يمكن أن تستغني عن النحت بأوزانها المتكاثرة وبطرق التوسع الأخرى فيها وأولها الاشتقاق.

فإذا تجاوزنا رأي هذا المستشرق، إلى آراء الذين قالوا بأن النحت هو أحد مجالات نمو اللغات جميعها، فهل - عندئذ - يمكن إعادة النحت في اللغة العربية إلى أصول غير عربية؟

ونحن في مجال الإجابة نورد بعض أقوال العلماء حول التأثر والتأثير. فتبادل التأثر والتأثير بين اللغات قانون اجتماعي إنساني واقتراض بعض اللغات من بعض ظاهرة إنسانية.[33]

وقد ثبت بالفعل أن اللغة العربية لم تعزل نفسها عن بقية اللغات فقد قرر إبراهيم أنيس بعد استقراء للغة أن «نحو نصف ألفاظ اللغة الفارسية مستعار من اللغة العربية، ونصف ألفاظ اللغة التركية مأخوذ من الفارسية أو العربية، وثلث ألفاظ اللغة الإنجليزية فقط هي التي تعد بحق ألفاظا أصيلة سكسونية».[34]

ومن الدلائل على صحة ما ذهب إليه إبراهيم أنيس أن القرآن اشتمل على بعض الألفاظ المعربة، مثل: سجيل ومشكاة وأباريق واستبرق.[35]

وقد اقتبس العرب بعض أسماء العقاقير في العصر العباسي، مثل: البقدونس والزيزفون والسقمونيا من اللغة اليونانية، والبابونج والبورق والبنج والزرنيخ والزاج من الفارسية، كما أدخلوا من أسماء الأمراض ونحوها من الاستعمالات الطبية: القولنج والترياق والكيلوس... من اليونانية، وسرسام ومارستان من الفارسية.[36]

والطريقة التي لجأ إليها العرب في النقل عند التعريب هي صياغة المعرب على نمط الكلام العربي، مثل درهم

ألحقوه ببناء هجرع وبهرع ألحقوه بسلهب، ودينار ألحقوه بديماس وكذلك ألحقوا (اسحق) بإعصار، ويعقوب بيربوع وجورب بعوطب.[37]

وهكذا.. يظل لفظ العربية متميزا مختلفا، ويظل بناء الكلمات الداخلي اللفظي فيها قويما خالصا.

وما دامت اللغات الحية من طبيعتها النمو والتطور فإنها لا تكون كذلك بمقتضى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فقط، بل إنها تستمد من طبيعتها اللغوية الخاصة، وقدرة تلك الطبيعة على التمطط والتكيف والتعصر.[38]

ويأتي عصر النهضة، وتلج الحاجة إلى النحت ليكون قوة لنمو اللغة وتكاثر كلمها وتشعب صيغها، ولكن علماء العرب يتوقفون دون الإفادة منه وأعماله، لأنهم كانوا يرون «أنه سماعي مقيد بأزمان خاصة، وأشخاص معينين».[39]

ومفهوم النحت اعتراه بعض التغيير عما كان عليه فهم القدماء له، «فالقدماء كانوا يطلقون (التركيب) على النحت (كما رأينا عند الخليل) ويطلقونه حتى على هذه الأمثلة المأثورة من النحت مثل: حيعل وحولق وتعبشم»[40] بينما أصبح معناه لدى المحدثين بأنه «لون من ألوان التركيب» تنتقص فيه المواد المركبة وتختزل، على حين يجمع التركيب بنيتي الكلمتين دون انتقاص».[41]

ومن اللغويين المعاصرين من يعبر في صراحة عن النحت في معناه الاصطلاحي (بالتركيب والاختزال).[42]

وسيبويه يعرض للنحت ولكنه لا يسميه، وذلك إذ يحدث عن النسب إلى المضاف من الأسماء يحكي أنهم «قد يجعلون للنسب اسما بمنزلة جعفر، ويجعلون فيه من حروف الأول والآخر ولا يخرجونه من حروفهما ليعرف».[43]

• نماذج من النحت في معجم مقاييس العرب :

يقول ابن فارس في (باب ما جاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف أوله دال): «وسبيل هذا سبيل ما مضى ذكره، فبعضه مشتق ظاهر الاشتقاق وبعضه منحوت بادي النحت وبعضه موضوع وضعا على عادة العرب في مثله».

(بحتر) وهو القصير المجتمع الخلق، وهذا منحوت من كلمتين، من الباء والتاء وهو من بترته فبتر، كأنه حرم الطول فبتر خلقه، والكلمة الثانية: الحاء والتاء والراء، وهو من حترت واحترت، وذلك ان

لا تفضل على أحد، يقال أحتر على نفسه وعياله أي ضيّق عليهم، فقد صار المعنى في القصير لأنه لم يعط ما أعطيه الطويل».[44]

ومنه :

خضارع = خضع + ضرع (النحيل).

الحرقوف = حرف + حقف (الدابة المهزولة).

الحلبس = حلس + حبس (الشجاع).

دلمس = دلس + دمس (الداهية).

الصلقم = صلق + لقم (الشديد العض).

الصمعرة = صمر + معر (ما غلظ من الأرض).

الصمالخ = صلخ + صمل (اللبن الخاثر المتلبد).

القرضوب = قرض + قضب (اللص).

الهجرع = هرع + هجع (الخفيف الأحمق).

الخيتعور = ختر + ختع (الدنيا أو المرأة السيئة الخلق أو الشيطان).

الدّعبل = دبل + عبل (الجمل العظيم).

ازلغب = زغب + لغب (إذا نبت الشعر بعد الحلق).

الشناعيف = شعف + نعف (رؤوس تخرج من الجبل).

العصلبي = عصب + صلب + عصل (الشديد الباقي).

القلفع = قفع + قلع + قلف (ما يبس من الطين على الأرض فيتقلف).

الكردوس = كرد + كرس + كدس (الخيل العظيمة).

النقرشة = نقر + قرش + نقش (الحس الخفي).

وإذا عرفنا أن ابن فارس كان يصدر في تأصيلاته ومقاييسه جميعا، في الثنائي المضاعف والثلاثي والرباعي والخماسي كان يصدر في ذلك كله عن المعنى، ويوجهه المعنى بعد ذلك إلى أصول هذه الأبنية التي قد يرتد إليها، فإنه من الطبيعي ممن لم يخبروا اللغة كخبرته أن يردوا نظريته في النحت، ومن هؤلاء الدكتور مصطفى جواد حين قال: إن «ما ذكره ابن فارس في مقاييس اللغة لا يعدو الظن والتخمين والتأويل البعيد».[45]

ويعترف العلايلي بقدرة ابن فارس الإبداعية، مع عدم قناعته بالنحت حين قال: «إن يكن يدل على شيء فعلى قدرة لغوية فقط وتحيّل عقلي، وأما شيء غير هذا فيما يتعلق بأنه صواب في نفسه، وصحيح أنه كذلك كان في صنيع العرب، فليس من وجهه».[46]

ومن ناقشوا ابن فارس في رأيه

بالمنحوت كرامت حسين الكنتوري، حين حاول تفسير الرباعي والخماسي باعتبار ظواهر التشديد والإبدال في الثلاثي وعنده أن الرباعي والخماسي فرعان لما هو أبسط منهما، يعني الثلاثي مثلا (دحرج) عنده «مأخوذ من درج صار درج بالاشتقاق الصرفي درّج إظهارا لزيادة الشدة في المعنى بتشديد الراء في التلفظ، لأن الزيادة في اللفظ تدل على إضافة أمر جديد إلى المفهوم الحقيقي للمصدر ثم ببدل إحدى الرائين بالحاء صار درّج دحرج... والدليل على اتخاذ دحرج من درج قرب معنى الأول من معنى الثاني مع زيادة يسيرة في الصورة». (47)

يورد المعرّي في كتابه (عبث الوليد من العامي) المنحوت : يبظرمه، البظرمة، ويقول: أنها مقيسة على قولهم: عبدريّ وعبشمي ويشبهها على قرب، ببسمل وحوقل وجعفل، ثم يقول المعرّي: «ولا يعرف مثل هذه الأشياء في الكلام القديم وإنما هي محدثات، ويجوز أن يكون المنقول من كلام الجاهلية ليس فيه شيء من هذا النوع». (48)

وتؤكد لجنة النحت التي تناولته في مجمع اللغة العربية: «أن ابن فارس ركب التعسف والشطط في حمل ما زاد على ثلاثة على النحت». (49)

وفي النظرة التاريخية للنحت يقول محمد المبارك:

«وقد يكون النحت طريقة كانت مستعملة في عصور العربية القديمة، ومن تلك العصور بقيت هذه الألفاظ الرباعية والخماسية المنحوتة ولكن العربية فيما بعد أهملت هذه الطريقة في توليد الألفاظ الجديدة، وسلكت طريق الاشتقاق، وهي طريقة أدل على الحيوية وأشبه بطريقة توالد الأحياء في زيادتها ونموها بخلاف النحت، فطريقته أشبه بطريقة الجوامد في زيادتها ونموها عن طريق اللصق والإضافة». (50)

ويرى الدكتور نهاد الموسى أن «النحت كان عند ابن فارس منهجا في تأويل مشكل اللغة، هو هذا الرباعي وذلك الخماسي، ولذا كان النحت عند ابن فارس متنفسا ينفذ منه إلى حل هذا الإشكال». (51)

وهو يرى أن النحت في العربية يرتكز على عمليتي التركيب والاختزال شأنه في ذلك شأن اللغات الأوروبية والإنجليزية. (52)

- **التعليلات التي استند إليها رافضو النحت :**

يعلل المانعون للنحت بأن قلة الأمثلة المسموعة عن العرب هي السبب في ذلك،

ومن هؤلاء: الأب مرمرجي الدومنكي حين ذكر بأن العربية ليست لغة نحت «إذ المنحوتات فيها سماعية لا قياسية، وهي ألفاظ قلائل تذكر المعجمات من أي كلمات نحتت، مثلا: البسملة، الحمدلة،.... فهي منحوتة من....» (53)

وقال مثل ذلك الأب الكرملي حين قرر أن النحت في العربية: «قليل لايعتد به، ولا يتقوم منه قواعد، ولا يصلح لأن نجري عليه جريا». (54)

ويحصر العلايلي هذه القلة بقوله: «فإذا أردنا أن نحصي عمل النحت في العربية، فلسنا نراه في غير الموازين، وبعض الأدوات فعلية أو اسمية أو مشتركة، وما سبق أن سميناه بالرباعي المثلي». (55)

وهكذا يرى مصطفى جواد إذ يقرر أن «كل ما ثبت عندي منه عدة رموز جملية مثل سبحل فلان أي قال: سبحان الله... ولولا أن هذه الجمل كانت من الشهرة والتكرار بالمكان المعلوم، ما استجازوا لها هذا الاختصار». (56)

أما القرماوي فإنه يرى «عدم أهلية العربية القديمة وبالتالي الحديثة لاستعمال التركيب اللفظي في استنباط الكلمات الجديدة»...

وهو يرى أيضا «بأن طريقة التركيب هذه قد أخذت أخيرا تتسلل جزئيا خفياً، وذلك بواسطة كلمات أجنبية مركبة أقحمتها الصحافة والإذاعة في العربية كـ: أنجلو سكسون مثلا، وربما كان هذا أول مرحلة في سبيل تطور مقبل يحدث في العربية». (57)

وانه لمن المستغرب حقا أن يقال أن مثل السبحلة والحمدلة لازمة، وأن غيرها غير لازم، مع أن الوضع إنما يراعى فيه اللزوم والضرورة، فإذا سنح للعرب نحت ألفاظ، فلماذا لا يكون لنا مثل هذا الحق أيضا، وبخاصة أن حاجتنا له أكثر وأشد إلحاحا «فنحن نحتاج إلى النحت كذلك في المصطلحات العلمية ضمن حلقات من التخصص يكون فيها المصطلح المنحوت من الشهرة والتكرار بالمكان المعلوم». (58)

. يتساءل مصطفى جواد حول هذا الموضوع بقوله: «فلماذا لا نجوز لأنفسنا في هذا الدور الذي يمتاز بالتفكير الشديد، والنظر المعضل، والعلم الدقيق، ما جوزه أجدادنا لأنفسهم في خلال أبحاثهم السطحية، وتفكيراتهم النظرية البسيطة». (59)

ولجرجي زيدان رأي حول الأخذ بالنحت، حين يقول: «النحت ناموس

فاعل على الألفاظ، وغاية ما يفعله إنما هو الاختصار في نطقها تسهيلا للفظها، واقتصادا في الوقت بقدر الإمكان، وهذا الناموس لم تنج من فتكه لغة من لغات البشر أدناها وأسماها، بل قد جرى فيها على السواء من أول نشأتها، ولم يزل حتى الآن ولن يزال إلى ما شاء الله، ولا يخفى أنه مهما كان من عظيم أمره، وكيفما تنوعت طرق عمله، ليس للإنسان في ذلك يد اختيارية، فالنحت جار في الألفاظ عن غير قصد من الناطقين». (60)

ومع قيمة هذا الرأي إلا أنه لا بد من ضوابط وأسس يلجأ إليها عند النحت، وقد لاحظ ذلك عبد الله أمين فأوجب أن يراعى عند النحت أمران، هما:

«**الأول** : أوزان الكلمات العربية، فلا بد لكل كلمة منحوتة من أن تكون على وزن من أوزان الكلمات العربية، **الثاني** : انسجام الحروف عند تأليفها في الكلمة المنحوتة، ويتحقق الأول بشيئين:

الأول : ألا يجتمع في الكلمة المنحوتة حرفان أو أكثر من الحروف التي تحاشى العرب جمعها في كلمة واحدة.

الثاني : لا بد في كل كلمة عربية، رباعية، أو خماسية، مجردة من حرف أو أكثر من حروف الذلاقة وحروف الذلاقة ستة، وهي: الفاء والباء والميم، وثلاثة أَسَلية وهي: الراء والنون واللام». (61)

وبمثل هذه الضوابط نكون قد وضعنا حدا للتردد الذي يبديه بعض اللغويين المعاصرين مثل إبراهيم أنيس، حين يقول: «فحين نستعرض الشواهد الصحيحة المروية عن العرب في النحت، لا نكاد نلحظ نظاما محددا نشعر معه بما يجب الاحتفاظ به من حروف، وما يمكن الاستغناء عنه». (62)

وأعتقد أن تعويم البت في الأخذ بالنحت من القيمين على المجامع اللغوية يعيق تطور اللغة ونموها فمثل قول أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس إذ يشعر: «أن النحت في بعض الأحيان ضروري، يمكن أن يساعدنا على تنمية الألفاظ في اللغة، ولذا نرى الوقوف منه موقفا معتدلا، ونسمح به حين تدعو الحاجة الملحة إليه ولا سيما حين يجري على نسق من الأمثلة القديمة» من شأن هذا القول أن يبقي الموضوع في ملف الوثائق دون وضع تلك الضوابط.

وقد حاول كيفورك ميناجيان(63) أن يصنف هذه القواعد بتقسيم المنحوتات إلى رباعي وخماسي وسداسي وسباعي وثماني بصياغة المنحوت على أوزان

استوحاها من المنحوتات القديمة مثل:

أ ـ النحت على وزن (فعّل) :

فعل + فعل = فعـ... + ... عـل.

مثال : خلسل.

خلّ + عسل = خل + ... سل.

ب ـ على وزن فعّل ولكن من :

فعل + فاعل = فعـ... + ... عـل.

مثال : جوثل.

جوز + ماثل = جو ... + ... ثل

ج ـ على وزن (فعّل) من :

فعالة + فعل = فعـ ... + ... عل.

مثال : حثمر.

حثالة + خمر = حثـ ... + ... مر.

د ـ على وزن (فلفع). مثل : عنشم.

فعل + فعل = فـ ... ل + فع.

عين + شمس = عنشم.

هـ ـ على وزن (فعفع). مثل : شبزج.

فعل + فعال = فعـ ... + فع.

شبه + زجاج = شبزج.

وهكذا في الخماسي فما أكثر.

وبدون هذه الضوابط سيبقى الأمر عائما وستبقى اللغة فاقدة عنصرا من أهم عناصر نموها، لأن التعبير كما يقول الأفغاني: «التعبير بغير كلمة... خير من نحت غامض». (64)

وكما يقول مصطفى الشهابي في أنه : كثيرا ما تكون ترجمة الكلمة الأعجمية بكلمتين عربيتين أصلح وأدل على المعنى من نحت كلمة عربية يمجها الذوق، ويستغلق فيها المعنى». (65)

وخلاصة القول أن الخلاف بين المحدثين من اللغويين والنحويين على بعد مذاهبه وتعمقها لم يردّ النحت، بل نكاد نجزم بعد مناقشة آرائهم أن لا مدفع له، وأنه أصل في اللغة العربية، قوامه التركيب والاختزال مما يجعله نوعا من أنواع الاشتقاق الذي هو خصيصة اللغة العربية الأولى.

• النحت عند الباحثين وأهل العلوم:

يعتقد غير قليل من الباحثين أن التوسع في النحت أصبح من أهم حاجات اللغة العربية، حيث يعتقدون بأن لا سبيل بدونه إلى إغنائها بما تحتاج إليه من المصطلحات العلمية المتنوعة. (66)

وقد جدّ بعضهم في وضع المصطلحات تعريبا واشتقاقا ونحتا، من هؤلاء الباحثين إسماعيل مظهر الذي وضع في معجمه (قاموس النهضة) كثيرا من مصطلحات الطب والنبات والتشريح والجيولوجيا والكيمياء والرياضة والأحياء والحيوان والفلك والملاحة الجوية، والهندسة الميكانيكية والاقتصاد والطبيعة،

وللنحت في هذه المصطلحات نصيب منها ليس بالقليل، ومن هذه المنحوتات:

الكربض من (كريات الدم البيضاء).

الضوكر من (الكرة الضوئية).

النزقمة من (نزع القيمة). (67)

وحاول مظهر أن يضع أسسا للنحت، تبعد التشويه عن اللغة العربية إن روعيت، وتتمثل في:

1. ألا يكون نابيا في الجرس عن سليقة العرب.

2. أن يكون المنحوت على وزن عربي نطق به العرب.

3. أن يؤدي حاجات اللغة من إفراد وتثنية ونسب وإعراب. (68)

ويعلق الدكتور نهاد الموسى على عمل مظهر هذا بقوله : «وأول اليقين أن عمل (مظهر) هذا لا يضيف إلى النحت في العربية خلفية أصلية جديدة، لأنه تقليد لعمل ابن فارس، ينقصه الإحكام فاليقينية والإلزام». (69)

ومن المحدثين الذين وجدوا في النحت سبيلا لحل مشكلة نقل المصطلحات العلمية إلى العربية الدكتور محمد صلاح الكواكبي الذي قضى وقتا ليس بالقليل في وضع المصطلحات بطريقة النحت، وهو يشرح مبررات اللجوء إليه، حيث يقول: «في الكيمياء عدد وافر جدا من المصطلحات الأجنبية المنحوتة يقف أمامها المؤلف أو المترجم حيران لا يدري كيف يعمل لنقلها إلى العربية: هل يترجمها؟ وإذن يتعرض لصعوبة الوصف والاشتقاق من الكلمة الأعجمية بكلمتين أو بجملة إضافية، أم يستعملها كما هي أعجمية فقد لا تسيغها أذن السامع أو المطالع لعجميتها أم يعمل هو أيضا على النحت والصقل ليخرج بكلمة ملائمة للغرض يسهل الاشتقاق منها والنحت، وهذا ما كنت أتعرض إليه من الصعوبات في مؤلفاتي الكيمياوية المطبوع منها والمخطوط، فدفعتني الحاجة الملحة إلى النحت مثلما فعل الغربيون في مصطلحاتهم العلمية، لأني وجدت فيه حلا للمعضلة، وتيسيرا لاجتياز العقبات التي تعترض المؤلف والمترجم في علم من العلوم، ذلك لمرونته وسهولة الاشتقاق والوصف من الكلمة المنحوتة المصقولة، ولأنه يجعل المجال واسعا في إيجاد كلمات لما يقابلها بالإفرنجية». (70)

ويرى الدكتور الكواكبي أن غبنا يلحق بالعربي الحديث في أحكام اللغويين القاسية. إذ «لماذا يمنحون العربي القديم حق النحت... ويمنعون العربي الحديث أن ينهج نهجه فينحت هو أيضا...؟ و«لماذا يرضون أن يقول العربي القديم:

ماورْد، مـازهر، مجنـرم، ولا يقبلون مـن العربي الحديث أن يقول: ماغول، ماسل، مخزلد، خزلدة؟ و«لماذا يسمحـون للقديم أن يقول: بسملة، حمدلة، حوقلة، تعبقس، ولا يقول الحديث: فحملة، بلمهة، بلسمة، حلمهة، حسفجة، تعبشم؟». [71]

ومـن أهـل العلـوم النـاحتين المقلين الـدكتـور هيثـم الخيـاط، وفي كتـابـه: (الكيميـاء السريـرية العـامـة) يحاول أن يسلك طريقا مختلفـا عما عهد في النحت، وقـد استعـان في منحـوتاتـه بلـواصـق معـرّبة، مثـل كهـرحيـل مـن كهـربـاء ورحيل، وغولبـم من غول بلا مـاء، وهو في كتابه هذا يـرى أن يستعمل النحت في حدود الحاجة إليه: «وخاصة حين الحاجة إلى النسبـة، وحين تتكرر الكلمـة كثيرا في صفحة واحدة». [72]

ومن الذين شغلهم النحت من المحدثين الـدكتور إبـراهيم أنيـس الذي حـاول أن ييسر على لجان المصطلحـات العلميـة بـوضـع أسـس للنحـت ليعتمـدوهـا في أعمالهم وتتلخص فيما يلي:

1. أن يجعلوا الكلمة المنحـوتة حين تكون فعلا متعديا على (فعلل) ويكون لازمه (تفعلل) والمصـدر (الفعللة) للمتعـدي (والتفعلل) لـلازم، وقد جـاءت معظم الكلمات المنحوتة والمروية عن العرب على هذه الصورة.
2. أن يجعلوا الوصف على صورة (فعلّي) أي بإضـافة النسـب، مثل : عبشمـيّ، وحضرمـيّ، ودرعمـيّ، وأنفمـيّ.
3. أن يقتصروا على النحـت مـن كلمتين، فما يظـن أن النحـت في المصطلحـات العلمية الحديثة، يتطلب أن يكون من أكثر من كلمتين.
4. أن يؤخـذ من كل مـن الكلمتين بعض الأصوات مع مراعاة ترتيبها.
5. أن يعرفوا أن نجاح الكلمة المنحوتة (في رأيـه) يتوقـف على حسـن جرسهـا، ومقدار إيحائها بالمعنى الأصلي. [73]

كما رأت لجنـة المصطلحـات الطبيـة المكلفـة بـدراسة الكلمات التـي اقترحـهـا الـدكتور رمسيس جرجـس «أن يقتصر استخـدام النحـت على مقتضيـاتـه الضروريـة، وأن تكـون الكلمة المنحـوتـة مستساغـة واضحة الـدلالة، وعلى أوزان اللغة العربية المألوفة». [74]

وكما وضعوا ضوابط للنحـت فقد نوّه الدكتور إبراهيـم مدكور في الشروط التي يجب تـوافـرها في العالِـم الـذي يصنـع المصطلحات، وهـي: «أن يعرف جيدا لغته، وما اشتملت عليه مـن مصطلحات قديمة وحديثـة، ويتمكن منها كل التمكـن، وبذا يستطيع أن يلجأ إليهـا أولا ويستمد منها-

ما هو في حاجة إليه من الألفاظ قبل أن يلجأ إلى لغة أجنبية، وفي وسعه أن يشتق من لغته، وينحت ويضمن ويلجأ إلى المجاز - وبابه فسيح - كي يؤدي المعنى العلمي الجديد، فلا يلجأ إلى التعريب إلا في حالات خاصة وعند الضرورة القصوى». [75]

ومع اختلاف أعضاء مجمع اللغة العربية في القاهرة وبخاصة اللجنة المشكلة لبحث موضوع النحت ومدى الاستفادة منه، إلا أنهم اتفقوا في النهاية على إقرار البحث الذي أنجزه الشيخ إبراهيم حمروش وقد تضمن البحث ثلاثة أضرب من المنحوتات:

1. المنحوتات الإسلامية : حيث أورد التقرير جانبا من هذه المنحوتات، يمكن تلخيصها بما يأتي:

أولا - أنه لا يجب في النحت الأخذ من كل كلمة من المنحوت منه، فإن الدمعزة والكبتعة لم يؤخذ فيهما حرف من حروف لفظ الجلالة.

ثانيا - أنه لا يجب أن تؤخذ الكلمة الأولى بتمامها كما هو واضح.

ثالثا - أنه لا تجب المحافظة على حركات الحروف وسكناتها في النحت». [76]

2. ما نحت من المركب الإضافي مما سمي بالنحت النسبي، وأورد التقرير منحوت من هذا القبيل. حصكفي نسبة إلى حصن كيفا، ورسعني في النسبة إلى رأس عين. [77]

3. ما نحت فيما زاد عن الثلاثي، وقد نقل التقرير ما قال ابن فارس في النحت من فقه اللغة، وما عرض من مذهبه في المقاييس ونماذج من ذلك.

والخلاصة هي أن النحت يعد واحدة من وسائل توسّع اللغة في التعبير عن المعاني، وهو لا يقل شأنا في ذلك عن التعريب والنقل المجازي والاشتقاق، وليس من الصعب استلهام ضوابط نستنير بها لاستغلال عنصري التركيب والاختزال لتوسيع قاعدة الاشتقاق من خلال النحت، فنكون بذلك قد يسرنا على أهل العلوم مغبة الوقوع في مزالق التشتت والاختلاف في إيجاد مصطلحات للمستجدات العلمية، والابتكارات التي تبتكر خارج حدود البلاد العربية.

اللغة العربية بين التأثر والتأثير

بقلم : محمد السيد علي بلاسي

إن تبادل التأثير والتأثر بين اللغات قانون اجتماعي إنساني، وإن اقتراض بعض اللغات من بعض ظاهرة إنسانية أقام عليها فقهاء اللغة المحدثون أدلة لاتحصى. والعربية في هذا المضمار ليست بدعا من اللغات الإنسانية، فهي جميعا تتبادل التأثر والتأثير، وهي جميعا تقرض غيرها وتقترض منه، متى تجاورت أو اتصل بعضها ببعض على أي وجه، وبأي سبب، ولأي غاية.[1] فإنه إذا احتكت لغة بأخرى أثرت كل منهما على صاحبتها؛ حتى ذهب بعض علماء اللغة بناء على هذه الحقيقة: إلى أنه لا توجد لغة غير مختلطة.[2]

فما من لغة قومية تستطيع الزعم أنها بريئة من كل دخيل عليها. حظ هذا الزعم صنو حظ العرقية. فلا وجود لعرقية صافية؛ إذ لا وجود لدم صاف. وهكذا اللغات فإنها تتداخل بعضها في بعض، بحكم تفاعل الحضارات؛ وهكذا تعكس واقع الشعوب.[3]

وقصارى القول : متى أتيح للغتين متجاورتين فرص للاحتكاك لا مناص من تأثر كل منهما بالأخرى، سواء أتغلبت إحداهما أم كتب لكلتيهما البقاء. غير أن هذا التأثر يختلف في الحالة الأولى عنه في الحالة الثانية. فإذا كان الفناء قد حق على إحداهما فإنها لاتقوى على مقاومة ما تقذفها به الثانية من مفردات وقواعد وأساليب، ولا تكاد تسيغ ما تتجرعه منها، فيتخمها ويضعف بنيتها فتخور قواها وتفنى أنسجتها الأصلية شيئا فشيئا حتى تزول؛ على حين أن الغالبة تسيغ كل ما تأخذه من الأخرى مهما كبرت كميته وعظم شأنه، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها، فتزداد به قوة ونشاطا، وبدون أن تدع له مجالا للتأثير في بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلي، كما كان شأن الإنجليزية والفرنسية الغالبتين من اللهجات السلتية المغلوبة بإيرلندا وويلز ومقاطعة البريتون. وإذا كان البقاء قد كتب لكلتيهما، تعمد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى فتسيغه وتقاوم آثاره الهدامة، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية، موفورة القوى سليمة البناء: كما كان شأن الفارسية

مع التركية، والفرنسية مع الإيطالية والإسبانية والبرتغالية.[4]

هذا، ومن المقرر أن المفردات التي تنتقل من لغة إلى غيرها من اللغات التي تلتقي بها؛ يتصل معظمها بأمور قد اختص بها أهل تلك اللغة أو امتازوا بإنتاجها وفي سبقهم الغير في ابتكارها.

لذا فقد انتقل إلى اليونانية ومنها إلى اللاتينية كثير من الكلمات الفينيقية المتصلة بشؤون الملاحة البحرية؛ لأن الفينيقيين هم الذين سبقوا غيرهم من الشعوب في هذا المضمار.

وقد أخذت اللغات الجرمانية عن اللاتينية كثيرا من المفردات المتصلة بالقضاء والتشريع ونظم الاجتماع وما إليها؛ وذلك لأن الرومان كانوا مبرزين في جميع هذه النواحي.

ولهذا السبب انتقل إلى الفرنسية كثير من الكلمات الجرمانية المتصلة بشؤون الحرب، وكثير من الكلمات الإيطالية المتصلة بالموسيقى والآثار والفنون الجميلة.

وكذلك انتقل إلى اللغات الأوربية وغيرها، المفردات الإنجليزية المتصلة بالألعاب الرياضية، والمفردات الفرنسية المتعلقة بالأزياء وألوان الطعام.

ومن أجل هذا؛ تنتقل مع المنتجات الزراعية والصناعية أسماؤها في لغة المناطق التي ظهرت فيها لأول مرة أو اشتهرت بإنتاجها؛ وذلك ككلمة «الشاي» ـ مثلا ـ فقد انتقلت إلى معظم لغات العالم من جزر ماليزيا التي كانت المصدر الأول لهذه المادة.[5]

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن الألفاظ الدخيلة التي تقتبسها لغة ما من أخرى، ينالها كثير من التحريف في أصواتها ودلالاتها وطريقة نطقها، فتبعد في جميع النواحي عن صورتها القديمة. وليست هذه الظاهرة مقصورة على الاقتباس الناشىء من الصراع بين لغتين كتب لإحداهما النصر، بل هو ظاهرة عامة تتحقق في جميع الحالات التي يحدث فيها انتقال مفرد من لغة إلى أخرى.[6]

مدى تأثير اللغات في اللغة العربية :

سلكت اللغة العربية مسلك غيرها من اللغات، فاقترضت قبل الإسلام وبعده ألفاظا أجنبية كثيرة، ولم يجد العرب القدماء في هذا غضاضة أو ضيرا بلغتهم التي أحبوها واعتزوا بها.[7] وليس هذا بعيب حقا، يقول الأستاذ العقاد: فإن اللغة من اللغات يعيبها على الأغلب الأعم نقصان: نقص في المفردات، ونقص في أصول التعبير. والنقص في المفردات مستدرك؛ لأنها تزاد بالاقتباس والنقل والتجديد. وما من لغة إلا وهي فقيرة لو سقط منها ما لم يكن فيها قبل بضعة قرون. أما النقص المعيب حقا فهو نقص الأصول والقواعد الأساسية في تكوين اللغة، ومن قبيله ما نسب إلى لغتنا من نقص الدلالة على الزمن في صوره المختلفة.

وإنـه لنقص خطير لـو صحـت نسبته إليهـا. ولكنـه بحمد اللـه غير صحيح. ويحق لنـا أن نقول: إن هذه اللغـة العربية لغة الـزمن لأنها تحسن التعبير عنـه، ولغة الـزمن لأنها قـادرة على مسايـرة الزمـن في عصرنا هـذا وفيما يلي من عصور. (8)

هذا، وإن العـربية لتفترق عـن غيرها مـن اللغات ببراعتها في تمثلها للكـلام الأجنبي، عن طـريـق صـوغـه على أوزانها، وإنـزالـه على أحكامهـا، وجعله جـزءا لا يتجزأ مـن عناصر التعبير فيها... (9) على أن العــرب كـانــوا في اقتراضهـم لتلـك الألفــاظ يعمـدون في أغلب الحالات إلى تلـك التـي تعبر عـن أمـور غير مألـوفة في شبـه الجزيرة، مـن أزهار وطيـور وخمور وأدوات منزلية، وغير ذلـك من كلمات تتطلبها مظـاهر الحضـارة والمدنية لـدى الأمم العـريقة التـي كانـت تتاخـم الحدود العربيـة كالفـرس واليونان. أي أن استعـارتهم في مثل هذه الحالات كـانت استعارة ضرورة وحـاجة ملحـة على أنهم في القليـل مــن الأحيـان قـد اقتبسوا أيضا بعض تلك الألفاظ الأجنبية التي لها نظـائر في لغتهـم في المعنى والـدلالـة، إمـا لإعجـابهم بأصحـاب هـذه الألفاظ والشعـور بـأنهم أرقـى ثقـافة وحضـارة أو للـدعـايـة والتفكه. (10)

ويحدثنا التـاريخ عن صلـة العرب بـالأمم المتـاخمة لهم؛ لجلـب البضـائع، أو التـزود بالثقـافات التي تمتاز بها بـلادهم. ويشير إلى أنه قـد عظم ارتبـاطهم بـالآراميين في الشمال، وكان مـن أثر ذلـك أن انتقل إلى العـربية كثير من المفردات الآرامية، وبخـاصة الألفاظ المعبرة عـن مظـاهـر الحضـارة والـرقـي. كما عظم اتصالهم باليمنيين في الجنوب؛ لأن الارتباطات الثقافية والاقتصادية والدينية كانت على جانب كبير بين الشعبين، وفضلا عن ذلك، فقد رحل كثير من القبـائل اليمنية إلى الحجاز، وخـاصة قبائل معين وخزاعة والأوس والخزرج. كما أن صلة اليمنيين بالأحباش كـانت على جانب كبير من القوة في النواحي الثقـافية والتجارية؛ فهيأ اتصال الشعبين المجال لاحتكاك اللغتين.

ولما أقبل الإسـلام، وعظمت الفتـوح شرقا وغـربـا، أدى ذلك إلى الارتبـاط الـوثيـق بين العــرب وبين الأمـم الــداخلـة في حـوزتهم؛ فـاتصلت العـربيـة بالفـارسيـة، والسريانيـة، واليـونانيـة، والتركيـة، والكـردية، والقبطيـة، والبربريـة. وكان أثـر ذلك الاتصـال كبيرا بين العربية والفارسية، ويليها اتصالها بالسريانية ثم باليونانية. (11)

ونتيجة لاتصال العرب بغيرهـم في نواحي العلوم والثقـافات اتسعت العربيـة للتعبير عن شتى الفنون والمعارف بحيث أصبح لها شأنها بما وضعته من مفردات جـديدة، وما اقتبسته من اللغات الأخرى. (12)

على أنه ينبغي أن نشير هنا: إلى أن غاية ما

أخذته العربية من غيرها من اللغات بعض ألفاظ مفردة من باب الأسماء لايتجاوز بعض المئين، وأكثرها من الأسماء الجامدة كخز وديباج وإستبرق وترياق وفالوذج، مما وجدوه عند غيرهم ولم يوجد عندهم.

أما علماء هذه الأمة الذين ظهروا فيها بعد الفتوحات العربية الأولى ونقلوا العلم إليها من الفارسية أو اليونانية أو السريانية، فلم يحتاجوا إلا إلى بعض أسماء حكمها حكم الألفاظ التي ألمعنا إليها سابقا. (13)

كما ينبغي أن نشير إلى أن العربية ليست بدعا من اللغات فهي تقرضها مثلما تقترض منها، وتخضع في ذلك كله لقانون اجتماعي لغوي هو تبادل التأثير والتأثر بين اللغات. إلا أن العربية تمتاز عن غيرها بظاهرة الإقراض أكثر من الاقتراض لأسباب وعوامل تتعلق بجوها الخاص ونسيجها الذاتي ومنشئها الأصيل. (14)

ووضوح هذه المقارنة بين العربية واللغات الأوربية أشد جلاء، حيث تحفل لغات أوربية كثيرة بكلمات وعبارات استعارتها من لغتنا العربية، تقدر بالمئات بل بالآلاف. (15)

ويقرر هذا الواقع الأب رفائيل نخلة اليسوعي، حيث يقارن بين العربية واللغات الأخرى من حيث تأثيرها وامتداد سلطانها، فيذكر أن اليونانية واللاتينية لم يكن لهما تأثير يذكر إلا في لغات أوربا. وكذلك الفرنسية والإنجليزية لم يتجاوز نفوذهما العام حدود تأثير اليونانية واللاتينية... ويشير إلى أنه بعكس ذلك نرى للعربية ـ مع تناقص سطوع شمس آدابها عدة عصور قبل القرن التاسع عشر ـ تأثيرا واضحا غير يسير في نحو مائة من اللغات واللهجات الناطق بها أرقى الشعوب في أنحاء أوربا وأمريكا وأستراليا ونحو خمسين من شعوب آسيا وإفريقيا. إن هذا المجد المختص بلغة الضاد لمن العجب العجاب؛ حيث يثير قوى العقل لاكتشاف أسبابه؟!! (16)

ويرى المستشرق المسلم د. عبد الكريم جرمانوس ـ على ما حكاه عنه بعض الباحثين ـ أن من أسباب ذلك: «الإسلام»؛ حيث يعتبر سندا هاما للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها، فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة والعصور المتباينة واللهجات المختلفة، على نقيض ماحدث للغات القديمة كاللاتينية، حيث انزوت تماما بين جدران المعابد وكادت تنقرض.

ويضيف قائلا : وقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثا، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافا من الكلمات العربية وازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوة ونماء. (17)

وثمة سبب هام لانتشار العربية هو : تفوقها اللغوي؛ فالعربية لغة طيعة أعانها

إيجازها ودقتها على أن تسد حاجات البسطاء المثقفين من النـاس، ومطالب البيئات البـدائية والمتحضرة.[18]

من ثم؛ فإنني أقول : إن اللغة العربية لغة فاتحة تحل أينما حلّ أهلوها![19]

الهوامش

(1) دراسات في فقه اللغة : د. صبحي الصالح، ص 314، 315 ـ بتصرف ـ، ط. العاشرة ـ دار العلم للملايين سنة 1983م. وراجع: من أسرار اللغة: د.إبراهيم أنيس، ص109، وما بعدها، الطبعة الثالثة ـ الأنجلو المصرية سنة 1966م.

(2) اللغة : فندريس، ص 349 ـ بتصرف ـ، ترجمة الدواخلي والقصاص، لجنة البيان العربي.

(3) دفاعا عن اللغة العربية : كمال الحاج، ص 143، منشورات عويدات، ط. الأولى سنة 1959م.

(4) علم اللغة : د. علي عبد الواحد وافي، ص 246، 247، ط. التاسعة ـ دار نهضة مصر بالفجالة، ولمزيد من التفصيل راجع ص 240 وما بعدها. وراجع أيضا: الفصحى ولهجاتها: د.عبد الفتاح البركاوي، ص136، الطبعة الأولى.

(5) اللغة والمجتمع : د. علي عبد الواحد وافي، ص23ـ25 ـ بتصرف، ط. دار إحياء الكتب العربية.

(6) علم اللغة : د. علي عبد الواحد وافي، ص 236 ـ بتصرف ـ

(7) من أسرار اللغة : د. إبراهيم أنيس، ص 109.

(8) اللغة الشاعرة : عباس محمود العقاد، ص 97، ط. مكتبة غريب.

(9) دراسات في فقه اللغة : د. صبحي الصالح، ص 314 ـ بتصرف ـ

(10) من أسرار اللغة : د. إبراهيم أنيس، ص 109 ـ بتصرف يسير ـ

(11) فقه اللغة العربية : د. إبراهيم محمد نجا، ص 77، 78، ط. أولى ـ مطبعة السعادة سنة 1965م.

(12) قضية التعريب في القرآن الكريم: د. عبد الغفار هلال، ص25، مقال منشور بمجلة منبر الإسلام عدد ذي القعدة 1399هـ.

(13) الفصحى لغة القرآن : أنور الجندي، ص 14 ـ بتصرف يسير ـ، الناشر دار الكتاب اللبناني سنة 1402هـ (الموسوعة الإسلامية العربية «10»).

(14) دراسات في فقه اللغة : د. صبحي الصالح، ص 348، 349 ـ بتصرف يسير ـ

(15) انظر مثـلا : بيير جيرو : الكلمات الأجنبية «Les mots étrangers» سلسلة "Que sais-je?"، الذي يتناول الكلمات العـربية في اللغة الفرنسية ويقدرها بمائتين وثمانين كلمة. وانظر المستشرقة زيجريد هونكة: شمس الله تسطع على الغرب، والذي تذكر فيه أكثر من مـائتين وخمسين كلمة عربية في اللغـة الألمانية. وانظر دوزي: قائمـة بالكلمات الإسبانية والبرتغـالية المشتقة من العـربية، والذي يقدر فيه عـدد الكلمات العربية بما يربى على ألف وخمسمائة كلمـة. راجع: كلمات عربية إسلامية في اللغـة الإنجليزية: د.أحمد شفيق الخطيب. مقال منشور بمجلة الفيصل، العدد (150) ذي الحجة 1409هـ، هامش (1) ص29. ولمزيد من التفصيل راجع: أسماء عربيـة للنباتات في اللغة الأوربيـة: محمد عبد القادر الفقي. مقـال منشور بالمجلة العـربية، العدد (103) شعبان 1406هـ، ص106، 107. وإطلالة على معالم التأثير العربي في اللغة الأوربيـة: عادل البطوسي المجلة العربية، العدد (120) محرم 1408هـ، ص90، 91. واللغة العربية والنهضة العلميـة المنشودة في عالمنا الإسلامي: د.كارم السيد غنيـم. بحث منشور في مجلة عالم الفكر، المجلد التاسع عشر ـ العدد الرابع، يناير ـ مارس 1989م، ص910 وما بعدها، تجد المزيد من الإيضـاح.

(16) غرائب اللغة العربية: رفائيل نخلة اليسوعي، ص119 ـ بتصرف ـ

(17) اللغة العربية والنهضة العلمية المنشودة : د. كارم السيد غنيم، مجلة عالم الفكر، عدد يناير ـ مارس 1989م، ص919.

(18) قبس من وحي اللغة : د. شعبان عبد العظيم، ص 187 ـ بتصرف ـ، ط. أولى ـ الأمانة بمصر سنة 1403هـ.

(19) راجع : المرجع السابق، ص186ـ188وتاريخ اللغات السامية، ص214 وما بعدها.

لغات الأمم المتحدة :
البابلية أم التكاملية ؟(*)

محمد ديداوي
منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (اليونيدو)

مقدمة :

ما انفك الإنسان يشعر بضرورة إزاحة الحواجز اللغوية ليسهل عليه التخاطب مع غيره، إذ أدرك أن تعدد اللغات يقف سدا منيعا دون مبتغاه. وأتت عليه أزمنة كانت فيها الغلبة للغات معينة انتشرت رقعتها بفعل القوة أو حبًا في الاطلاع على المعارف. وبعد أن بدأ الإنسان يتحضر وبدأت تتوفر له الوسائل وتتقارب المسافات وتتزايد اللقاءات راودته فكرة اللغة الواحدة التي يفهمها الجميع وتيسر وحدة الكلمة لغة تكون «عالمية سهلة التعلم والنطق والكتابة، والأهم من ذلك، تعين على الفكر وعلى التمييز بين كل الأشياء بحيث يستحيل معها الخطأ». (1)

إن هذه اللغة بالذات هي اللغة الاصطناعية التي تصورها المفكرون وأرادوا لها أن تخدم الغرض.

هكذا وضع جون ـ فرانسوا سودر، في منتصف القرن التاسع عشر، «لغة موسيقية عالمية» سمّاها سولريسول ثم توالت الاقتراحات تلو الاقتراحات بعدئذ وطرحت فكرة الإنكليزية ـ اللاتينية (اللاتينية مع النحو الإنكليزي) و«الإنكليزية ـ الإفرنجية» (2) (مزيج من الإنكليزية والفرنسية).

وأتى الدكتور البولندي زامينهوف بفكرة الأسبيرانتو. وتعددت الاقتراحات من قبل ومن بعد. ومن هذه اللغات الاصطناعية (3) ادريانا وانتيرلنغوا وإداماتيك وأوربا وسيمبلو وفيفا

(*) إن الآراء الواردة في هذه الورقة آراء شخصية محضة.

واكسبريسو وموندولانغ، إلخ... بل إن بعضها اسمه مطول وغريب، مثل لغة الكاربوفوروفيلوس والآستيغونياغرافيانيك!

وجاء من اقترح فكرة اللغة شبه الاصطناعية، مثل لغة البيزيك (اللغة الأساسية)، التي أوجدها، في عام 1930، أوغدين وريتشاردز، والتي تستند إلى الإنكليزية.[4]

إلا أن هذه اللغات كلها لا ترتكز على قاعدة عملية. ولذا لم يكتب لها النجاح والبقاء. ومن ناحية أخرى، بذلت مجهودات لإحياء بعض اللغات، منها العبرية،[5] التي أحرزت تقدما ملحوظا في هذا الباب، واللاتينية التي اصطدم استعمالها العصري ببعض العراقيل. وفي المقابل، ظهرت على الساحة لغات وطنية، بدافع من القومية، تزاحم اللغات المتداولة، مثل الإنكليزية والفرنسية، بعد أن نالت بعض البلدان استقلالها و«احتلت [تلك اللغات] في كل مكان تقريبا مكان الصدارة المناسب لها. وبذلك أصبحت منافسا مخيفا».[6]

هناك إذن تناقض واضح بين هدف اللغة الواحدة، لأن التشتت اللغوي، أو البلبلة، «يؤدي أولا إلى ضياع الوقت وإهدار الطاقة وتبذير الأموال»،[7] ويعوق تقارب البشر، إن لم يعرفوا لغات بعضهم، من جهة، والنزعة القومية، لأن اللغة رمز الشخصية الوطنية والكيان المستقل، وفائدة التعدد من حيث الإثراء والتثاقف بين الشعوب، من الجهة الأخرى. ثم هل يكتب لمثل هذه اللغة الواحدة البقاء، أم أنها لابد وأن تتفرع وتتشعب، بعد أن تكون جامعة مجمعة، لأن من شيمة الناس الاختلاف والتميز؟

ها هي ذي المحافل الدولية، مثل الأمم المتحدة، تستعمل عدة لغات للوثائق والاجتماعات فما هو الوضع الناجم عن هذا التعدد؟

الأمم المتحدة : بوتقة لغوية

لا شك «أن التواصل الدولي ـ وهو أمنية لا خلاف عليها ـ لا يشترط، بل إنه لايحتم، وجود لغة دولية واحدة. إلا أنه يكاد الناس يتعارفون منذ زمان على أن هذا يشكل قاعدة مثالية».[8]

فمن الناحية العملية، تعتمد الأمم المتحدة ست لغات رسمية ولغات عمل، هي الإسبانية والإنكليزية والروسية والصينية والعربية والفرنسية، تمثل مجموعات ثقافية وحضارية.

وبينما تساهم تلك اللغات في التفاهم الدولي، في الاجتماعات والمؤتمرات، عن طريق الترجمة الفورية وخاصة الترجمة التحريرية، التي تلعب دورا أسياسيا في

التفاعل اللغوي ونقل المعارف، فإن لها سماتٍ تميزها وقضايا تنفرد بها.

فعلاوة على أن اللغة الإنكليزية خليط لغوي،[9] فإنها منقسمة إلى أربع فئات، هي البريطانية والأمريكية ولغات المستعمرات البريطانية السابقة والإنكليزية الدولية.

ولقد أصبحت تتبع، بخصوص الإنكليزية، «أساليب إعرابية جديدة ثورية...، لاتستند إلى الأشكال القديمة من [هذه] اللغة، برزت معالمها في السنوات العشرين الماضية».[10]

كما أن الإنكليزية «ما زالت تفتقر إلى سند نحوي مبني على الإنكليزية البريطانية المتكلم بها والمكتوبة ابتداء من سنة 1945».[11]

ومن ناحية أخرى، فإن «سخافات انشغال الأجيال السالفة بـ«الاستعمال الصحيح» قد مضت وولّت، وفي بعض الأماكن رجحت كفة الموقف المتمثل في تشجيع التساهل المفرط».[12]

وإن «التفاوت بين إنكليزية بلد ما وإنكليزية بلد آخر يظهر أنه لابد وأن يتزايد إلى حد بعيد».[13]

وفي حين أن اللغة الإنكليزية لها الأكاديمية البريطانية، التي أنشئت في عام 1902، وجمعية فقه اللغة، التي أعيد تنظيمها في عام 1842، والجمعية الإنكليزية، التي يراد منها «رفع المستوى الإنشائي والكلامي»[14] للغة، فإن هذه الهيئات لاتصدر أية فتوى وليست لها سلطة الاحتكام. هذا بالإضافة إلى «أن هناك ميلا عند الأنكلو ـ ساكسون إلى الاقلال من شأن الأكاديميات، وإن كانت منجزات الهيئات مثل الأكاديمية الفرنسية والأكاديمية الإسبانية أكثر بكثير مما هو معترف به عندهم»[15]. وهناك من يرى أن «استقرار الاستعمال سيحدده مستعملو اللغة أنفسهم لا الأكاديمية»[16] ولقد اختلف في الحكم على النوعية إلى حد أن ت.س. إيليوت اعتبر الصيغة الإنكليزية من الإنجيل الصادرة عام 1961 بأنها «عمل يتميز بمنتهى الركاكة».[17]

هكذا، فإن تعلم الإنكليزية لايخضع لسلطة سياسية وإنما من ضرورات الحياة المعاصرة التي أصبحت تهيمن فيها التكنولوجيا والعلوم، ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية تأتي في مقدمة المخترعين والمبتكرين.

وقد جيء بفكرة «الإنكليزية القاعدية»،[18] بحيث تكون:

ـ أسهل تعلما من الإنكليزية الطبيعية.

ـ وقادرة على التعبير عن دقائق

المعاني.

- ويمكن التوسع فيها عند اللزوم.

أما الإنكليزية الدولية التي تكتب بها جل الوثائق في منظومة الأمم المتحدة، فهي لغة غير أصلية عند كثير من الخبراء، وتقوم خلفيتها على عقلية غريبة على الإنكليزية. والمشكلة المطروحة بالنسبة لها هي عدم وجود سلطة أو معايير لتحديد مدى جودتها، لا سيما إذا نقل البلاغ بكامله، علما أن هذا هو المراد في الاجتماعات وفي الوثائق المحضّرة لها.

وإن هذا النوع من الإنكليزية جدير بالاهتمام، لاسيما وأنه أيضا لغة بعض المترجمين والتراجمة الذين ينقلون إلى الإنكليزية من لغاتهم، كالشأن عند العرب والصينيين، إذ قلما يكون غيرهم ملمين إلماما كافيا بلغتهم.

لذا، فإن التحرير والتنقيح مهمان للغاية ويجب دعم أقسام تحرير الوثائق، لتسهيل عمل المترجمين الذين يطلب منهم عدد معلوم من الصفحات يوميا.

وأما الفرنسية،[19] فمن الواضح أنها تتميز بنوع من الانتقائية، وهذا مرده إلى النظام التعليمي المحكم التنظيم والمتشدد (في الخارج، بالمقارنة)، على عكس أنظمة أخرى، وإلى النضال المستميت الذي يخوضه من يخشون على اللغة من الفساد والضياع.

وجلي أن المتفرنسين، في إفريقيا خاصة، يفوق مستواهم، في كثير من الأحيان، مستوى أهل الفرنسية، وهذا من مميزات الاستعمار الثقافي الفرنسي، الذي تغلغل في الصدور وجعل اللغة الفرنسية محط الاهتمام ومناط الإعجاب.

وهناك شخصيات سياسية إفريقية وعربية إفريقية بارزة مشهود لها بالبراعة اللغوية في الفرنسية إذ تسخرها رخاء حيث تشاء وتتحكم في دقائق معانيها وأفانين أساليبها.

كذلك، «فإن هذه اللغة ما زالت تحتفظ بخصائص دقة المنطق ووضوح الغرض، التي تميزت بها اللاتينية وخاصة اليونانية».[20]

وقد يتعزز وضع الفرنسية والألمانية في أوروبا بعد أن تتوحد.

وتبذل مجهودات كبيرة لدعم اللغة الفرنسية في المنظمات الدولية، منها على سبيل المثال، الملتقى الدولي حول الفرنسية في المنظمات الدولية، الذي عقد في باريس من 29 حزيران/يونيه إلى 1 تموز/يوليه 1987.

كما أن للفرنسية هيئات عديدة تصونها وتدافع عنها،[21] في مقدمتها المجلس الأعلى «للفرنكوفونية»، الذي

يرأسه رئيس الدولة الفرنسية شخصياً.

وتتمثل مشكلة الفرنسية، شأنها في ذلك شأن لغات أخرى، في ضرورة استيعاب سيل من المصطلحات الجديدة، كما أن هناك محاولة للتصدي للغزو الإنكليزي، الذي يسهله الاستعمال المشترك للحروف اللاتينية.

وفي حين أن اللغة العربية محكمة البنيان، اتسعت فاحتوت معجزة لغوية هي القرآن الكريم، يلاحظ أن بعض العرب قد أفسدوا استعمالها، فلم يرقوا إلى مستوى بيانها، بل أصبح فكرهم يتمحور حول النص،(22) منجذبا بموسيقية اللغة، إلى أن أصبح النص عند البعض هو الغاية وهو المرام. إلا أن هذه اللغة قد برهنت في الأمم المتحدة على قدرتها على مسايرة اللغات الأخرى، على يد مترجمين أكفاء، فأصبحت الوثائق تصدر في شتى ميادين العلم والتكنولوجيا بدقة وسلاسة إلى حد كبير.

وتعاني اللغة العربية، في كثير من الأحيان، من اختلال في ازدواجية اللغة ومن تأرجح العرب بين الرغبة في التعريب والرهبة منه. وقد يكون الحل في تدريس العلوم بالعربية مع دراسة المصطلحات والنصوص باللغات الأجنبية وتعلم لغة ثانية أو حتى ثالثة (بالنسبة للمغرب العربي، مثلا) وإدخال مادة الترجمة إلى الثانويات والجامعات. إلا أن هذا يستوجب توفر المواد المرجعية بالعربية والأطر اللازمة للتدريس. و«قد ظلت العربية الفصحى في كل مكان لغة العلم والأدب»...(23) «مما يؤكد وحدة العرب اللغوية ويعمل على التقريب بين النخبة منهم».(23)

وبالنسبة للعربية، وبدافع من الحماس القومي، قيل إن «اللغة العربية هي أصل اللغات في العالم»!(24) فإذا كان صحيحا أن هناك تفاعلا معروفا بين العربية واللغات الأخرى، فإن هذا الكلام في حاجة إلى برهان علمي رصين يقبله العقل، وإلا دخل في صف الحديث عن «الشيخ الزبير» (Shakespeare) الذي رد أصله إلى العرب!

وفيما يخص اللغة الإسبانية، فإن الفوارق بين لغة بلدان أمريكا اللاتينية وإسبانيا تشابه تلك التي بين اللغتين الأمريكية والبريطانية. و «ليست للجمهوريات الناطقة بالإسبانية فيما وراء المحيط الأطلسي أكاديميات مماثلة لأكاديمية إسبانيا فحسب، بل إن تلك الأكاديميات قد انخرطت جميعها في اتحاد، نظرا للاتجاه الطبيعي نحو شيء من التطور اللغوي المنفرد في مختلف تلك

البلدان (الذي يشجع ويستغل أحيانا لأغراض وطنية)». [25] إلا «أن النموذج والمقاييس مازالت تعتبر بأنها مترسخة في البلد الأم التاريخي». و «قد يذهب البعض إلى أن الإسبانية قليلة التوحيد، وأن لهجاتها متعددة وأن بعض القوى ترمي إلى جعل ما يسمى (الإسبانية)، فصيلة من اللغات عوضا عن لغة واحدة». [26]

وتجمع بين اللغات الست، مع استثناء الإنكليزية إلى حد ما، مشاكل توحيد المصطلح، والمصطلحات المستجدة والتخصص في الموضوع في ترجمته، إلخ، مع اختلاف في درجات المشكلات باختلاف اللغات.

وهناك ثلاثة اتجاهات في اللغة الصينية من حيث المصطلح: اتجاه الصين الشعبية وتايوان وهونغ كونغ.

تعدد اللغات

لا غرو أن التواصل بين متحدثي لغات الأمم المتحدة الست يقوم على أكتاف المترجمين والتراجمة. وأن تواجد هذه المجموعات الثقافية لا ريب أنه مثر على الصعيد الدولي ومفيد على الأقل لمعرفة عقلية الآخرين وتفهمها، ذلك أن اللغة مرآة لأفكار الشعوب وحضاراتها وأن اللغة الاصطناعية هي أقرب إلى استعمال الحاسوب منها إلى الإنسان.

قد يكمن الحل في تولي تعليم عدة لغات للصغار في سن مبكرة جدا، [27] إذ أن التعلم في تلك المرحلة من العمر هين وهو كالنقش على الحجر. لكن هذا المسعى باهظ التكاليف ويستلزم جحفلا من المربيات في البيوت ومن المدرسين. [28] ويبدو أن هذا النوع من التعليم إن نظم على الوجه اللائق وأحسن استعماله، ليس فيه ضرر على اللغة الأم عند الطفل. [29]

ويستدل من التجارب أن هذا التعليم كثيرا ما يكون ناجحا عند الجاليات المغتربة (أطفال الدبلوماسيين وموظفي الأمم المتحدة، مثلا)، عندما يتاح للطفل تلقن عدة لغات، لغة البلد المضيف ولغة أو لغتان في المدرسة، بالإضافة إلى اللغة الأم، مع بعض التحفظ، لأنه ما اجتمعت لغتان إلا وأدخلت إحداهما الضيم على الأخرى. [30]

وإن هذا النوع من الأطفال مجال خصب لاختيار مترجمي وتراجمة المستقبل، الذين يستطيعون التنقل بين لغات أساسية [31] على نفس المستوى تقريبا وبنفس المقدرة.

فإذا تسنى للأمم المتحدة تكوين صفوة من هؤلاء المترجمين والتراجمة، فإن الحاجز اللغوي سيزول تماما من على المسرح الأممي وسيهون التواصل بين

الشعوب، فضلا عن الثراء الحضاري بفعل التمازج. ولعل هذا الأمر هوالذي جعل الأمين العام للأمم المتحدة ينادي بـ «مكافحة كل نزعة إلى التماثل غير الخصب». [32]

ومن المسلم به أن «معظم النزاعات المعروضة على الهيئات الدولية راجعة إلى مشاكل التأويل بسبب ثقافات أو إديولوجيات خاصة». [33] فهل يمكن للغة الواحدة أن تجمع بين شتى الثقافات والإديولوجيات؟

ومن المفيد إجراء دراسة سوسيولوجية للمنظمات الدولية [34] لزيادة التفهم والتقارب.

الخاتمة

لا مندوحة من أن تظل اللغة الواحدة حلما بعيد المنال، لأن توحيد اللغة يعني توحيد البشر والثقافات، وقد يكون في هذا نوع من الإفقار الحضاري.

وإلى أن يحين ذلك الوقت، لابد من زيادة الاعتناء بمستوى استعمال اللغة والمصطلح وبالترجمة التحريرية والفورية بتحضير واختيار أنسب العناصر لهما، وزيادة تشجيع تعلم اللغات في المنظمات الدولية.

وبخصوص اللغة العربية قد يكون من المفيد إعلان سنة للتعريب، تقام فيها الندوات وتلقى المحاضرات وتكثف المجهودات في هذا المضمار على صعيد الوطن العربي بأكمله.

هوامش البحث

(1) ديكارت في رسالة وجهها يوم 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1629 إلى الأمير ميرسين. عن Pierre Burney, Les langues internationales, collection "Que sais-je?", Presse Universitaire de France, 1966 إن الأمر يتعلق بـاللغة «الفلسفية» التي كان ينشدها ديكارت. ولقد فكر فولتير وليبنيتس أيضا في هذا الموضوع.

(2) للمزيد من المعلومات انظر، مثلا، Pierre Burney، المرجع السابق الذكر.

(3) Pierre Burney، المرجع نفسه.

(4) V. I. A. Richards. Basic English and its uses, New work, V. W. Basic English, H. W. Wilson Co, New York, 1944 Norton and Co, 1943.

(5) انظر، مثلا، Edw. Yesheskeel Kutscher, Pub. Mod. Langu. Association, IX-57, no. 2 وتجدر الإشارة إلى أنه قد تم، في تشرين الأول، أكتوبر 1989، بمرسوم رئاسي، إعلان السنة العبرية 5750 سنة اللغة العبرية. وتصادف هذه السنة الاحتفال بالذكرى المئوية لإنشاء الأكاديمية العبرية. هكذا، شرعت لجنة اللغة العبرية، قبل مائة سنة، في مهمة إحياء العبرية بعد موات دام زهاء 2000 سنة.

(6) Pierre Burney، المرجع السابق الذكر.

اللغة العربية في مواجهة التعريب
- مفهوم التعريب -

بقلم: إدريس بن الحسن العلمي
الدار البيضاء

«التعريب كلمة تعددت دلالاتها، واختلفت تحديداتها على ممر العصور، باختلاف الزمان، والمكان، والإنسان. فمدلولها عند اللغويين القدامى يختلف عن مدلولها عند المحدثين، وهو عند المشارقة غيره عند المغاربة، وقد اختلف قبلهم في تعريفها اللغويون الأولون فيما بينهم كما يتضح من هذا البحث.

1 ـ التعريب عند القدامى

عند الجوهري العلامة اللغوي: «التعريب هو أن تتكلم العرب بالكلمة الأعجمية على نهجها وأسلوبها». أما عند سيبويه النحوي المشهور: «التعريب هو أن تتكلم العرب بالكلمة الأعجمية مطلقا، فهم تارة يلحقونها بأبنية كلامهم، وطورا لا يلحقونها بها».

فإن سرنا على منهج الجوهري ينبغي أن نقول في تعريب كلمة pasteurisation مثلا «البَسْتَرة» مثلما فعل مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وأن نقول في تعريب كلمة appertisation «الأبْرَتة» كما فعلت مصلحة التعريب التابعة لمكتب التسويق والتصدير سيرا على نهج المجمع المذكور. فلفظ «appertisation» مشتق من اسم «Appert» العالم الذي أوجد طريقة لتصبير المعلبات كما أن «pasteurisation» مشتق من اسم العالم «Pasteur» الذي اكتشف طريقة للتعقيم.

فعلى سبيل المثال لايسوغ لنا حسب الجوهري إلا أن نقول لتعريب هذين المصطلحين «البَسْتَرَة» و«الأبرتة» ولا يجوز لنا بحال أن نقول «باستوريزاسيون» و«أبيرتيزاسيون».

أما سيبويه فإنه يجيزهما معا. ففي رأيه يصح أن نقول: «البَسْتَرَة» أو «الباستوريزاسيون» و«الأبرتة» أو

«الأبيرتيزاسيون» كليهما على حدّ سواء.

وينبغي أن نلاحظ أن التعريب على مذهب الجوهري له مزية كبرى ليست للتعريب على مذهب سيبويه. وهذه المزية تتلخص في إمكان الاشتقاق من اللفظ المعرب ما يشتق من أي لفظ عربي. ففي وسعنا مثلا أن نشتق من لفظ «البَسْترَة» جميع الأفعال فنقول في الماضي «بَسْتَرَ» للمفرد المذكر، ونقول في الجمع «بَسْتروا» وللمؤنث «بَسْتَرَتْ» و«بَسْترْنَ» وفي الأمر «بَسْتِرْ» و«بَسْتِري» و«بَسْتِرْن» وفي المضارع «يُبَسْتِرُ» و«يُبَسْتِرَانِ» و«يُبَسْتِرُونَ» و«تُبَسْتِرُ» و«تُبَسْتِرَان» و«يُبَسْتِرْن». ونقول في اسم الفاعل «مُبَسْتِر» و«مُبَسْتِرَان» و«مُبَسْتِرُون» و«مُبَسْتِرَة» و«مُبَسْتِرَتَان» و«مُبَسْتِرَات». وفي اسم المفعول «مُبَسْتَرَ» و«مُبَسْتَرَة» و«مُبَسْتَرَات». وفي النسبة إلى المصدر «بَسْترِيّ». وفي صيغة المطاوعة للمذكر «تَبَسْتَرَ» و«تَبَسْتَرَتْ» للمؤنث. وفي اسم الفاعل «مُتَبَسْتِر» و«مُتَبَسْتِرَة». وفي صيغة الحرفة «بَسْتَار» على وزن «بَيْطَار» وفي النسبة إليه «بَسْتَارِيّ». وفي العدد من اسم المرّة «بَسْتَرَات» وفي اسم الآلة التي يُبَسْتَر بها «مِبَسْتَرَة» وفي اسم المكان «مَبَسْتَر» إلخ...

وكل هذا لا يتأتى مع لفظ «باستوريزاسيون» المعرب على طريقة سيبويه.

يقول الشيخ عبد القادر بن مصطفى المغربي: «على أننا مهما استحسنا رأي سيبويه في عدم اشتراطه رد الكلمة المعربة إلى مناهج اللغة وأوزانها، ينبغي أن نقف من تسامحه عند حد محدود، وإلا تكاثرت الكلمات الأعجمية ذات الأوزان المختلفة والصيغ المتباينة في لغتنا الفصحى وخرجت على تمادي الأيام بذلك عن صورتها وشكلها، وعادت لغة خلاسية لا عربية ولا أعجمية».

ولقد سار على نهج سيبويه ثلة من اللغويين منهم الخفاجي وابن سيده صاحب «المخصص» المعجم التصنيفي. هذا، وممّن ذهب مذهب الجوهري الإمام اللغوي محمد مرتضى الزبيدي مؤلف «تاج العروس من جواهر القاموس» فأورد ضمن شرحه المستفيض لكلمة «التعريب» في معجمه المذكور الذي يعد من أكبر وأهم معاجم اللغة العربية: «...وتعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها». ووافقه على هذا الشرح «المعجم الوسيط» الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة عند شرحه

هذا اللفظ بقوله: «التعريب: صبغ الكلمة بصبغة عربية عند نقلها بلفظها الأجنبي إلى اللغة العربية».

وأكد المجمع هذا المعنى في قراره السادس من مجموعة قراراته العلمية ونصه: «يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية ـ عند الضرورة ـ على طريقة العرب في تعريبهم».

ونص الجواليقي على «أن المعربات أعجمية باعتبار الأصل، عربية باعتبار الحال».

وتبعه على ذلك الإمام ابن الجوزي وغيره «بأن الكلمات الأعجمية التي وقعت للعرب فعربوها بألسنتهم، وحولوها عن لفظ العجم إلى ألفاظهم، تصبح عربية، فيجري عليها من الأحكام، ما يجري على تلك، تتوارد عليها علامات الإعراب إلا في بعض الأحوال، وتعرّف بـ «الـ»، ويضاف إليها، وتثنى، وتجمع، وتذكر، وتؤنث».

وذكر الأستاذ محمد بن تاويت في مقال بعنوان «مظاهر التعريب» نشر في العدد العاشر من مجلة «اللسان العربي»:

«إن العربي كان إذا جلب كلمة، أو جلبت له، يستغني بإلباسها لباسه العربي، ولو بغطاء الرأس، أو الحذاء، جاءته كلمة «كروان» بمعنى القافلة فقال فيها [قروان] وغطى رأسها بالألف واللام فأصبحت القروان و «القيروان»، وبذلك صارت الكلمة تتمتع بكل الحقوق التي تتمتع بها الكلمة العربية في إعرابها، فلا تمتنع من الصرف لعلة العجمة».

«وسمع النبي صلى الله عليه وسلم، من سلمان الفارسي، كلمة «خندق» فاستفسره عن معناها، وهي اسم مفعول من «كنده» الفارسي، بمعنى الحفر، فكانت «كنده» وعربت بأن أبدلت الهاء ـ التي لا تنطق ـ قافا فصارت «خندق». فتقبلها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يأنف من استعمالها، بل اشتق منها «خَنْدِقُوا» فسميت الغزوة بغزوة الخندق».

وقبل أن ننتقل إلى تحديد معنى «التعريب» عند المحدثين، نرى لزاما علينا تلافيا لكل التباس أن نميز بين طرائق التعريب المختلفة ومن أجل ذلك سمحنا لأنفسنا بأن نطلق على طريقة التعريب عند الجوهري اسم «التعريب الاقتباسي الصياغي» وعلى طريقة سيبويه «التعريب الاقتباسي الصوتي». وزيادة في الإيضاح إذا عربنا كلمة "télévision" بـ «تلفزة»، على مذهب الجوهري، فهذا نسميه «التعريب الاقتباسي الصياغي»، فإذا ما نحن عربناها بـ تيليفزيون» سمينا تعريبنا هذا «التعريب الاقتباسي الصوتي». ومما

تجدر ملاحظته أن التعريبين يندرجان معا تحت اسم «التعريب الاقتباسي». ومن هنا نقرر أن العرب في القديم لم تكن تعني بكلمة «التعريب» سوى «التعريب الاقتباسي».

أما التعريب بمفهومه الشائع في أيامنا هذه، وهو إيجاد كلمة عربية الأصل لمقابلة لفظ أعجمي، فهذا نسميه «التعريب الوضعي» كما نسمي طريقة التعريب التي تجمع المذاهب الثلاثة على الإطلاق ويشملها الالتزام باتباع أي منها وفقا لما هو الأنسب وحسبما تقتضيه الضرورة، نسميها «التعريب الشمولي».

وتتلخص هذه الطريقة فيما قاله أحمد فتحي باشا زغلول في سنة 1908: «إذا عرض لنا لفظ أعجمي ترجمناه إلى اللغة العربية، وإذا تعذر لنا هذا اشتققنا له اسما من لغتنا، وإذا لم يتيسر جئنا بكلمة عربية، وأطلقناها عليه بضرب من التجوز، وإذا تعذر هذا عربناه (ويعني بـ«التعريب» التعريب الاقتباسي) وأدمجناه في تراكيب «كلامنا».

2 ـ *«التعريب» عند المحدثين*

جاء في مقال للدكتور محمد سويسي:

«... هذا اللفظ (التعريب) يفيد في اللغة الإيضاح والتبيين، وفي الاصطلاح يطلق على مدلولين مختلفين: الأول إدخال اللفظ الأعجمي ضمن المعجم العربي، فيصقل ويصاغ في قوالب الأوزان العربية ويمكن من القبول لأبنيتها والخضوع لمقاييسها وقواعدها، فيشتق منه على الطريقة التي بها يشتق من اللفظ العربي الصميم».

«المعنى الثاني، وقد شاع بيننا في السنوات الأخيرة، وهو إيجاد مقابلات عربية للألفاظ الأعجمية، حتى تصير العربية الفصحى وحدها هي لغة الكتابة والتدريس والإعلام، تستخدم في المدرسة والجامعة، وتستعمل في الدار والسوق وفي الصحافة والإذاعة».

فيما قبل منتصف القرن العشرين:

فيما قبل منتصف القرن العشرين، كان «التعريب» لا يعني سوى ما أطلق عليه «التعريب الاقتباسي» وكان الخلاف على أشده، في مطلع هذا القرن، بين أنصار «التعريب الاقتباسي» وأنصار «التعريب الوضعي»، أما «التعريب» بمعناه الشائع عندنا اليوم في المغرب على الأخص، والذي أطلقنا عليه اسم «التعريب الشمولي» فلم يكن يستعمل عند المشارقة حينذاك بهذا المعنى، أما ما سميناه «التعريب الوضعي» فكان يعرف عندهم بلفظ «الترجمة».

ويحكي لنا عن هذا الخلاف الشيخ عبد القادر المغربي بقوله في مقدمة الطبعة

الثانية لكتابه «الاشتقاق والتعريب»:

«أما السبب المباشر في حملي على تأليف الكتاب فهو ما كان يسمعنيه إخواني من العتب في استعمال كلمات من المعرب، والدخيل، في مقالاتي التي كنت أنشرها في «المؤيـَّد»، بين سنتي 1906 و1909 وكنت لا أرى رأيهم في أن القليل من هذه الكلمات يفسد المقال الطويل بعد أن تتوفر فيه سائر صفات الحسن. وكان يحتدم الجدل بيني وبينهم حتى تخطى الجدل القول إلى الكتابة في الصحف. ثم رأى أساتذة اللغة في مصر يومئذ أنه لا ينبغي أن يكتفى في حل هذه المشكلة بما يكتبه الكتّاب في الصحف، ويتحدث المتحدثون في المحافل، فإن الأمر أعظم من ذلك، وأن الواجب أن يلجأ، في الفصل لهذه القضية، إلى تنظيم الجدل، وتوجيه العمل. وعقدت مناظرات في (نادي العلوم) تحت رئاسة كبير أدباء عصره، حفنى بك ناصف. فقامت المناظرات المنظمة على قدم وساق، بين أساطين الأدب، وأساتذة اللغة: حفنى ناصف، والشيخ شاويش، والخضري والأسكندري وأحمد زكي وأخيرا أحمد فتحي زغلول. وكان ختام المناظرات مناظرة عقدت مساء 20 فبراير عام 1908، خطب فيها طائفة ممن ذكرنا، واحتاج الأمر إلى حكم يحكم بينهم، فكان ذلك الحكم المرضيّ الحكومة، والمتفق عليه من الجميع: أحمد فتحي باشا. فألقى كلمة قطع بها قول كل خطيب...».

وخلاصة ما قال هو ما نصصنا عليه ضمن تحديد «التعريب الشمولي» وهذه الطريقة هي التي سار عليها مجمع اللغة العربية بالقاهرة حتى الآن.

ومن رأي أحمد بك زكي: «أن ما يعانيه المترجمون من صعوبة ترجمة الكلمات الأعجمية إلى العربية، يستدعي الجري على قاعدة [الباب المفتوح] في اللغة، كما يجرون عليه اليوم في السياسة. ثم شرط لفتح الباب أن يكون عليه من الحراس الأكفاء ما يحول دون دخول أي كلمة كانت. يشير بذلك إلى المجمع اللغوي الذي تكون وظيفته تمحيص تلك الألفاظ الدخيلة وعدم السماح لها بالدخول في بنية اللغة ما لم تشذّب وتهذّب».

التعريب منذ بداية الستينات:

لعل مدلول «التعريب» بمعناه «الشمولي» أول ما عرف في المغرب الأقصى بعد تأسيس «المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي» في 3 أبريل 1961. ثم أخذ هذا المعنى يستقر شيئا فشيئا، في أذهان المشارقة الذين ظلوا مع ذلك، وإلى جانب ذلك، يستعملون لفظ «الترجمة» يعنون به ما أطلقنا عليه

اسم «التعريب الوضعي»، ويستعملون لفظ «التعريب» يعنون به «التعريب الاقتباسي» بنوعيه «الصوتي» و«الصياغي».

ولئن كان المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي جرى في مفهوم «التعريب» على مدلول «التعريب الشمولي»، فإن المعهد الوطني للأبحاث والتعريب بالرباط الذي سبقه إلى الوجود، سار على مفهوم «التعريب الوضعي» الذي كان وما زال يتحمس له كل الحماس، ولا يقبل فيه الانصياع إلى ما قررته المجامع اللغوية، ولا إلى ما انعقد عليه الإجماع في كل البلاد العربية.

ولما راج استعمال مدلول «التعريب الشمولي» في المشرق العربي، أضاف المشارقة إليه ما ليس منه: فأطلقوه حتى على مجرد الترجمة إلى العربية. وهكذا أصبحنا نقرأ على أغلفة الكتب، من روايات وقصص وغيرها، عبارة «تعريب فلان» أو «عربه فلان» بدلا من «ترجمه فلان» أو «ترجمة فلان»، أو «نقله فلان إلى العربية».

ونظرا لما أحدثه هذا الإطلاق الأخير من بلبلة في الأذهان، وإبهام في مفهوم التعريب عند الجمهور من غير المعربين المتخصصين، ارتأينا من المفيد أن نوضح الفارق بين الترجمة والتعريب.

بين الترجمة والتعريب

إن مفهوم «التعريب» الذي أجمع عليه أخيراً المشتغلون بعملية التعريب هو إيجاد مقابل عربي للفظ أعجمي لم يكن له ولم يعرف له مقابل عربي من قبل. وإن كان هناك خلاف أحيانا فهو في الطريقة التي يتم عليها هذا الإيجاد. فهل عن طريق الوضع بالاشتقاق أم المجاز أم النحت أم عن طريق التعريب الإقتباسي بنوعيه: الصياغي والصوتي أو ببعث المقابل العربي من مدفنه في بطون الكتب القديمة المتخصصة إن كان معناه معروفا عند العرب الأوائل من قبل. فنحن مثلا عندما نجعل قبالة لفظ "médecin" «الطبيب» أو عندما نجعل لفظ «المريض» قبالة "le malade" أو «الدواء» قبالة "le médicament" فإننا لم نزد على أن ترجمنا هذه الألفاظ. لكن عندما جعل مجمع اللغة العربية كلمة «سيارة» قبالة لفظ "automobile" فقد عرب هذا اللفظ الأعجمي إذ أوجد له مقابلا عربيا لم يكن معروفا بمعناه من قبل لا عند القدماء ولا عند المحدثين. لكننا عندما نستعمل نحن لفظ «سيارة» الذي أوجده المجمع لا نكون عربناه، بل ترجمناه، والذي عربه هو الذي أوجد له المقابل أو دل عليه وهو

المجمع. ومثل ذلك يمكننا أن نقول بصدد «البَسْترَة» "pasteurisation" و«الأبرتة» "appertisation" و«التلفزة» "la télévision". فلفظ «سيارة» القافلة. والسيارة: القوم يسيرون، أنثت على معنى الرفقة والجماعة». وورد هذا المعنى الأخير في سورة يوسف من القرآن الكريم: ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابات الجبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾. وبهذا المعنى يكون المجمع استعمل لفظ «سيارة» على سبيل المجاز. ويجوز أن يكون استعمله على سبيل الحقيقة بمعنى «الكثيرة السير» بوصفه صيغة للمبالغة التي تأتي على وزن «فَعّال» و«فعّالة»، كما يجوز استعماله على صيغة الآلة مثل «ثلاّجة» و«سمّاعة» و«حصّادة». ومهما يكن فإن المجمع قد وفّق كل التوفيق في هذا التعريب.

بعد هذا بقي علينا أن نتساءل: هل اللغة العربية قادرة على تحقيق الدراسات الجامعية بنفس المستوى الذي هي عليه في الجامعات الغربية؟ وبعبارة أخرى هل في وسع العربية أن تستوعب جميع العلوم والفنون والتقنيات وسائر المعارف البشرية، بكل مفاهيمها، وبكل ما تشتمل عليه من مصطلحات، وعبارات، ورموز هل يمكنها في مستقبل قريب أن تكون وحدها لغة التعليم بكل أنواعه وأشكاله في جميع مراحله وأطواره، دون الاستعانة بأي لغة أخرى؟

الإجابة على هذا السؤال تقتضينا أن نجس نبض اللغة العربية، ونفحص بنيتها، ونسبر مدى صحتها وسلامة هيكلها وقوة أعضائها بأن نتعرف على خصائصها ومدى طواعيتها لإفادة كل هذه المعارف.

دراسة في :

فصائل نباتات الشمال الإفريقي

مصطلحات نباتية في علم التصنيف

إعداد: لحسن بنلفقيه
باحث - دارس لنباتات المغرب

تمهيد :

كان القدماء يدرسون النبات الواحد مستقلا عن باقي النباتات، يحددون اسمه ويعرفون بشكله وخواصه ومنابته واستعمالاته، دون تحديد قرابته بباقي النباتات. وأقصى ما يقومون به في هذا الباب، الإشارة إلى أوجه الشبه الحاصل بين شكل أعضاء النبات الموصوف، وأعضاء نباتات أخرى. فتشبه أوراقه أو أزهاره أو سيقانه بأوراق وأزهار وسيقان نبات آخر، في حين أن النباتين من جنسين مختلفين أو من فصيلتين متباينتين بالمفهوم الحديث. والواقع أن هذه البداية رغم تواضعها ساعدت وتساعد على فرز النباتات وتمييز أنواعها، إلا أنها لا ترقى إلى دقة المنهج العلمي المعمول به حاليا، وهو علم التصنيف Taxonomic. وكان النبات الواحد يعرف في القديم بأسماء كثيرة لا تكاد تحصى، تختلف من بلد إلى بلد ومن قارة إلى أخرى حسب اللغات، وتتعدد أسماء النبات الواحد داخل البلد نفسه حسب المناطق واللهجات، وجاء علم التصنيف ليضع لكل نوع نباتي إسما واحدا يعرف به النبات على الصعيد العالمي لدى شعوب العالم، على اختلاف لغاتها ولهجاتها.

اهتم علماء العصر الحديث بدراسة النبات ولَمِّ شتاته داخل منظومات علمية مقننة، ليتم الاتصال والتواصل وتتوحد لغة التخاطب، فاتخذوا اللغة اللاتينية وسيلتهم، اتفقوا على تعميم استعمالها لتحديد المفاهيم القديمة والحالية والمستقبلية في حقل تخصصاتهم. ولكل أمة بعد ذلك أن تجد وتسعى في نقل هذه المفاهيم بدقة وأمانة علمية إلى لغاتها القومية.

قام العالم النباتي «كارل فون ليني» Carl Von Linné (1707 — 1778) بوضع تسمية ثنائية لاتينية لكل الأنواع النباتية المعرفة في عصره، فكانت بداية علم التصنيف. ثم سلك النباتيون من بعده نفس النهج، فأقيم صرح هذا الفرع من علم النبات على نفس الأسس، فجاء البناء على شكل علم مستقل مكتمل البناء، واضح المسالك لكل راغب وطالب.

تتلخص التسمية الثنائية المتبعة، وضع اسم مركب من لفظتين لاتينيتين لكل نوع

نباتي. اللفظة الأولى هي اسم الجنس الذي ينتمي إليه النبات. واللفظة الثانية كنية معينة تميز النوع داخل جنسه. وفي غالب الأحيان تدل الكنية النوعية épithète spécifique على صفة محددة ينفرد بها النوع، أو البيئة التي يعيش فيها، أو موطنه الأصلي، أو مكان اكتشافه. وقد تستخدم الكنية النوعية لتخليد ذكرى عالم مشهور، مثل (أبوطيلون ابن سينا) وهو اسم لنوع نباتي من لفظتين: الأولى هي اسم الجنس (أبوطيلون ـ Abutilon)، والثانية كنية نوعية، هي في هذا المثال (ابن سينا ـ Avicennac) تخليدا لذكرى هذا العالم الجليل، واعترافا بجميله. ويكتب الإسم على هذا النحو: (Abutilon avicennac)، ويأتي اسم الجنس نفسه أحيانا لتخليد ذكرى عالم، كما هو الشأن في اسم النوع النباتي (Averrhoa carambola) اسمه الفرنسي هو (Carambolier)، وسماه أحمد عيسى القلنباق.[1] وفيما يلي أمثلة كلاسيكية لأسماء الأنواع النباتية:

أمثلة نموذجية للتسمية الثنائية في علم التصنيف :

تعرف شجرة (نخل البلح)، وهي أشهر أشجار العرب، في التصنيف النباتي باسم: (Phoenix dactylifera) ويتكون هذا النوع النباتي من لفظتين لاتينيتين هما:

ـ (Phoenix) = إسم جنس النخل، ويشمل أنواعا كثيرة.

ـ (Dactylifera) = كنية نوعية، أصلها اللاتيني (dactylus) = بلح. والكنية هنا تميز هذا النوع بكونه يعطي البلح، وهذه خاصية لا توجد عند الأنواع الأخرى للجنس. ولنخل البلح أصناف وضروب، إلا أنها تنتمي كلها لنفس النوع.

واسم (نخل البلح) هنا يستوفي الشروط العلمية الخاصة بأسماء أنواع النبات، فهو يتكون من اسم الجنس (نخل) ومن كنية نوعية خاصة (البلح) تميز النوع داخل الجنس. ومثل هذه الأسماء وهي كثيرة في لغتنا، جديرة بأن تجمع وتدون ويعمم استعمالها في علم التصنيف الحديث عند العرب. واسم (نخل البلح) التي استعملها محمد شرف في معجمه منذ عام 1928، أصح من اسم (نخل معروف أو شائع) الواردة في معجم مصطفى الشهابي سنة 1957، لأن الإسم الأول ترجمة دقيقة للإسم العلمي الحديث، في حين أن الإسم الثاني هو ترجمة اسم فرنسي غير دقيق، اعتمده الشهابي، وهو (Palmier commun)، والترجمة العلمية الصحيحة هي (Palmier dattier) في الفرنسية.[2] أي نخل البلح.

ومن نباتات مراكش، مسقط رأسي، نبات (الحرمل)، اسمه العلمي اللاتيني هو: (Peganum Harmala)، ويتكون الإسم من لفظتين في صيغته اللاتينية هما:

ـ (Peganum) = إسم الجنس، كان يطلق عند اليونان على جنس (الفيجن)، وهو المعروف عندنا بـ (الفيجل)،[3] وقد أشار محمد شرف إلى أن (فيجن) معرب عن اليونانية، في مادة (RUTA)، وأن السذاب معرب من الفارسية. وكانت لفظة (Ruta) التي تطلق حاليا على جنس السذاب أو الفيجل، تعني باللاتينية، الأشياء التي تستخرج من الأرض، ولا تعرض للبيع، والنبات ذي الطعم المر،[4] نبات السذاب أيضا.

ـ (Harmala) = كنية نوعية من أصل عربي (حرمل)، وهو نبات مشهور ومعروف عند

العشاب المغربي. ونقل ابن البيطار في جامعه عن ديسقوريدوس قوله عن الحرمل: «يسميه بعض الناس (سذاب غير بستاني)»، وهذا يطابق ما سبقت الإشارة إليه، من أن (فيجن) معرب (Peganum) والشبه واضح إذا علمنا أن حرف (P) يكتب فاء في العربية. ويعرف اسم جنس الحرمل في الفرنسية بـ (Pégane)[5] وتعريبه (فيجن) كذلك.

وبناء على ما سبق، فإن ما يقابل الإسم العلمي لنوع الحرمل عندنا هو (سذاب الحرمل) أو (فيجن الحرمل)، لتتوفر الشروط اللازمة في اسم النوع النباتي بالمفهوم العلمي.[6]

وبمثل هذه الطريقة في البحث - أو طريقة أحسن وأدق منها - سيتم إن شاء الله وضع الأسماء العربية والمعربة لأنواع النبات، طبقا للقاعدة العلمية العالمية.[7]

وإذا ما علمنا أن أكثر من 350.000 نوع نباتي قد تم وضع أسمائها الثنائية العلمية[8] على الصعيد العالمي، اتضح جليا أن لا مناص من استعمال المعربات في كثير من الحالات.

أسماء الفصائل النباتية وعلم التصنيف

ينص تشريع مؤتمر النبات الدولي بستوكهولم سنة 1950، على القاعدة التالية:

(كل نبات مستقل ينتمي إلى نوع، وكل نوع إلى جنس، وكل جنس إلى فصيلة، وكل فصيلة إلى رتبة، وكل رتبة إلى طائفة، وكل طائفة إلى قسم).[9]

والفصيلة في علم الأحياء، كما يقول الشهابي، هي جملة أجناس لها صفات مشتركة. ولا يجوز تسميتها أسرة أو عائلة.[10] وهذا ما تنص عليه القاعدة من انتماء كل جنس إلى فصيلة. فالفصيلة النباتية هي وحدة تصنيفية، تضم من جنس واحد إلى مآت الأجناس، لجميع أنواعها صفات مشتركة، هي صلة القرابة فيما بينها، والمعتمد عليها في تصنيف النوع داخل جنسه، والجنس ضمن فصيلته. وغياب هذه الصفات المشتركة في نبات ما، هو الذي يمكن القائم بالتصنيف من استبعاد النبات من فصيلة وتصنيفه داخل أخرى، لنباتاتها صفات مشتركة مع النبات المزمع تصنيفه. ومثلما حددت أجناس جميع الأنواع النباتية، فقد تم تحديد فصائل جميع الأجناس المعروفة.

يؤخذ الإسم العلمي للفصيلة من أهم جنس فيها، وأكثرها تمثيلا لنباتاتها وأوفرها عددا من حيث الصفات المشتركة ما بين أجناس الفصيلة. يتألف اسم الفصيلة من حيث الرسم من الإسم اللاتيني للجنس الممثل لها، وينتهي في الصيغة اللاتينية بحروف ثلاثة هي (eae). وتحتفظ الأسماء الفرنسية للفصائل النباتية باسم الجنس اللاتيني نفسه، وتنتهي بحروف ثلاثة هي (ées)، أما في العربية، فإنها تنتهي بدورها بثلاثة أحرف هي (يات)، وكل هذه النهايات تشير إلى جمع المؤنث. وتحتفظ الأسماء العربية كغيرها باسم جنس من أجناس الفصيلة هو في الغالب نفس الجنس المعتمد في الاسم العلمي للفصيلة، ويأتي في أسماء قليلة باسم جنس آخر، ينتمي لنفس الفصيلة ويمثلها بما فيه الكفاية. ولا يخفى على القارئ أن الأسماء المعربة تشكل الأغلبية في أسماء الفصائل العربية.

ملاحظات حول تسمية الفصائل النباتية:

1) تحتفظ أسماء الفصائل النباتية في اللغات الحية مثل الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والعربية بأصلها اللاتيني الممثل في اسم الجنس الذي اشتقت منه الفصيلة، مع اختلاف بسيط في أواخر الأسماء.

ففي الفرنسية مثلا، يعرف جنس التنوب باسم (Sapin) ولم يشتق منه اسم الفصيلة، واحتفظ بالإسم العلمي (Abiètacées) وأصله من الإسم اللاتيني لجنس التنوب نفسه وهو (Abies). أما الإسم المرادف للتنوبيات، وهو الصنوبريات فأصله هو (Pinus) وهو الإسم اللاتيني لجنس الصنوبر، ومنه (Pin) الفرنسي. وعلى هذا القياس، وضعت الأسماء المرادفة ذات الأصل أو الجذر اليوناني أي اسم الجنس.

ونفس الملاحظة تصح بالنسبة للأسماء المعربة، لأنها من أصل لاتيني في أغلب الحالات. إلا أن هناك أسماء اشتقت من أسماء ذات أصل فارسي، مث السذابيات، أو أصل آرامي مثل البلوطيات (انظر كاسيات فيما سيأتي، بالنسبة لأصل اسم البلوط. وراجع التسمية الثنائية لنبات الحرمل، وفيه أصل السذاب).

2) لبعض الأجناس في العربية أسماء ثنائية، مثل اسم (رَعْيُ الحمام = Verbena)، وقد اشتق اسم الفصيلة (Verbenacées) من الإسم اللاتيني للجنس، ووضع الإسم العربي للفصيلة من اسم جنس «الأَرْثَد»، وهو باللاتينية (Vitex)، وكثيرا ما ترد النباتات المنتمية للفصيلة معرفة على أنها من فصيلة رعي الحمام، بمعنى من الأرثديات.

عرف محمد شرف هذه الفصيلة بما نصه: (ص: 938) «فصيلة البربينا، أو الوربانة، أو الوربينا النباتية وهي فرع من الفصيلة الشخصية، أو حشيشة الخنازير (Scrofulariacées)». وفي هذا التعريف إلتباس واضح، لأن فصيلة الأرثديات، لا علاقة لها بفصيلة الشخصيات أو الخنازيريات، وليست فرعا منها ولا قبيلة، ومصدر الالتباس، هو الشبه الحاصل في الرسم والنطق بين «فصيلة البربينا =(Verbenacées)»، المعرفة من طرف محمد شرف، وقبيلة البوصيريات واسمها (Verbacées)، غير وارد في معجم صاحب التعريف. والبوصيريات هي التي تعد في علم التصنيف فرعا أو قبيلة داخل الفصيلة الشخصية أو الخنازيرية، واسمها من الجنس النباتي (Verbascun) وقد عرفه محمد شرف بأنه «بوصير، من النباتات الشخصية».

3) وكما تلجأ اللغة العربية إلى الكلمات المعربة، لجأت اللغة اللاتينية في علم التصنيف إلى العديد من الأسماء التي لم يستعملها اليونان من قبل، مثال ذلك اسم أراليا (Aralia)، (11) وهي لفظة كندية، حسب الشهابي، ومنها اسم فصيلة الأراليات (Araliacées).

ونكتفي بهذه الأمثلة التي أوردناها على سبيل المثال لا الحصر، لأن أمثالها كثير والكلام فيها بإسهاب قد يكون مادة كتاب بأكمله، وتكفي هنا الإشارة إليها.

4) هناك فصائل نباتية، شاع استعمالها، وعم تداولها بأسماء قديمة لا ذكر لاسم الجنس الممثل للفصيلة فيها. وتدل أسماء هذه الفصائل على صفة تميز ثمار أو أزهار أو

أوراق نباتات الفصائل التي تحمل أسماءها. ولقد تم وضع أسماء جديدة لها، طبقا للقاعدة العامة المتبعة في علم التصنيف. ومن هذه الفصائل ما يلي:

- بقليات - سنفيات - قطانيات - قرنيات: أربعة أسماء لفصيلة واحدة، اسمها المتداول والمستعمل استعمال الأسماء العلمية هو (Légumineuses)، أصله من الكلمة اللاتينية (Légumen) ويقابلها في الفرنسية (Légume)، وترجمتها إلى العربية: سنفة وقرن، وبقل، وحلبة، وعلفة، وحنبلة، [12] وقد أقر مجمع اللغة بمصر اسم القرنيات، بناء على اقتراح من الأمير مصطفى الشهابي. [13] سميت بهذا الإسم لأن ثمار كل النباتات المصنفة فيها على شكل قرون، مثل ثمار الفول واللوبيا والعدس والخروب والطلح. وكان هذا التشابه كافيا في البداية، لضم نباتات مثل الفول والخروب والطلح ضمن فصيلة واحدة. وبتقدم علم النبات، ظهرت اختلافات في شكل الأزهار ما بين الفول والطلح مثلا، بل ولوحظ تباين حتى في الثمار القرنية ما بين الفول والخروب، فقام النباتيون بتقسيم نباتات القرنيات إلى ثلاث فُصَيْلات (بالتصغير) هي: الفراشيات (Papilionacées) ويمثلها نبات الفول، والعندميات (Cesalpinacées) ويمثلها نبات العندم والخروب، والسنطيات (Mimosacées) ويمثلها السنط ومنه الطلح. وبما أن اسم الفراشيات بدوره لم يشتق من اسم الجنس وإنما يشير إلى شكل أزهار هذه المجموعة، الشبيه بشكل الفراشات، فقد تم أخيرا، وضع اسم جديد للفراشيات هو (Fabacées) وهو من اسم جنس الفول (Faba) وترجمة الإسم الجديد إلى العربية هو فوليات أو الباقلائيات. قال صاحب المصباح المنير: «الفول الباقلاء، قاله ابن فارس». وفي مختار الصحاح «الفول: الباقلا»، بدون همزة. وقال الجاحظ في الحيوان: «والباقلاء إذا عتق شيئا في الأنبار استحال كله ذبابا»، وشرح محقق الكتاب، عبد السلام محمد هارون، في الهامش: «الباقلى، بكسر القاف وتشديد اللام وتخفف، والباقلاء مخففة ممدودة هي الفول. هذه هي الباقلاء النبطية، وأما الباقلاء المصرية فهي الترمس، والأولى هي المرادة، لارتباط العراقيين بالأنباط» (ج. 3، ص: 355).

- خيميات: (Ombéllifères) أصل الإسم من اللاتينية (Umbella) بمعنى مظلة، خيمية، إلماعا إلى تجمع أزهار نباتات الفصيلة على شكل مظلات أو خيميات.

ذكر لها معجم «المنهل» اسم (صيوانيات)، بالياء، ولم أجدها، والصوان والصيان في اللغة: الوعاء الذي تصان فيه الثياب والكتب، والتصوينة: السور يحيط بالبيت. ولا أرى وجه الشبه. وعرف نظام إزهرار الفصيلة بـ «المنهل» نفسه على أنه: «تكون فيه الأزهار على شكل مظلة محمولة على علاقات تنطلق جميعها من نقطة واحدة» (ص: 714).

وضع للفصيلة اسم جديد هو (Apiacées)، من اسم الجنس (Apium)، وهو جنس الكرفس.

- راتنجيات = تربنتيات: اسم الراتنجيات من الراتنج، وهي معربة، عرفها المعجم العربي الحديث لاروس: «على أنها مادة لزجة تخرج من لحاء بعض الأشجار كالصنوبر وغيره» (ص: 565). والصنوبر كما سبق الذكر من الصنوبريات في التصنيف النباتي، وإن كان ينتج الراتنج. ونسبت أشجار البرقوق

البري (ص: 230) والسماق (ص: 677) بالمعجم المذكور أعلاه إلى الراتنجيات، وهي من البطميات. وورد اسم «إجاص البر» (ص: 24) وهو برقوق البر منسوبا بنفس المعجم إلى البطميات (Terebinthacées)

كانت فصيلة البطميات تسمى بالتربنتيات نسبة إلى جنس (Terebinthus) ومنه البطم، وأصبحت تسمى (Anacardiacées) من اسم جنس البلاذر (Anacardium) وترجمتها البلاذريات.

عرف محمد شرف نبات البلاذر بأنه «أنقرديا» بالرومية لأن ثمرته تشبه القلب. (ص: 53) ولم ينسبه إلى فصيلته. وذكره رمزي مفتاح في كتابه إحياء التذكرة ونسبه إلى الفصيلة القلبية أو التربنتية (ص: 176)، والقلبية هنا بفتح القاف. وذكر الشهابي نباتات كثيرة ونسبها في معجمه إلى فصيلة القلبيات، بضم القاف، أو كاسر الحجر، وهي الفصيلة الواردة بالمعجم الملحق. أما الفصيلة القلبية، بفتح القاف، فلا تستعمل حاليا في التصنيف.

- زربيحيات = سرمقيات: اسم الزربيحيات، لم يعد مستعملا في الكتابات الحديثة إلا نادرا. ذكرها رمزي مفتاح في إحياء التذكرة مرادفة للسرمقيات، وكتبت بالجيم. (ص: 80) وذكرها، بالجيم كذلك، خليل الجر في المعجم العربي الحديث، ونسب إليها نبات البقلة اليمانية (ص: 244). والراجح أنها بالحاء: وهي من اسم الجنس (زربيح) بالحاء. وقد ذكر خليل الجر في نفس المعجم نبات الزربيح، بالحاء، ونسبه إلى فصيلة السرمقيات (ص: 622). وذكره محمد شرف في معجمه بالحاء، ولم ينسبه إلى فصيلته (ص: 204).

- شفويات: (Labiées) أصل الإسم من اللاتينية (Labia) بمعنى شفة. أطلق الإسم على الفصيلة لأن لنباتاتها أزهار ذات تويج = corelle على شكل شفتين: شفة عليا، وشفة سفلى. وضع للفصيلة أخيرا، اسم جديد هو (Lamiacées) من اسم الجنس (Lamium) لاميون، ويرد معربا في الكتب القديمة والحديثة على السواء.

- شوكيات: (Cactacées) من الأصل اللاتيني (Cactos) بمعنى شوكة. وتتميز نباتات الفصيلة بأوراقها الفريدة التي تكون على شكل شوك، لتتحمل جفاف منبتها الأصلي وهو أمريكا الجنوبية. وأوردناها في المعجم الملحق، لأنها وردت ضمن نباتات المغرب في المراجع المعتمدة. الإسم المرادف، الصباريات (Opontiacées) من اسم الجنس (Opuntia) وهو التين الشوكي أو الصبار. والإسم العلمي الجديد لا يزال قليل الاستعمال في كتب اللغة، وهو المعتمد في علم التصنيف.

- صليبيات: (Crucifères) من الأصل اللاتيني (crucifero) ويتكون من (crux) أي صليب، وfero = حامل، بمعنى حامل الصليب، وكان الإسم يطلق على المسيح عليه السلام. سميت الفصيلة بهذا الإسم، لأن تويج أزهار نباتاتها يتكون من أربع تويجيات أو بتلات pétales توحي بشكل الصليب. وضع للفصيلة اسم جديد (Brassicacées) من اسم الجنس (Brassica)، وهو الكرنب. وكان يطلق على نوع من الخردل. وتعرف الفصيلة عند العطار المغربي باسم الخردليات (مراكش). وترجمتها إلى الكرنبيات، قد يسبب التباسا، لأنه سبق أن وضع اسم الكرنبيات، في علم الحيوان لفصيلة فراش

الكرنب (Ptérides)، وهي من حرشفيات الأجنحة (انظر معجم الشهابي ص: 509).

ـ فراشيات: (انظر بقليات).

ـ قرنيات: (انظر بقليات).

ـ قطانيات: تطلق على القرنيات (انظر بقليات).

ـ كأسيات: (Cupulifères)، من اللاتينية (cupule) بمعنى كأس. تطلق على البلوطيات. وسميت بالكأسيات، لوجود كأي خشبية على ثمار نباتاتها. اسمها الجديد هو (Fagacées) من اسم الجنس(Fagus) وهو الزان. وترد الفصيلة باسم السنديانيات، وأصله من السنديان وهو اسم فارسي عرب قديما يطلق حاليا على نوع من البلوط يسمى بُلاخ. وأما اسم البلوط فهو من الأرامية، وهو باللاتينية (Quercus).

ـ مركبات: (Composées) وترد باسم (Compositae) من الأصل اللاتيني (compositicius)، بمعنى مكون من عدة أجزاء، وفي هذا إشارة إلى تجمع عدة زهيرات، في شكل زهرة واحدة عند نباتات الفصيلة، ويعرف هذا النوع من الأزهار، بالأزهار المركبة، وصارت الفصيلة كلها تعرف بالمركبات.

وضع للفصيلة اسم جديد هو (Asteracées) من اسم الجنس (Aster) ترجم قديما إلى أسطر، وترجمه الشهابي إلى نجمية وزهرة النجمة. ولا يصح ترجمة الإسم الجديد إلى نجميات، لأن النجم اسم مشهور في فصيلة النجليات ومنه النجيل. والنجميات كذلك، فصيلة سمك من رتبة ملحومات الفكوك (الشهابي ص: 474). والنجميات أيضا، طائفة حيوان من شعبة الشوكيات (الشهابي ص: 616).

تعرف فصيلة المركبات في بعض كتب النبات باسم (Synanthéracées) من (synanthere) متجمع، إشارة إلى تجمع والتحام قمم الأسدية (متك =anthère) عند أزهار المركبات.

ـ نجيليات: (Graminées) الإسم العربي من اسم الجنس: نجيل، وهو الثيل وهو النجم اسمه العلمي أغرسطس، ذكره ابن البيطار نقلا عن ديسقوريدوس في جامعه (ج. 1، ص: 153) وهو من الإسم اللاتيني (Agrostis). والإسم العلمي المتداول لهذه الفصيلة، من اللاتينية (gramen) بمعنى النجم، وهو كل نبات لا ساق له. الإسم الجديد للفصيلة هو (Poacées) من اسم الجنس (Poa)، وترجمته عند الشهابي: كلئية وعشبة الكلأ، ومن أسمائه عند محمد شرف: عنزع، وقلاب، وقليب. واسمه في الفرنسية (paturin).

5) كل الأسماء الجديدة الموضوعة للفصائل المذكورة في الملحوظة أعلاه لازالت غير واردة بكتب اللغة العربية والفرنسية المتداولة، بل ولا تذكرها حتى كتب النبات في بداية هذا القرن. ويكفي هذه الدراسة والمعجم الملحق بها، أنها من الكتابات العربية الأولى التي تذكر هذه الأسماء الجديدة، وتعرف بالمرادفات لها، وترتبها ضمن معجم خاص بالفصائل النباتية الموجودة بالشمال الإفريقي. والله أسأل أن تنشر هذه المعلومات، خدمة للغتنا العربية، حتى يتحقق المقصود الذي من أجله وضعت هذه الدراسة، وما سيتلوها من دراسات، وهو التعريف بنباتات المغرب خاصة، وبلدان اتحاد المغرب العربي عامة.

6) يضم المعجم الملحق بهذه الدراسة أسماء الغديد من القبائل النباتية، ترد في كتب اللغة وحتى في كتب بعض النباتيين على أنها

فصائل مستقلة. والقبيلة في التصنيف، هي مجموعة أجناس لها صفات مشتركة تميزها عن باقي أجناس الفصيلة نفسها، ودفعا للالتباس، ذكرت الفصيلة الأم ما بين قوسين، وقلت مثلا: بوصيريات (من الخنازيريات) بمعنى أن البوصيريات قبيلة نباتية تصنف أجناسها، أو جنسها ضمن الخنازيريات.

7) اشتقت أسماء عربية أو معربة لبعض الفصائل من أسماء تطلق على أجناس مختلفة وتنتمي إلى فصائل متباينة. مثال ذلك اسم البلسان: يطلق على جنس من البخوريات اسمه العلمي (Balsamodendron) ذكره محمد شرف بهذا الإسم في معجمه (ص: 120)، والشهابي، وقال فيه: «أما البلسان في اصطلاح اليوم فهو الخمان». (ص: 177). ويطلق البلسان على الخمان ومنه اسم الفصيلة بلسانيات ومرادفها خمانيات. والوقوف على مثل هذه الحالات، يتطلب البحث في أسماء الأجناس.

نبذة تاريخية عن تداول أسماء الفصائل

إذا كانت الأسماء الجديدة المرادفة لأسماء الفصائل المشار إليها في الملحوظة رقم (4) لم يشرع بعد في إدراجها في كتب اللغة والنبات، وإلى نهاية النصف الأول من هذا القرن، فإن أسماءها القديمة، التي وضعت في غياب علم التصنيف الحديث، هي أقدم الأسماء المعروفة للفصائل النباتية في العصر الحديث. وهذه تواريخ بداية استعمال بعضها، حسبما أورده معجم «روبير الصغير» (طبعة 1973): البقليات: 1775، الخيميات 1701، الشفويات: 1694، الصليبيات: 1762 (في اللغة الفرنسية). ويتضح من هذه التواريخ، أن أسماء مثل شفويات وخيميات، استعملت في اللغة الفرنسية قبل ميلاد مؤسس علم التصنيف نفسه، وهو من مواليد 1707. أما الأسماء التي استحدثت طبقا لقواعد علم التصنيف فلم تظهر، إلا بعد نشر الأعمال الأولى في هذا العلم.

اهتمت معاجم كثيرة بوضع تاريخ ظهور الألفاظ الفرنسية، وأصلها، وهذه أمثلة توضح تاريخ ظهور اسم الجنس المعتمد في اشتقاق اسم الفصيلة، وتاريخ ظهور اسم الفصيلة المشتقة منه، (معجم «روبير الصغير»، طبعة 1973):

إسم الجنس	تاريخه		إسم الفصيلة	تاريخها
أخدرية	1777		أخدريات	1846
أسل	1160		أسليات	1798
أقنتا	1509		أقنتيات	1751
بقس	1525	←	بقسيات	1857
حمحم	1256		حمحميات	1775
رصاصية	1556		رصاصيات	1812
صقلاب	1545		صقلابيات	1839

إسم الجنس	تاريخه		إسم الفصيلة	تاريخها
قطيفـة	1544		قطيـفيـات	1808
مزمار الراعـي	1808	←	مزماريـات	1845
نـرجـس	1808		نـرجسيـات	1845

يستنتج من هذه الأمثلة أن أسماء الفصائل النباتية ظهرت تدريجيا تبعا لاكتشافات علم النبات، وتقدم علم التصنيف. وأن تداولها يأتي بعد مدة من وضعها من طرف النباتيين، وإقرارها من لدن اللغويين، قبل إدراجها في معاجم اللغة. وهذه المدة تطول وتقصر. أما في اللغة العربية فالواقع المعاش يفرض انتظار ظهور الأسماء العلمية للفصيلة، ونشرها في إحدى اللغات الغربية وخاصة منها الإنجليزية أو الفرنسية، ثم تعريب هذه الأسماء من طرف أهل الاختصاص، ونشرها في الغالب نتيجة مجهودات فردية، أو عرضها على اللغويين قبل تعميم تداولها.

وفيما يلي جولة سريعة في مواد الحروف الأولى لمعاجم لغوية فرنسية وعربية، لا يستغني عنها طالب و باحث أو أستاذ، لنقف على وضعية أسماء فصائل المعجم الملحق ضمن موادها.

1) معاجم اللغة الفرنسية وأسماء فصائل النباتات:

أ ـ (لاروس كوني جديد) طبعة 1949 ـ 2366 صفحة ـ مجلدان ـ حجم كبير

- Nouveau Larousse Universel , (Edit. 1949).

يتبين من مقارنة فصائل نباتات الشمال الإفريقي، بأسماء الفصائل النباتية الواردة بمعجم «لاروس» هذا، أن عشرات الأسماء لفصائل الشمال الإفريقي غير مذكورة بهذا المعجم الفرنسي الصادر منذ 40 سنة.

* ـ في الحرف الأول مثلا، وهو (A)، لم تنشر أسماء 11 فصيلة أسماؤها العلمية تبتدىء بهذا الحرف، وهي مرتبة من اليسار إلى اليمين:

Aceracées - Adoxacées - Aizoacées - Ajuguées - Amarantacées - Ambrosiacées - Apiacées - Aquifoliacées - Asclepiadacées - Asparaginées.

يقابلها بالعربية والمعربة بالتوالي: قيقبيات، أدوكسيات، ملاحيات، أيوجيات، قطيفيات، أمبروزيات، كرفسيات (مع ذكر الخيميات)، الإسم المرادف للبهشيات، أراليات، صقلابيات، هليونيات. ومن بين هذه الأسماء، أسماء قبائل ترد أحيانا على أنها فصائل حتى عند بعض النباتيين.

* ـ في الحرف الثاني لم ترد أسماء 3 فصائل يبتدىء اسمها بالحرف (B)، هي:

- Bétulacées - Bombacacées - Brassicacées

يقابلها في الأسماء العربية والمعربة، على التوالي: بتوليات، فصيلة القطن الحريري، خردليات،

* ـ في الحرف الثالث: (C)، لم تنشر أسماء 12 فصيلة من فصائل الشمال الإفريقي هي:

- Callitrichacées - Celtidées - Ceratophyllacées - Cesalpinées - Cistacées - Colchicacées - Coriariacées - Cuscutacées - Cynomoriacées - Cytinacées.

(وعلانيات = Commelinacées)

يقابلها في الأسماء العربية والمعربة: بهائيات الشعر، ميسيات، قرنيات الورق، عندميات، لاذنيات، سورنجانيات، كورياريات، كشوتيات، سينكرامبريات، مصروريات أو طرثوثيات، سيتنيات. وفي هذه الأسماء قبائل نباتية، وردت في بعض المراجع على أنها فصائل. ويشير المعجم الملحق إلى القبائل بذكر فصائلها ما بين قوسين.

* وقد ترد أسماء الفصائل كاملة العدد في بعض حروف المعجم الفرنسي المذكور.

ب ـ (لاروس صغير بالألوان) طبعة 1972 992 صفحة في قسم اللغة ـ 1 مجلد، متوسط الحجم.

* في الحرف الأول (A)، بقيت أسماء 7 فصائل غير واردة بهذا المعجم وهي:

أدوكسيات، ملاحيات (مرادفها الجديد)، أيوجيات (شندقوريات)، أمبروزيات، (كرفسيات)، (مرادف بهشيات)، أراليات.

* في الحرف الثاني (B)، لم تعرف أسماء 4 فصائل في موادها وهي بترتيب مادة الحرف: فصيلة القطن الحريري (بمبكسيات)، خردليات، بخوريات (وكانت معرفة في المعجم السابق)، والعنازيات.

* في الحرف الثالث (C)، لم يرد ذكر أسماء 16 فصيلة من فصائل الشمال الإفريقي (وهي موضوع الدراسة والمقارنة كما سبق الذكر). وهذه الأسماء هي: بهائيات الشعر، كبريات، ميسيات، قرنيات الورق، لاذنيات، كلوزيات، سورنجانيات، إهليلجيات، وعلانيات، كورياريات، سرويات، كشوتيات، سينكرامبريات، مصروريات أو طرثوثيات، سيتنيات.

2) معاجم اللغة العربية وأسماء الفصائل النباتية:

أشرنا أكثر من مرة أن أسماء الفصائل مصطلحات مستحدثة، وهي غير مذكورة في كتب اللغة العربية المؤلفة قبل القرن السابع عشر. وبما أن النباتات عامة كانت تدخل ضمن علم الطب والصيدلة، فقد جاء في قائمة المعاجم الطبية، أن أول قاموس طبي علمي، ظهر بعد الجامع لمفردات ابن البيطار، من حيث الترتيب التاريخي، هو من تأليف إسكندر نعمة الإسكندر، ويرجع تاريخه إلى 1883، ولعله ثنائي اللغة، ولم أقف على محتواه (اللسان العربي ـ عدد 30، ص: 134).

وإذا تركنا المعاجم الطبية جانبا في انتظار البحث فيها، واعتبرنا معاجم اللغة مثل المنجد في اللغة والأعلام، والمعجم العربي الحديث «لاروس»، مثلا، وهي مؤلفات حديثة، من المفروض أن تقدم في موادها ما يستجد من أسماء في مختلف العلوم، نخرج بملاحظات عن أسماء الفصائل بها، وفي ما يلي إشارة إليها.

أ ـ المنجد في اللغة والأعلام ـ الطبعة 23، 1975 ـ 1014 صفحة ـ حجم متوسط.

* ذكر المنجد العديد من أسماء الفصائل النباتية، ضمن التعريف ببعض النباتات المنتمية إليها، كأن يقال مثلا: (أثل: شجر من فصيلة الطرفاويات)، أو (إسبانخ بقلة من السرمقيات) في مادتي: «أثل» و «أسب».

* عرف المنجد بـ 6 فصائل نباتية (من حرف «الألف» إلى «الكاف») هي: الخيميات، الربيعيات، السرمقيات، الصابونيات (وهي فصيلة غير برية بالشمال الإفريقي)،

الصليبيات، الصنوبريات.

بالنسبة لحرف «الألف»، نلاحظ ما يلي عن أسماء الأجناس التي اشتقت منها أسماء فصائل الشمال الإفريقي:

ـ أثـــل	:	نسب إلى الطرفاويات.
ـ أخدرية	:	غير واردة بمادة «خدر».
ـ أراك	:	ذكر الجنس ولم ينسب إلى فصيلته.
ـ أرثـــد	:	لم يذكر بحرف الألف ولا مادة «رثد».
ـ اسفاناخ	:	ذكر بالباء بمادة أسب، ونسب إلى السرمقيات.
ـ أسل	:	ذكر الجنس ولم ينسب إلى فصيلته.
ـ أسليخ	:	لم يرد في حرف الألف ولا مادة «سلخ».
ـ أسمندة	:	لم يذكر الجنس.
ـ آس	:	لم يذكر الجنس.
ـ أقصليس	:	ذكر في مادة «أقص» و كتب «أقصليص» ولم ينسب إلى فصيلته.
ـ أقنـثـا	:	سمي الأقنثا والأقنثوس ونسب إلى الأقنثيات.
ـ أمبروزية	:	لم يذكر الجنس.
ـ أمسوخ	:	ذكر في مادة «مسخ» ولم ينسب إلى فصيلته.
ـ أنجرة	:	لم يذكر اسم الجنس.
ـ إهليلج	:	لم يذكر اسم الجنس.

ب ـــ المعجم العربي الحديث لاروس ـ طبعة 1973 ـ 1307 صفحة ـ حجم متوسط.

* هذا المعجم غني جدا بأسماء الفصائل المعرفة في موادها، والنباتات التي نسبت إلى فصائلها. ونظرا لكثرتها نكتفي بالنظر إلى حرف الألف، وما ورد فيه من أسماء:

ـــ وردت 4 أسماء للفصائل في موادها بحرف الألف وعرفت، والأسماء هي:

أخدريات ـــ آسيات ـــ (وعرفت الحُماضيات والقراصيات وهي مرادفة للأقصليسيات والأنجريات). ولم تعرف مرادفات الأسماء الأخرى.

ـ وبالنسبة لأسماء الأجناس التي اشتقت منها أسماء فصائل هذا الحرف، فقد ورد بعضها منسوبا إلى فصائله مثل: أخدرية، أرثد، أسل (ونسب إلى السعديات، وهذا التباس)، آس، أقصليس، أقنثا، أنجرة، إهليلج.

ـــ أما الفصائل التي نسبت إليها بعض نباتاتها فهي: أثليات، أخدريات، أراليات، أسليات، آسيات، أقنثيات، أنجريات، إهليلجيات.

وترد هذه الأسماء في التعاريف الموضوعة لأسماء النبات حسب مواد هذه الأخيرة.

* ملاحظة :

وردت فصيلة الآبنوسيات في الصفحة

الأولى من المعجم، منسوبة إلى فصيلة القرنيات، وهذا غير وارد في التصنيف النباتي، وقد أشرنا إلى تقسيم القرنيات حديثا إلى فراشيات وعندميات وسنطيات. وفصيلة الآبنوسيات لا تمت بصلة إلى القرنيات. فثمار الآبنوسيات غير قرنية ولا سنفية، وهي أشبه ما تكون بالطماطم في لونها وشكلها الخارجي، وقد رسمت أوراق وزهرة وثمرة الكاكي، وهو من الآبنوسيات بالصفحة 982 من هذا المعجم، والرسم وحده يبين الفرق الشاسع بين ثمرة الآبنوسيات والقرنيات.

ومصدر الالتباس أن اسم الآبنوس شاع استعماله في النجارة ومنه الحرفة (ébénéstric) ويطلق على أخشاب صلبة سوداء، تنتجها أشجار متنوعة منها ما ينتمي إلى الآبنوسيات فعلا، مثل: جنس (ديوسبيروس= Diospyros)، ونوعه الصيني (ديوسبيروس صيني) هو المشهور بخشبه على نطاق واسع.

والآبنوسيات لا تعد ضمن الفصائل البرية بالشمال الإفريقي، ويوجد نوعها هذا مغروسا بالمغرب (دفاتر البحث الزراعي عدد 29/1971).

ومن نباتات القرنيات أجناس شجيرات خشبها صلب أسود، يسمى أيضا بالآبنوس، ومن هذه الأجناس: جنس (دالْبيرْجيا = Dalbergia)، وهو من النباتات البرية بالصحراء المغربية، ويعرف فيها باسم (سانغو). وجنس ثان اسمه العلمي آبنوس= Ebenus وهو من نباتات أحواز مراكش، وهو من القرنيات، وهو غير الآبنوس المنتمي إلى الآبنوسيات.

أما الآبنوس الكاذب، فيطلق على جنس (سيتسوس= Cytisus) وهو من القرنيات الفراشيات.

تحديد الأسماء العلمية لفصائل نباتات الشمال الإفريقي

وضع المعجم الخاص بفصائل نباتات الشمال الإفريقي بعد دراستين :

* الدراسة الأولى تتناول الفصائل النباتية عامة، نتج عنها تحديد لائحة عربية وأخرى فرنسية ــ لاتينية لحوالي 300 فصيلة نباتية، ورد ذكرها في كتب النبات ومعاجم اللغة، بعثت منها بنسخة إلى الإذاعة الوطنية سنة 1986. وتشمل هذه اللائحة، أهم الفصائل المعروفة على الصعيد العالمي، منها نباتات الشمال الإفريقي وأخرى لا وجود لها بالمنطقة، أو هي من الدخيلة إليها، ضمن المغروسات والمزروعات، وأغلبها من نباتات الزينة في الحدائق والبيوتات. وهذه الفصائل لا تعد من نباتات بلد ما، إلا إذا ثبت وجودها برية على أرض البلد.

* الدراسة الثانية خاصة بنباتات الشمال الإفريقي، اعتمدت فيها على كتب تصنيف نباتات المنطقة، التي تم العثور عليها في حالة برية. وكانت النتيجة تحديد حوالي 135 فصيلة تمثل مجموع النباتات البرية بالشمال الإفريقي، ما بين مستورات الزهر الوعائية (Ptéridophytes) وذات البزر (Spermatophytes).

والمراجع المعتمدة هي:

أ) مبحث نباتات شمال إفريقيا (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب):

تأليف: «روني مير» René Maire (1878 ـ 1949):

مات هذا العالم قبل نشر عمله الضخم الذي شغل حياته، وهو دراسة وتصنيف نباتات الشمال الإفريقي. وترك مسودة من 20 جزء كان قد أرسلها للطبع. وبدأ نشر هذه الموسوعة التصنيفية منذ 1952، ونشر منها إلى سنة 1987، 16 مجلدا. مات العالم قبل إتمام تصنيف كل نباتات المنطقة، وبقيت مجموعة من الفصائل هي ذوات التويجيات أو البتلات المتحدة أو الملتحمة (gamopétales).

وقد ذكر العالم أسماء فصائل نباتات الشمال الإفريقي كاملة غير منقوصة في الجزء الأول والثاني، ضمن «مفاتح التصنيف» التي حددها المؤلف ووضعها أساسا لعمله، ومنها استخرجتُ لائحة فصائل المنطقة، وبلغ مجموع أسمائها 179 ما بين برية ودخيلة أو مستوردة.

واعتمادا على ما تيسر الاطلاع عليه من الأجزاء المنشورة من الموسوعة وهي 15 جزءا، تم تحديد الفصائل البرية وفرز الدخيلة وبقي قسط من الأسماء المشكوك فيها، تم ضبطه بمقارنة اللائحة المستخرجة بلوائح وضعها غيري لفصائل المنطقة، وأخرى استخرجتها من مؤلفات لنباتات المغرب والجزائر خاصة، وهي الآتي ذكرها.

ب) لائحة فصائل نباتات المغرب:

وردت اللائحة بقلم (أوديت باربيت ـ لوكونط (O. Barbet-Lecompte وتضم أسماء 124 فصيلة برية من نباتات المغرب. نشرها المركز الوطني للبحث العلمي بباريس، بمشاركة مغربية سنة 1975. واللائحة مستخرجة من مخطوط لنباتات المغرب، استعارته صاحبة المقال من مؤلفه «شارل صوفاج» المعاصر، وتقدم اللائحة عدد أجناس وأنواع كل فصيلة، وهذه مساهمة ساعدت في تحديد الأسماء العلمية للفصائل البرية، بمقارنتها مع اللائحة المستخرجة من مبحث شمال إفريقيا.

شارل صوفاج = Charles Sauvage عالم نباتي معاصر، له منشورات عن نباتات المغرب منذ 1945، والمشرف والمقدم لنشرة المركز الوطني الفرنسي، عاش كثيرا بالمغرب أستاذا وباحثا، وما يزال يساهم في إتمام بناء علم تصنيف نباتات المغرب، ومما لاشك فيه، أن ظهور مخطوطه سيسهل صعابا كثيرة للباحثين،ويمهد الطريق للطلاب والراغبين المهتمين.

عنوان النشرة العلمية: «دراسة بعض المناطق بالمغرب وتطورها الحديث»

Etude de certains milieux du Maroc et de leur évolution récente III (R. C. P. 249) 1975 - C. N. R. S.

عنوان المقال بالنشرة هو: (مدخل لدراسة الاستيطان النباتي بالمغرب)

(Introduction à une étude de l'endémisme végétal au Maroc)

وهو من الصفحة 15 إلى الصفحة 46. واللائحة في خمس صفحات.

واعتمدت في تحديد أسماء فصائل الصحراء المغربية المسترجعة على مؤلف عنوانه: «مساهمة في دراسة نباتات الصحراء الغربية»، وهو في جزئين صغيرين، الجزء الأول يتناول الجانب النباتي للمنطقة، وأسماء نباتاتها من تأليف «شارل صوفاج»، و «فانسن مونتيل» Ch. Sauvage et V. Monteil. والجزء الثاني يقدم إحصاء للأنواع النباتية البرية بالصحراء

المغربية، وأسمائها المتداولة بالمنطقة بالعربية والبربرية واللهجات المحلية، مع الإشارة إلى فصيلة كل نوع، وهو من تأليف «فانسن مونتيل». ونشر الكتابان منذ 1953. وجاءت اللائحة المأخوذة عن هذا الكتاب، باسم جديد يضاف إلى أسماء فصائل المغرب هو اسم الفصيلة البخورية أو البخوريات واسمها المغرب البرسريات (Burseracées).

وساهمت دراسات أخرى صادرة عن المعهد الوطني للبحث الزراعي بالمغرب مثل: سلسلة دفاتر البحث الزراعي، عدد 29/1971، وأعداد كثيرة من مجلة العوامية، وأخص بالذكر منها العدد 22/1967، وهو خاص بنباتات منطقة طنجة، والعددين رقم 40 و41/1971 وفيهما نتائج جولة دراسية لنباتات المغرب، أقول، ساهمت دراسات محلية في الإلمام وتمييز الفصائل البرية والدخيلة في المغرب.

من الدراسات المحلية، كتاب في مجلدين ـ 979 صفحة. تأليف: ر. نيكر (R. Nègre) نشرهما المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي 1961ـ1962 وطبع بالجزائر. يضم الكتاب 825 نوع نباتي مصنفة في 87 فصيلة برية.

Petite Flore des Régions Arides du Maroc Occidental, R. Nègre C.N.R.S. 1961 - 1962 Alger.

وقمت شخصياً بدراسة قصد تصنيف نباتات جماعة المشرك بدكالة، ناحية سيدي بنور، ووضعت مبحثا صغيرا، ما بين 1987 و1989، يضم 400 نوع نباتي تنتمي إلى 50 فصيلة نباتية برية بالمنطقة. أنجزت الدراسة في نطاق إعداد صور طبيعية للنباتات الطبية ونشرها في كتاب عن الطب التقليدي بالمغرب يعمل في تأليفه البروفسور المغربي الأستاذ الدكتور (جانا موحا (JANA MOHA). وقد عرض البروفسور حوالي 300 نوع نباتي تنتمي إلى 48 فصيلة من نباتات دكالة على فرقة من النباتيين الفرنسيين قاموا بجولة دراسية في المنطقة الجنوبية، وأجازوا نتائج تصنيف نباتات جماعة المشرك، حسبما أكده لي الأستاذ جانا موحا، ووافق هذا الأخير على نشر مواد منه في كتابه عن الطب التقليدي بالمغرب.

ج) نباتات الجزائر:

وردت أسماء فصائل نباتات الجزائر ضمن مواد فهرس كتاب عنوانه «المبحث الجديد لنباتات الجزائر =Nouvelle Flore d'Algérie»

تأليف: (كويزيل وصانطا):

(Quezel et Santa) C.N.R.S. 1963.

ونشره المركز الوطني الفرنسي ـ 1170 صفحة ـ مجلدان ـ حجم متوسط. وكويزيل هذا هو الأستاذ المشرف على نشر موسوعة «روني مير» أي «مبحث نباتات شمال إفريقيا» منذ البداية.

جاءت اللائحة المستخرجة من فهرس كتابه، ومقارنتها باللوائح الأخرى بأسماء جديدة لفصائل مستحدثة مثل «الروبيات = Ruppiacées» وجنس (روبية هذا = Ruppia) كان يرد مصنفا في فصيلة أخرى اسمها معربا هو (زصتيريات = Zosteracées)، واستحدثت فصيلة أخرى من جنس ينتمي بدوره إلى «الزصتيريات» قديما، هو جنس «بوصدنيا» وسميت فصيلته البوصدنيات= Posidoniacées. واستحدثت فصيلة أخرى من جنس كان يصنف في العنازيات، هو جنس «زنقلية»

وسميت الفصيلة الجديدة بالزنقليات (Zannichelliacées).

وإذا كانت لائحة نباتات الجزائر قد جاءت بأسماء جديدة، فإنها كذلك لم تذكر بها فصائل ذكرها «صوفاج ومير» ضمن النباتات البرية، والفصائل هي: فصيلة القطن الحريري (Bombacacées) وهي من نباتات الصحراء المغربية، ولم يرد اسم الإهليلجيات= Combreta-cées وهي أيضا من نباتات الصحراء. وفصيلة الوعلانيات= Commelinacées وهي من فصائل الصحراء المغربية، ولم تذكر فصيلة الجوزيات Juglandacées وقد ذكرها «صوفاج» في مخطوطته عن نباتات المغرب، وأورد، «روني مير» نوعين للجنس قال عنهما أنهما من المغروسات. وكذلك البخوريات وهي من فصائل الصحراء المغربية خاصة =Burseracées.

* تم تحديد الأسماء العربية والمعربة، اعتمادا على ما ورد منها في مراجع أهمها:

ـ معجم الألفاظ الزراعية: فرنسي ـ عربي مع فهرس عربي لمواده.

تأليف: الأمير مصطفى الشهابي ـ 694 صفحة في القسم الفرنسي العربي، و100 صفحة للفهرس العربي ـ الطبعة الثانية ـ 1957.

ـ معجم إنكليزي ـ عربي في العلوم الطبية والطبيعية.

تأليف: محمد شرف ـ 971 صفحة، الطبعة الثالثة بدون تاريخ، نشرت منه الطبعة الثانية سنة 1928. ويورد هذا المعجم الأسماء العلمية لكثير من الأجناس، وأسماء الفصائل معربة».

ـ كتاب «إحياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات العطارية».

تأليف: رمزي مفتاح ـ 673 صفحة ـ الطبعة الأولى 1953.

ذكر فيه مؤلفه الأسماء العلمية وفصائل النباتات الطبية المذكورة في تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب للأنطاكي.

ـ المعجم العربي الحديث لاروس.

تأليف: خليل الجر ومن معه، 1307 صفحة، طبعة 1973.

وهو معجم عربي غني بأسماء الفصائل، وساعد في ضبط العربية والمعربة منها.

* وبما أن المعجم الملحق بهذه الدراسة، يذكر أسماء جديدة استحدثت كمرادفات لأسماء قديمة، وأسماء مستحدثة لفصائل جديدة كانت أجناسها تصنف داخل فصائل قديمة، فإنه لا مناص من أمرين:

ـ تحقيق اسم الجنس المعتمد في اشتقاق الاسم الجديد للفصيلة، وترجمته إلى العربية، وهذا ما وقع مثلا للخردليات، لأنها تعرف بهذا الإسم عند بعض العشابين ويتداولونه بينهم ويفهمون المقصود منه، ومثله اسم الكرفسيات المرادف للخيميات.

ـ تعريب اسم الفصيلة التي لم يتم ضبط وتحقيق اسمها، أو وضع الإسم المرادف قبالتها. وهذا ما تم لأسماء الفصائل، الجديدة منها والمستحدثة. وهذا ما اتبع بالنسبة للأسماء الجديدة للفصائل القديمة مثل النجيليات، والبلوطيات والشفويات والراتنجيات. والأسماء الجديدة المعربة هي المذكورة عادة، وليس لها أسماء مرادفة في المراجع المعتمدة، ويوضع اسم الفصيلة أحيانا مكان المرادف وفي هذا إشارة يستدل بها النباتي وتساعده في البحث.

* ساهمت مراجع كثيرة ومتنوعة، في اللغة والنبات، في إنجاز الدراسة وضبط أسماء الفصائل والقبائل النباتية وفرزها. وأخص بالذكر هنا:

- مبحث نباتات فرنسا وسويسرا وبلجيكا.

تأليف: ج. بونيي، ج. دولايانس =

G. Bonnier et G. De Layens

426 صفحة - طبعة جديدة منقحة 1960.

طبع الكتاب بإشراف وزارة التربية الوطنية الفرنسية.

نسخة هذا الكتاب لم تفارقني منذ 20 عاما. وأعتبر هذا المؤلف بمثابة مدرسة أو أستاذ أستعين به في معرفة النباتات التي أصادفها أثناء تجوالي وترحالي في أرض دكالة منذ 1968 وإلى يومنا هذا.

يصنف هذا الكتاب حوالي 810 جنس نباتي ضمن 149 فصيلة، إلا أنه يذكر أسماء كثيرة هي الآن في عداد القبائل، ولا ترد في كتب النبات الحديثة كفصائل، وهي الإمبروزيات، البرونيقيات (بتشديد الباء)، البوصيريات، الجعفيليات، السورنجانيات، الكشوتيات، الياسمينيات. كما يلاحظ أن نهايات أسماء الفصائل، وإن كانت كلها تتكون من الثلاثة حروف السابقة الذكر (ées) إلا أنها تختلف عما هو مستعمل الآن في كتابة اسم الفصيلة النباتية، مثال ذلك: تكتب أسماء بعض الفصائل في هذا المبحث على الشكل الآتي:

Abiètinées - Accrinées - Amaryllidées - Apocynées - Berberidées - Butilinées - Borraginées - Cactées... etc.

ونفس الفصائل تكتب حاليا على الشكل الذي كتبت به هذه الأسماء في المعجم الملحق وهو كالآتي:

Abiètinacées - Amaryllidacées - Apocynacées - Berberidacées - Bétulacées - Borraginacées - Cactées... etc.

* استحدثت أخيرا، نتيجة تقدم علم التصنيف النباتي، وحدات تصنيفية داخل الفصائل ذوات الأجناس الكثيرة، ووضعت لها أسماء جديدة، وأصبحت هذه المجموعات قبائل نباتية، يهتدي بها المصنف وتساعده في بحثه. ونجد أكبر عدد من القبائل المستحدثة في أربع فصائل، من فصائل الشمال الإفريقي هي: المركبات والنجيليات والقرنفليات والقرنيات. ونكتفي هنا بذكر الأسماء العلمية لقبائل كل فصيلة على حدة، على أن نعرف بها في بحث خاص بأسماء الأجناس.

- قبائل فصيلة المركبات: Anthemidées - Asterées - Calendulées - Cichoracées - Cynarées - Eupatoriées - Helianthées - Inulées - Senecionées.

- قبائل فصيلة النجيليات: Agrostidées - Avenées - Chloridées - Festucées - Hordées - Panicées - Phalaridées - Stipées.

- قبائل فصيلة القرنفليات: Alsinoidées - Paronychioidées - Silenoidées.

- قبائل فصيلة القرنيات: Dalbergiées - Galegées - Genistées - Hedysarées - Lotées - Podalyriées - Sophorées - Trifoliées.

وأسماء القبائل هاته غير واردة كلها بالمعجم الخاص بفصائل شمال إفريقيا، وإن كانت كلها ممثلة بأجناسها في هذه الفصائل نفسها. وذكرت الأسماء الخاصة بالقبائل المشهورة.

وأهمية الإشارة إلى وجود هذه القبائل تأتي من أنها تلعب دورا في تحديد أشخاص الأجناس المنتمية إليها، ولأنها أيضا مرشحة أكثر من غيرها لتلج المعاجم مستقبلا. فكما أن

علم التصنيف يميزها اليوم كقبائل، فقد تقتضي الدقة العلمية والاكتشافات المستقبلية اعتبارها كفصائل مستقلة، أو تقسيمها بدورها إلى قبائل أخرى جديدة.

الخاتمة :

هذه دراسة «تقنية» في مصطلحات نباتية خاصة بعلم التصنيف، قدمتها بأسلوب كنت أود لو كان ألطف وأحسن مما هو، حتى لا يمل منه قارئ، وكل ما أطمع فيه، هو أن يغفر لي الأديب كل جملة أوتركيب لم تنسجم نغمات عباراته، فحسبي أنني أخوض في ميدان متشعب المسالك مدفوعا بتشجيعات أساتذة أجلاء، أشاروا بالكتابة في هذا الموضوع، بغية التعريف بنباتات المغرب. ويقدم المعجم والدراسة، لائحة طويلة من المصطلحات العربية والمعربة تفي بحاجة الباحث العربي للاطلاع على واقع جانب من جوانب وضعية أسماء الفصائل النباتية، وتكوين فكرة عن مورد من موارد الأرض العربية بالشمال الإفريقي، وما تزخر به من خيرات نباتية.

مكتب تنسيق التعريب
منجزات وأهداف
(1961ـ 1991)

محمد أفسحي
مكتب تنسيق التعريب

تقديم

ربط المغرب، منذ أن خفقت راية الإسلام على هذه الديار، بين اللغة العربية والقرآن الكريم، دستور هذا الدين، الذي نفذ قلوب وعقول المغاربة منذ ذاك. وأصبحت قدسية الإسلام تتمثل في قدسية هذه اللغة التي جاء بها القرآن.

ولم تعد لغة الضاد لغة شعر وتفاخر، بل أصبحت لغة بحث تستقصي الأسرار، وتستكنه التآويل، وتعبر عن شفافية الشطحات أو الخواطر اللوامع، فاكتسبت بذلك قدرة أصبحت معها مطواعة لعلماء الكلام، يصوغون منها ما يشاؤون ليقتحموا بالفكر العربي الإسلامي، مجالات هي عتبات التأملات الفلسفية، والمحاجات العقلية والمنطقية. ولم تلبث هذه اللغة أن أخذت لها العدة لإقامة الفكر العلمي العربي الإسلامي الذي لم يترك مجالا من مجالات العلوم الحقة إلا واقتحمها، بل أصبحت هذه اللغة مرجعا ومعتمدا تهفو إليها عقول طلاب المعرفة من أمم الأرض، لتشرف من أعلى بناء هذا الصرح الشامخ، على آيات ما أبدعه عقل الإنسان فلسفة وعلما. ولم تستطع مجاميع وقواميس هاتيك الأمم التقوقع على نفسها خيفة القصور والعجز، ففتحت أذرعها مستضيفة هذا اللفظ أو ذاك، لأن الاستفادة مما أبدعه الفكر علما، تدعو إلى قبول أداة التعبير التي استعملها أهل هذا العلم. إما كلا، مصطلحا أو منهجا، يبعث الحياة في لغة هؤلاء المستقبلين.

لم تخرج الأمة العربية الإسلامية عن قانون الصيرورة التاريخية المعهودة، فأتى عليها حين من الدهر اضطرت خلاله إلى تسليم تلك المسؤولية العلمية

إلى أمم غيرها، كما أتى عليها حين من الدهر، كانت فيه مطمعا ومبتغى لاغتنام خيراتها الطبيعية، بعدما كانت معينا جاد بسخاء، بخيرات عقلية أغنت الحضارة والناس. لم تقف المساعي الإنسانية الباحثة خلال فترة الغفوة هذه، وبعد أن استرجعت الأمة العربية ما ضاع منها من حق في الحرية والقرار، استرجعت صورة ماضيها العلمي المجيد، فرأت أن تجديد هذا الماضي لايتم إلا بإغناء لغتها وبعث روح العصر فيها، لتتحمل نفس المسؤولية السابقة. لم تغب هذه الفكرة عن المغفور له محمد الخامس، فدعا إلى إنشاء مكتب تكون مهمته، بذل الجهد، اعتمادا على تجارب عربية كان لها نفس الشعور، حتى يستدرك لهذا الغرب الإسلامي، شمال إفريقيا، ما فاته في لغته مدة ظلام الاستعمار. وقد استعظمت جامعة الدول العربية هذا المجهود، ورأت أن من حقها أن توفر له سبل الاستمرار بعدما رأت أمامها أعمالا مجسمة هي نتيجة جهود كان سلاحها الإيمان ومعتمدها الآمال. ثم إن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سيرا على خطوات الجامعة، وفرت هي أيضا كل السبل ليصبح عمل هذا المكتب، عملا قوميا لا تمثل فيه التجربة المغربية إلا أسه ومنطلقه، فزودته بعطاءات تنوعت وتعددت، منها الخبرة البشرية واللقاءات العلمية والندوات والمؤتمرات، وما لهذه جميعا من توصيات أصبحت دستورا للعمل الذي ساهمت فيه كل الأمة العربية.

إن هذا العمل الذي بين أيديكم، هو تاريخ لهذه المسيرة، قصد منه صاحبه بجهد مشكور، أن يقرب المشقة، ويوفر الأداة، ويحيط بالصورة حتى يبلور أعمال مسيرة ثلث قرن، سعد فيها المكتب والمشرفون عليه، بسعادة الحلو والمر، في هذا البنيان الذي لا مطمح له إلا إعادة المجد للغة كانت هي عنوان المجد.

والله الموفق

أحمد شحلان

مدير مكتب تنسيق التعريب

مقدمة

لقد حرصت أن لا أتناول جهود هذا المكتب بالتحليل والتقييم والتعليق والاقتراح، تاركا ذلك لغيري من المهتمين والباحثين والمختصين. ولذلك فضلت محاولة الإحاطة فقط بشتات المنجزات التي حققها هذا المكتب عبر أكثر من ربع قرن من الزمن، معتمدا في ذلك على الله، وعلى قوة الصبر والإيمان، والحب والتقدير، اللذين أكنهما شخصيا لهذه المعلمة الكبيرة، التي قدمت وما زالت تقدم الشيء الكثير للعروبة ولغة الضاد.

وعلى هذا الأساس فستكون هذه (الدراسة) إن شاء الله أول عمل من نوعه يبرز منجزات هذا المكتب، سواء من حيث المحتوى أم التبويب، لما تتضمنه من سرد تاريخي وإحصائي لجهود العاملين فيه، في ميدان التعريب وتنسيقه، وتوحيد المصطلحات وتعميمها، والعناية باللغة العربية والرفع من مستواها، منذ عام 1961 حتى اليوم.

ولم أدخر جهدا في رسم خطواته خلال الفترات الزمنية التي عاشها سواء تلك التي تميزت بالاستقلال المالي والإداري تحت إشراف جامعة الدول العربية قبل احتضانها له وبعد ذلك، أم بعد انضمامه إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. كما أنني حرصت على أن أتتبع ما رافق ذلك كله من وضعيات قانونية مختلفة وإمكانات مادية متفاوتة رسمت أهدافه ومجالات عمله.

وإني لأرجو أن يكون عملي هذا مفيدا لكل من يشرفني بالاطلاع عليه، والله ولي التوفيق.

معد الدراسة

تمهيد

كان من الضروري، لكي أدلو بدلوي في هذه الدراسة، أن أتحدث عن هموم التعريب ومشاكله وآماله وتطلعاته، غير أني استعظمت هذا الأمر ووجدت أن زادي قد يتضاءل وفصاحتي قد تقصر، فقلت: لهذا الميدان فرسانه وفطاحله، وله من لهم من البلاغة حسن البيان، ومن تجربة الغوص ما يقوم بتشييد البنيان. وقلت: قد أكتفي بوصف ما صادفني من مشاكل، واعترضني من عراقل، وأنا أتتبع، بالجمع والحفظ، هذه المسيرة الطويلة التي قدر لي أن أكون أحد حراسها المتواضعين. ويشفع لي في المنهج الذي اتخذته والمسلك الذي اتبعته، وهو محاولة تسجيل هذا التاريخ كما تم وتقرر، حِلمُ القارىء ورحابة صدره، تاركا التعليق والدرس والتتبع المتفحص لغيري من المختصين.

إن عملي هذا هو محاولة للإجابة عن أسئلة ترددت في خاطري، وشغلت فكري كلما رجعت بي الذاكرة إلى مسيرة هذا العمل الدؤوب، وربما هي نفس أسئلة شغلت غيري ممن يتبع أو يشارك، أو الذي يجد بين يديه هذا العمل المتواضع.

فلماذا هذه الدراسة؟ ولم جاءت في هذا الوقت بالذات؟ ولماذا تم تبويبها انطلاقا من فترات زمانية؟ تلكم هي الأسئلة التي ألحت علي، حتى اقتنعت وشرعت في إعداد العمل دون التفكير في قضية كيف البدأ.

وقد قسمت جوابي ليتناول محورين أساسيين: الأول يتعلق بمسيرة هذا المكتب، وقد بلغت سنونها جيلا من أقدار الناس، وهي فترة زاخرة بالجهد العلمي المتفاني. وقد اخترت هذا النهج، لأن المكتب نفسه مر في وضعه القانوني، بهذه المراحل التي سايرت كل فترة منها لائحة إدارية معينة وبرامج علمية محددة.

أما لماذا هذا العمل؟ فسؤال أعتقد أن الجواب عنه كان أعوص مما كنت أتخيل، لأن كل الأجوبة التي دارت بخلدي ما كانت لتقنعني، وقد لا تقنع القارىء أيضا، وتستوجب طرح كل عناصر مكونات الجواب بدءا وبالضرورة.

كانت فكرة إنجاز الدراسة نابعة من شعوري المتكرر كلما رمت البحث عن وثيقة أو موضوع، وكان هذا الشعور يزداد عندما كنت أجدني بين أكوام من الأوراق وأشتات من المعارف وتصورات من المناهج ومنجزات، مما حققه هذا المكتب العتيد في مسيرة ثلاثين سنة، مليئة بالمشاق والصعاب والتطلعات، من أجل أن تصبح اللغة العربية لغة علم وتقدم لا تقل عن أخواتها من بنات ألسن الناس. وكثيرا ما كنت أشعر بإحساس غريب إن لم أقل رهيب.

ذاك أن الذاكرة تعود بي، وأنا بين هذه الأكوام الغالية، إلى الوراء، فتتراءى لعين

ذاكرتي مسيرة هذه المعلمة الشامخة، وقد يشاركني شعوري هذا من عانى نفس ما أعاني.

أشعر وكأني أسمع هذه الأوراق تردد جملة واحدة: التعريب واللغة العربية.

أشعر وكأن أصوات مئات من العلماء والمجمعيين والتخصصيين وكثير ممن أفاء الله عليهم بنور البصيرة وثقابة الفكر، ممن حضروا هذه الندوات، وشاركوا في تلك اللجن، وعانوا في هاتيك المؤتمرات، ما زالت حية تتردد هنا بنقاشاتها وخلافاتها ومنازعاتها واتفاقاتها، من أجل توحيد مصطلح أو صياغة توصية، خدمة لفكرة واحدة هي دعم هذه اللغة الخالدة وإبراز مكانتها في مجالات العلم والإبداع.

أشعر وكأن عصارة أفكار أولئك الرجال العلماء الأفذاذ ممن تعاقبت عليهم مسؤولية إدارة هذا المكتب، وكأنها تحذرنا من أن نقع في هفوة، أو تنسينا غفوة، هذه الثروة الهائلة من الوثائق والمعلومات.

أشعر وكأن جهود أولئك الخبراء والموظفين الذين سهروا يقظة وعرقا، لإعداد عشرات من المعاجم، وتحضير عشرات من الندوات والمؤتمرات خدمة للغة الضاد، توقظ عزائمنا لكي لا تصبح هاتيك الأعمال من آثار الماضي تقادما ومخلفات السنون إعفاء.

أشعر وكأن ما تختزنه ذاكرتي من آثار هذه الجهود، ومسيرة هذا المكتب الذي عايشته منذ سنواته الأولى، تلح علي في أن أنقله سوادا على بياض حتى لايتعرض للنسيان بالمغادرة أو الوفاة، وأملي أن ينفع بعض الناس.

وأخيرا أحسست أن من واجبي أن أخلص لروح واضع أس هذا الأثر العظيم، الملك المصلح الصالح، المغفور له محمد الخامس، طيب الله ثراه، وخلد في الخافقين ذكراه، بخط هذه السطور، لأن خلاصتها محاولة تاريخية لهذا المكتب الذي هو أثر من آثاره الخالدة.

والآن فإن ما أثقل الكاهل قد زال، والأمل تحقق، والله الهادي إلى ما فيه الصواب.

محمد أفسحي

* * *

الملف الأول
الوضعية التاريخية والقانونية للمكتب
منذ تأسيسه عام 1961

الموضوع الأول :

لمحة تاريخية عن المكتب
(1961 ـ 1991)

1 ــ تأسيس المكتب

انبثق مكتب تنسيق التعريب عن مؤتمر التعريب الأول الذي انعقد بالرباط في المدة من 3 إلى 7 أبريل سنة 1961، باعتباره مكتبا دائما، الغاية من وجوده تنسيق جهود الدول العربية في ميدان التعريب تحت إشراف جامعة الدول العربية.

وقد شعرت الدول العربية وجامعتها بأهمية رسالة المكتب، فوافقت على توصيات المؤتمر المذكور، كما وافقت على المغرب مقرا له، إذ كان الهدف من التعريب آنذاك المغرب العربي الذي رأى في المشرق العربي تجربة يمكن الاستفادة منها، والتزمت الدول العربية بتمويل مشاريع المكتب. وتطبيقا لهذه التوصيات نظم المكتب دورة أولى لمجلسه التنفيذي الذي تمثلت فيه الدول العربية وجامعتها بالرباط وذلك بتاريخ 19 فبراير سنة 1962.

ومن أبرز الأهداف التي وجد من أجلها **المكتب الدائم لمؤتمر التعريب** عام 1961، تعزيز الفكر المبدع في اللغة العربية وتوحيد جهود المجامع اللغوية والعلمية والهيئات المشتغلة بالتعريب واللغة في العالم العربي، وذلك من أجل تقوية الاتجاه الفكري الموحد في البلاد العربية.

2 ــ إلحاق المكتب بجامعة الدول العربية

بعد مصادقة مجلس جامعة الدول العربية في قراره رقم 2541 / دج 4/ 16/3/69 على النظام الأساسي للمكتب وإقرار ميزانيته، أصبح مؤسسة ملحقة بجامعة الدول العربية.

وكان المكتب يقصد آنذاك تحقيق ثلاثة أهداف هي:

— تعريب التعليم

— تعريب الإدارة

— تعريب جميع المظاهر الحضارية في البلاد العربية

كما كان يتمتع في تلك الفترة باستقلال فني وإداري ومالي في نطاق تنظيمات جامعة الدول العربية، وله مجلس يتألف من رؤساء البعثات الدبلوماسية في الرباط

أو من ينوب عنهم، ومن لجنة عليا للخبراء العرب، ولجنة مجمعية.

وكانت ميزانيته ملحقة بميزانية جامعة الدول العربية، تتكون من مساهمات الدول العربية وفقاً لأنصبتها في الجامعة العربية، ومساهمات المنظمات الدولية، والإعانات والتبرعات والهبات.

3 ــ إلحاق المكتب بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

بقرار صادر عن الأمانة العامة للجامعة العربية تحت رقم 70، بتاريخ 1972/5/8، أصبح المكتب جهازا من أجهزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ووافق مجلسها التنفيذي على نظامه الداخلي ولائحته الداخلية وتحديد أهدافه وهيكله التنظيمي وميزانيته. وقدمت له دولة المقر المساندة والعون في جميع المراحل التي مر بها.

الموضوع الثاني:

الأنظمة واللوائح التي تحكم المكتب (1961ـ 1991)

كان المكتب ولا يزال يؤدي رسالته في ظلّ الأنظمة واللوائح التي كانت تتغير وتتجدد حسب تغير وضعه القانوني أو عندما يتطلب الأمر ذلك. فقد عاش المكتب فترة الاستقلال المالي والإداري تحت إشراف جامعة الدول العربية من عام 1961 حتى عام 1969، ثم خضع بعد ذلك للأنظمة واللوائح التي تحكم وضعه القانوني والتنظيمي وسيره المالي والإداري، وهكذا فقد عاش المكتب تحت ظل الأنظمة والقوانين التالية:

1 ـ فترة انضمام المكتب لجامعة الدول العربية

— **النظام الأساسي** الذي اعتمده مجلس جامعة الدول العربية بقراره رقم 2541/ دج 4/16/3/79.

2 — فترة انضمام المكتب للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

— **النظام الداخلي**، الذي اعتمده المجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في دروته الثامنة بقراره رقم: م.ت / د8 / ق ــ 28 بتاريخ 27/1ـ3/2/1973.

— **اللائحة الداخلية**، التي صدرت بقرار السيد المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم رقم 34 لسنة 1984.

أما بخصوص الشؤون المالية والإدارية، فإن المكتب يخضع لنظام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

الموضوع الثالث :

الهيكل التنظيمي للمكتب (1990)

لقد مر المكتب ببعض التنظيمات الهيكلية بحسب ما تمليه حاجة العمل وما تقره الأنظمة واللوائح التي حكمته، ويهمنا هنا آخر تنظيم في هذا الشأن، ويتعلق الأمر بالهيكل التنظيمي للمكتب الذي صدر ضمن الهيكل التنظيمي العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وأجهزتها المتخصصة، الذي اعتمده المجلس التنفيذي للمنظمة بقراره رقم: م.ت/د 47 / ق 9 ج، بتفويض من المؤتمر العام في دورته العادية التاسعة قرار رقم: م.ع / د.ع / 9 / ق لعام 1989.

1 ـ أقسام الهيكل التنظيمي

يتألف مكتب تنسيق التعريب حسب الهيكل التنظيمي المذكور، من قسمين رئيسيين هما:

أ ـ القسم التقني :

ويضطلع بتنفيذ برامج المكتب ومشروعاته من خلال الوحدات التي يتألف منها وهي:

1 — وحدة المعاجم.

2 — وحدة المجلة والنشر.

3 — وحدة متابعة العمل في المصطلحات الموحدة.

4 — وحدة بنك المصطلحات.

ب ـ القسم الإداري والمالي

يمارس هذا القسم أعماله وفق أحكام نظام موظفي المنظمة ونظامها المالي والإداري والقرارات والتعليمات التي يصدرها المدير العام للمنظمة، ويتألف من الوحدات التالية:

1 — الوحدة الإدارية.

2 — وحدة الحسابات.

3 — وحدة الطباعة والتوزيع.

4 — وحدة المشتريات والمخازن.

5 — وحدة المكتبات.